

الزمن العَصِيبُ



الروايات المشهورة

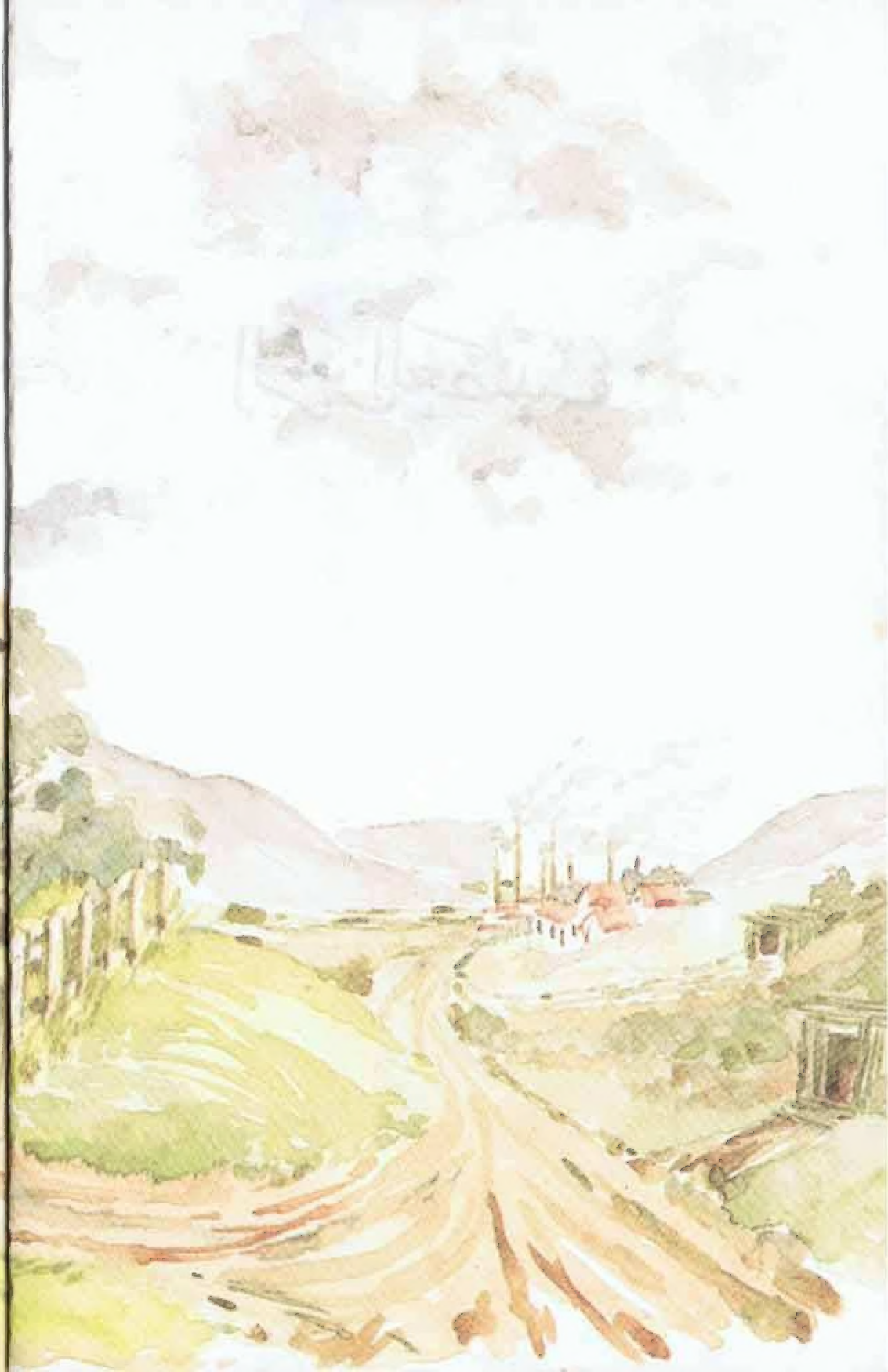
الروايات المشهورة

- ١ — جين إير
- ٢ — فرانكنشتاين
- ٣ — مونفليت
- ٤ — دراكولا
- ٥ — لورنادون
- ٦ — دكتور جيكل ومستر هايد
- ٧ — شي الملكة الأسطورة
- ٨ — كونت مونت كريستو
- ٩ — الرجل الخفي
- ١٠ — الزمن العَصِيب

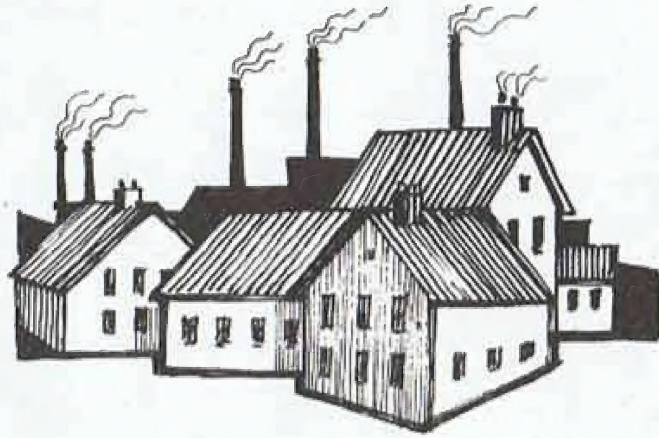


مَكْتَبَةُ لَبْنَان

سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیروت



الزمن العَصِيبُ



تأليف : تشارلز ديكنز
إعداد : الدكتور اللواء السيد أبو مسلم
رسوم : ممدوح فهمي كراس

مَكْتَبَةُ لِبْنَان
بِیروت

الفصل الأول

وَقَفَ السَّيِّدُ غِرَاذَغَرَايْنِدُ فِي أَحَدِ فُصُولِ مَدْرَسَتِهِ يُخَاطِبُ الْمُدْرَسِينَ : « إِنِّي أُرِيدُ الْحَقَائِقَ ! وَلَا نَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ وَالْبَنَاتُ سِوَى الْحَقَائِقِ ! لَقَدْ دَأْبْتُ عَلَى تَنْشِئَةِ أَوْلَادِي عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ ، وَأُرِيدُكَ أَنْ تُنْشِئَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ . فَلَنْ يَنْفَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ سِوَى الْحَقَائِقِ . »

كَانَ الْفَصْلُ مَكَانًا كَثِيرًا مُرَبَّعَ الشَّكْلِ ، يَجْلِسُ فِيهِ عِشْرُونَ تَلْمِيزًا هَادِثِينَ عَلَى مَقَاعِدِهِمْ ، عَلَى حِجْزٍ كَانَ السَّيِّدُ غِرَاذَغَرَايْنِدُ ، نَاطِرُ الْمَدْرَسَةِ ، يَتَحَدَّثُ إِلَى مُدْرَسِ الْفَصْلِ . وَكَانَ ثَمَّةَ شَخْصٍ آخَرَ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ .

كَانَ السَّيِّدُ غِرَاذَغَرَايْنِدُ يَمْلِكُ الْمَدْرَسَةَ ، وَقَدْ بَنَاهَا عَلَى شَاكِلَتِهِ مُرَبَّعَةَ الشَّكْلِ : فَجِسْمُهُ مُرَبَّعُ الشَّكْلِ ، وَلَهُ رَأْسٌ مُرَبَّعٌ وَأَصَابِعُ غَلِيظَةٌ مُرَبَّعَةٌ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ أَشْبَهَ بِنَقْرَتَيْنِ دَاكِتَتَيْنِ مُرَبَّعَتَيْنِ فِي رَأْسِهِ الْأَصْلَعِ الَّذِي بَدَأَ مُهَيَّأً لِأَنْ يَنْفَجِرَ مِنْ كَثْرَةِ مَا خَشِيَ بِهِ مِنْ خَفَاقٍ .

لَمْ يَكُنْ غِرَاذَغَرَايْنِدُ يَرَى فَائِزَةً إِلَّا فِي الْحَقَائِقِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَعَامَلُ إِلَّا مَعَ مَا يُمْكِنُ عَدُّهُ أَوْ قِيْلُهُ ، وَيَرْفُضُ سِوَاهُ .

وَوَاصِلُ كَلَامِهِ : « إِنَّنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا نَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى الْحَقَائِقِ . إِنْ هُضِيَ أَيْتُهَا الْفَتَاةُ رَقْمُ ثَلَاثِينَ . إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذِهِ الْفَتَاةَ ، فَمَنْ هِيَ ؟ »

نَهَضَتِ الْفَتَاةُ رَقْمَ عِشْرِينَ وَقَدْ أَحْمَرَّ وَجْهَهَا حَجَلًا ، وَأَنَحَتْ بِأَحْتِرَامٍ لِلسَّيِّدِ
غَرَاذِغَرَايَنْد . كَانَتْ جَمِيلَةً ، سَوْدَاءَ الشَّعْرِ وَالْعَيْنَيْنِ .

قَالَتْ : « سَيْسِي جُوب ، يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ غَرَاذِغَرَايَنْد : « سَيْسِي لَيْسَ اسْمًا . اسْمُكَ سَيْسِيلِيَا . »

إِنَحَتْ الْفَتَاةُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَقَالَتْ وَحُمْرَةُ الْحَجَلِ مَا زَالَتْ عَلَى وَجْهَهَا : « وَلَكِنَّ
أَبِي يُنَادِينِي بِاسْمِ سَيْسِي . »

فَرَدَّ النَّاطِرُ غَاظِيًا : « إِذَا فَهُوَ مُخْطِئٌ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرِيهِ أَنْ يَكْفَ عَنْ ذَلِكَ ؛
فَاسْمُكَ سَيْسِيلِيَا جُوب . مَا هُوَ عَمَلُ وَالِدِكَ ؟ »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ : « إِنَّهُ يَعْمَلُ فِي السَّيْرِكِ ، يَا سَيِّدِي . إِنَّهُ يَرْكَبُ الْخَيْلَ . »

وَيَبْدُو أَنَّ النَّاطِرَ لَمْ يُعْجِبْهُ الرَّدُّ فَقَالَ : « فِي السَّيْرِكِ ؟ إِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ
شَيْئًا عَنِ السَّيْرِكِ هُنَا . إِنَّهُ يَرْعَى الْخَيْلَ عِنْدَمَا تَمْرَضُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قَالَتْ : « بَلَى يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْضًا . »

قَالَ النَّاطِرُ : « إِذَا فَوَالِدُكَ طَيِّبٌ . إِنَّهُ طَيِّبٌ لِلْخَيْلِ . وَآلَانَ أَخْبِرْنِي يَا سَيْسِيلِيَا
جُوب : مَا هُوَ الْجِحْصَانُ ؟ هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تُعْرِفِيهِ ؟ »

إِحْمَرَّ وَجْهُ الْفَتَاةِ حَجَلًا ، وَخَفَضَتْ بَصَرَهَا ، وَلَمْ تُجِبْ .

قَالَ النَّاطِرُ : « إِنَّ الْفَتَاةَ رَقْمَ عِشْرِينَ تَلْمِذَةً غَيْبَةً ، فَهِيَ لَا تَعْرِفُ الْحَقَائِقَ
الْأَسَاسِيَّةَ عَنْ حَيَوَانَ مَالُوفٍ تَعْرِفُهُ جَمِيعًا . سَوْفَ أَسْأَلُ تَلْمِذًا . » وَأَشَارَ النَّاطِرُ

بِأَصْبَعِهِ الْمُرْبَعِ نَحْوَ غُلَامٍ أَيْبَضَ الْوَجْهِ وَشَعْرُهُ خَفِيفٌ فَاتِحُ اللَّوْنِ يُدْعَى بِيْتَزَر ،
وَسَأَلَهُ : « وَآلَانَ يَا بِيْتَزَر : مَا هُوَ الْجِحْصَانُ ؟ »

أَجَابَ الْغُلَامُ : « إِنَّ الْجِحْصَانَ يَا سَيِّدِي حَيَوَانٌ ذُو أَرْبَعِ قَوَائِمَ ، يَأْكُلُ
الْحَشَائِشَ وَالْخُبُوبَ ، وَفِي فَمِهِ أَرْبَعُونَ سِنًا ، وَيَتَسَاقَطُ شَعْرُهُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ .
وَمِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ تُرَكَّبَ لَهُ نِعَالٌ (خَدَوَاتُ) فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا سُقُوطُ
الْأَمْطَارِ . وَيُعْرِفُ عُمُرُهُ بِعَلَامَاتٍ فِي أَسْنَانِهِ ... »

رَضِيَ النَّاطِرُ بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ ، وَنَظَرَ نَحْوَ الْفَتَاةِ وَقَالَ لَهَا : « أَنْتِ أُنْتِهَا الْفَتَاةُ
رَقْمَ عِشْرِينَ ، هَلْ سَمِعْتِ ؟ هَلْ عَرَفْتَ آلَانَ الْحَقَائِقَ الْأَسَاسِيَّةَ عَنِ الْجِحْصَانِ ؟ »

اشْتَدَّ احْمِرَارُ وَجْهِ سَيْسِي ، وَأَنَحَتْ مَرَّةً ثَمَّ جَلَسَتْ . وَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ الثَّانِي
إِلَى الْأَمَامِ ، وَكَانَ مُوظَّفًا حُكُومِيًّا لَا يَتَعَامَلُ هُوَ أَيْضًا إِلَّا مَعَ الْحَقَائِقِ .

قَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهَا التَّلَامِيذُ الْحَقَائِقُ الْأَسَاسِيَّةُ عَنِ الْجِحْصَانِ . وَآلَانَ أَوَدُ
أَنْ أَوْجِهُ سُؤَالَ : لَوْ أَنَّكُمْ رَغَبْتُمْ فِي تَجْمِيلِ حُجْرَةٍ ، فَهَلْ تُعْلَقُونَ عَلَى جُدْرَانِهَا
صُورًا لِلْخَيْلِ ؟ »

اِخْتَلَفَ التَّلَامِيذُ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ ، فَقَدْ أُيِّدَ يَصْنَفُهُمْ هَذَا الْإِقْتِرَاحَ ،
أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَقَدْ رَفَضَهُ .

أَوْمَأَ الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ قَائِلًا : « بِالطَّبَعِ يَجِبُ أَلَّا تُعْلَقُوا صُورَ الْخَيْلِ عَلَى الْحَائِطِ !
هَلْ سَبَقَ أَنْ شَاهَدَ أَحَدُكُمْ جِحْصَانًا يَرُوحُ وَيَجِيءُ فَوْقَ الْحَائِطِ ؟ »

قَالَ بَعْضُ التَّلَامِيذِ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي ! وَلَكِنَّ أَصْوَانَهُمْ ضَاعَتْ وَسَطَ ضَجِيجِ

الأصوات التي قالت : « لا يا سيدي ! »

قال الرجل : « كلا بالطبع ! فالحيل على الحائط ليست من الحقيقة في شيء . »

وأيد السيد غراذغرايند رأي الرجل قائلا : « هذا صحيح للغاية ! » وواصل الرجل حديثه قائلا : « يجب ألا يكون لدينا شيء غير حقيقي . » ثم وجه السؤال التالي :

« لو رغبتكم في شراء سجادة ، فأني نوع تشترونه ؟ هل تفضلون شراء سجادة عليها تصاوير أزهار ؟ »

أدرك التلاميذ أن إجاباتهم بكلمة : « لا » تحظى بالإعجاب والرضا فصاحوا جميعا : « لا ! لا تشتري مثل هذه السجادة . » ولكن سيسي جواب وأثنين آخرين أجابوا : « نعم يا سيدي ، نفضل شراءها . »

انزعج الرجل واتجه نحو الفتاة وسألها مرة ثانية : « أيتها الفتاة رقم عشرين ، هل تشتري سجادة عليها تصاوير أزهار ؟ »

إحمر وجه سيسي خجلا ، وانحنت وأجابت : « نعم يا سيدي ، فانا أحب الأزهار ؟ »

فقال الرجل : « ولكن الناس تمشي على السجاجيد بأحذيتهم الثقيلة ، فهل تحبين أن يدوسوها بأحذيتهم ؟ »

ردت الفتاة : « ولكن الأخذية لن تثلث الأزهار التي على السجادة . إنني

أحب أن أتحيل مثل هذه السجادة حديقة جميلة . »

فصاح الرجل : « تتحيلين ؟ ماذا تعنين بهذه الكلمة ؟ ليس لك أن تتحيلي . » وقاطعه الناظر قائلا بلهجة حازمة : « سيبيليا جوب ! إنني أمتنع من أن تتحيلي أي شيء . »

صاح الرجل مؤكدا : « الواقع ! الواقع ! »

وكرر السيد غراذغرايند قول الرجل : « الواقع ! الواقع ! »

قال الرجل : « في هذه المدرسة يجب أن ينسى الجميع كلمة « أتحيل » . وعندما ترسمون شيئا فلا ترسموا حيولا أو زهورا ، فهذه الأشياء إذا ما رسمت على الورق لم تعد واقعا . وإذا قرأتم أو كتبتم فاقروا وكتبوا الحقائق فقط . هل فهمتم ما أقول ؟ هل فهمت أيتها الفتاة رقم عشرين ؟ »

أجابت سيسي : « نعم يا سيدي . » وانحنت وجلست . كانت صغيرة السن جدا ؛ فبدا لها عالم الحقائق الجامد خاليا من الجمال والإثارة .

الفصل الثاني

عاد السيد غراذغرايند إلى منزله في تلك الليلة يعمّره الشعور بالرضا والسعادة ، فسرعان ما سيحقق تلاميذ مدرسته من التفوق العلمي ما حققه أبناؤه الخمسة . ومن المؤكد أنه لن يتسنى لأحد أن ينال تعليماً مثل الذي ناله أولاده الخمسة .

ففي منزله المسمى ستون لودج أعد غراذغرايند لأبنائه غرفة لتكون فصلاً يستذكرون فيه دروسهم ، ولتكون محبساً لهم أيضاً . فما إن استطاعوا المشي حتى دفعهم إلى أن يمشوا إليها . وعلى هذا فقد شبّ أبناؤه لا يربطهم بطفولتهم شيء سوى ذكرى السبورة وصورتها . ولم يحدث أن سمعوا قصة الدببة الثلاثة ، ولكنهم يعرفون أن الدب حيوان له أربع أرجل ، وفروة كثيفة خشنة . ولا يعرفون عن القمر سوى أنه أرض صخرائية جرداء خالية من الهواء . والشمس عندهم ليست سوى كمية من الغازات الملتهبة .

أما المنزل المسمى ستون لودج فهو مبنى كبير مربع الشكل يقع على بُعد كيلومترين من مدينة كوكتاون في شمال غرب إنجلترا . وهو منزل يخلو من كل لمحات الجمال ، به سبّث نوافذ على يمين الباب الرئيسي ، وسبّث مثلها على شماله . وثمة اثنتا عشرة نافذة في الواجهة الخلفية . والمنزل بصفة عامة شامخ ركين متوازن الجوانب ، كما يجب أن يكون عليه منزل سيد جليل . والمنزل مثل كل شيء في حياة السيد غراذغرايند ، يعد حقيقة تبعد كل البعد عن الخيال .

كان السيد غراذغرايند قد اشتغل بالتجارة وأثرى منها . وكان يشتري القدر والأواني من المصانع ثم يبيعها للمحال التجارية . وقد حقق أرباحاً عاليةً اعتبرها حقيقة من الحقائق لم تحق مرة في إدخال السرور إلى نفسه . ولما توافر له من يساعده في أعمال التجارة اتسع وقته للقيام بأعمال أخرى أكثر أهمية ، وهي العمل الحكومي . فقد رغب أن يكون عضواً في البرلمان ممثلاً عن مدينة كوكتاون ، ولم لا ؟ فقد عاش في هذه المدينة كل حياته ، وشيد بها هذه المدرسة ، ودفع الكثير ثمناً لذلك . ومن ناحية أخرى فإن خبرته في عالم التجارة تؤهله لأن يكون عضواً ناجحاً في البرلمان ، وخاصة أن البرلمان في رأيه يحتاج إلى رجال يعرفون الحقائق .

كان أهالي المدينة يعتبرونه رجل أعمال ممتازاً وجاداً وعملياً لا عبت أو هزل معه . وكان سعيداً بهذا الرأي ، واعتبره بذوره حقيقة من الحقائق التي يفخر بها ؛ لذا فإنه لم يخجل بأنغام الموسيقى المنبعثة من سيرك سلاري المقام في طريق عودته إلى منزله . فمن رأيه أن الرجال العاملين يتعمون بالعيش بدون الموسيقى .

كان سلاري قد أقام خيام هذا السيرك على مشارف المدينة ، ووقف أمام تلك الخيام وقد أمسك بيده صندوق النقود الذي يجمع فيه ثمن تذاكر الدخول ، وأخذ يصيح من وقت لآخر : « هيا إلى السيرك قبل أن تبدأ ألعاب الخيل ! شاهدوا جوزفين على حصانها الأبيض وهو منتصب على قدميه الخلفيتين ! شاهدوا اللاعب جوب الذي يركب حصانه مع كلبه المدهش المدرب مريلغز ! شاهدوا اللاعب تشيلدرز ! »

لم يتوقف السيد غراذغرايند ، بطبيعة الحال ، أمام السيرك ؛ إذ لا وقت لديه



لِيُمَثِّلَ هَذِهِ التَّفَاهَاتِ . وَوَصَلَ سِيرَهُ مَارًّا بِخِيَمَةِ السَّيْرِكِ الْكَبِيرَةِ دُونَ أَنْ يُعَيِّرَ الْأُمَرَ أَهْتِمَامًا . وَلَكِنَّ شَيْئًا شَدَّ انْتِبَاهَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ؛ إِذْ رَأَى ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنْ تِلَامِيذِهِ خَلْفَ الْخِيَمَةِ يَخْتَلِسُونَ النَّظَرَ مِنْ ثَقْبٍ فِي جِدَارِ الْخِيَمَةِ لِيُشَاهِدُوا مَا يَدَاخِلُهَا . وَكَانَ هَؤُلَاءِ التِّلَامِيذُ قَدْ تَعَيَّبُوا عَنِ الْمَدْرَسَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

دَهَشَ النَّاطِرُ وَلَمْ يُصَدِّقْ نَفْسَهُ ، وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ فِي أَنْ يَقْتَرِبَ لِيَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ . وَمَا إِنْ اقْتَرَبَ حَتَّى عَرَفَ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلَى الْفَوْرِ : ابْنَتَهُ لُوِيْزَا ، وَابْنَهُ ثُومَاسَ . وَنَادَاهُمَا بِحِدَّةٍ ، فَالْتَفَتَا نَحْوَهُ وَقَدْ أَحْمَرَّتْ وَجْهَاهُمَا خَجَلًا . وَلَكِنَّ الْفَتَاةَ تَجَرَّأَتْ وَنَظَرَتْ إِلَى أَبِيهَا ، أَمَّا الْغُلَامُ فَقَدْ غَلَبَهُ الْخَوْفُ ، وَلَمْ يَجْزُؤْ عَلَى النَّظَرِ إِلَى أَبِيهِ الَّذِي صَاحَ قَائِلًا :

« إِنَّ هَذَا أَغْرَبُ مَا شَاهَدْتُهُ فِي حَيَاتِي ! مَاذَا تَفْعَلَانِ هُنَا ؟ »

أَجَابَتْ لُوِيْزَا : « أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَاذَا يَدُورُ دَاخِلَ هَذَا السَّيْرِكِ . »

« مَاذَا يَدُورُ فِي السَّيْرِكِ ؟ ! »

« نَعَمْ يَا أَبِي . »

كَانَتْ لُوِيْزَا فِي الْسَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً وَتَبْدُو مِثْلَ امْرَأَةٍ نَاضِجَةٍ ، وَكَانَ وَالِدَاهَا يُدْرِكُ هَذَا . وَتَرَاى لَهُ أَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ مُصَدَّرَ مَتَاعٍ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ هُوَ الَّذِي قَامَ بِتَرْبِيَتِهَا .

قَالَ مُوجِّهًا كَلَامَهُ لِابْنَتِهِ : « إِنِّي الْوُمُكُ عَلَى مِثْلِ هَذَا التَّصَرُّفِ . كَيْفَ لِفَتَى لَهُ تَرْبِيَتُكَ وَتَقَاتُكَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَخِيهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ؟ »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ بِسُرْعَةٍ : « أُنَا الَّتِي أُثْبِتُ بِهِ يَا أُمِّي . وَقَدْ طَلَبْتُ مِنْهُ الْمَجِيءَ
مَعِيَ . »

قَالَ الْآبُ : « كَمْ يُوسِفُنِي سَمَاعُ هَذَا ! وَذَلِكَ لَا يُبْرِرُ مَوْقِفَ ثُومَاسَ ، وَيَزِيدُ
مِنْ سُوءِ مَوْقِفِكَ يَا لُوِيْزَا . »

نَظَرَتِ الْفَتَاةُ إِلَى أَبِيهَا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَذْرِفْ دُمْعَةً وَاحِدَةً .

فَعَادَ الْآبُ إِلَى تَوْيِيخِهَا قَائِلًا :

« أَنْتِ ؟ ! وَثُومَاسُ أَيْضًا ؟ لَقَدْ فَتَحْتُ لَكُمَا كُلَّ سَبِيلِ الْعِلْمِ ، وَحَصَلْتُمَا عَلَى
أَكْبَرِ قِسْطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَأَتَحْتُ لَكُمَا مَعْرِفَةَ كُلِّ الْحَقَائِقِ . وَمَعَ كُلِّ هَذَا أَجِدُكِ
هُنَا أَنْتِ وَثُومَاسُ فِي هَذَا الْمَكَانِ ... فِي السَّيْرِكِ ! أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ هَذَا
الْمَوْقِفَ . »

قَالَتِ الْفَتَاةُ : « كُنْتُ مُتَعَبَةً . وَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ مِنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ . »

« مُتَعَبَةٌ ؟ مِمَّ أَنْتِ مُتَعَبَةٌ ؟ »

« لَسْتُ أَذْري . مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيمَا أَظُنُّ . »

« إِنَّكَ تَتَحَدَّثِينَ مِثْلَ طِفْلَةٍ ، وَأَنَا رَاغِبٌ عَنْ سَمَاعِ كَلِمَةٍ أُخْرَى مِنْكَ . »
وَسَارُوا صَامَتَيْنِ حَوَالَى كِيلُومِترٍ ، إِلَّا أَنَّ السَّيِّدَ غَرَاذْغَرَايْنِدَ قَطَعَ الصَّمْتَ بِأَنْ سَأَلَ
لُوِيْزَا : « مَاذَا يَقُولُ خَيْرَةً أَصْدِقَائِكَ لَوْ عَرَفُوا بِهَذَا ؟ أَلَا يَهْمُكَ هَذَا ؟ مَاذَا يَقُولُ
السَّيِّدُ بَاوْنِيدِرْنِي ؟ »

وَمَا إِنَّ سَمِعَتِ الْفَتَاةُ هَذَا الْإِسْمَ حَتَّى رَمَقَتْ أَبَاهَا بِنَظَرَةٍ فَاجِصَةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ

يَلْحَظُ نَظَرَهَا ، وَكَرَّرَ سُؤَالَهُ : « مَاذَا يَقُولُ السَّيِّدُ بَاوْنِيدِرْنِي ؟ » مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ
دُونَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا جَوَابًا . وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْبَيْتِ وَجَدُوا السَّيِّدَ بَاوْنِيدِرْنِي
جَالِسًا فِي أَيْتَظَارِهِمْ يَصْطَلِي بِنَارِ الْمِدْفَاقِ بِجَوَارِ زَوْجَةِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِدَ . وَنَظَرَ
إِلَى لُوِيْزَا نَظَرَةً تُكَادُ تُصْرُخُ : « هَئِنْدَا يَا لُوِيْزَا ! »

كَانَ جُوشِيَا بَاوْنِيدِرْنِي رَجُلًا قَظًا ، ضَخْمَ الْجِسْمِ ، أَحْمَرَ الْوَجْهِ ، خَفِيفَ
الشَّعْرِ ، إِذَا تَكَلَّمَ بَدَا صَوْتُهُ كَالْعَاصِفَةِ . وَيُعْلَقُ الْبَعْضُ بِأَنْ غِلَظَ صَوْتُهُ هُوَ السَّبَبُ
فِي سُقُوطِ شَعْرِهِ . وَهُوَ يَتَلَعَّ مِنْ الْعُمُرِ ثَمَانِيَّةً وَأَرْبَعِينَ عَامًا ، وَإِنْ بَدَأَ أَكْبَرَ مِنْ
عُمُرِهِ بِعَشْرِ سَنَوَاتٍ ، رُبَّمَا بِسَبَبِ الْجِدَّةِ الَّتِي تُكْسُو مَلَامِيحَ وَجْهِهِ . وَهُوَ عَمَلِيٌّ
فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ ، وَاسِعُ الثَّرَاءِ يَمْتَلِكُ أَكْبَرَ مَصَانِعِ الْمَلَابِسِ فِي الْمَدِينَةِ ، كَمَا
يَمْتَلِكُ الْمَصْرِفَ الْوَحِيدَ بِهَا . وَكَانَ يَتَفَاخَرُ دَائِمًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ عَصَامِيٌّ ، وَلَمْ يَسْبِقْ
أَنْ لَيْسَ جِذَاءً فِي صِبَاةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي جَنْبِهِ قِرْشٌ وَاحِدٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ،
لَا لِسَبَبٍ إِلَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَيْبٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ
حَقُولِيهِ التَّعَسُّةِ ، وَيَخْكِي كَيْفَ أَلْقَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى الشَّارِعِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَلْتَجِئْ
بِئَذْرَسَةٍ قَطُّ ، بَلْ عَلَّمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ يَشْعُرُ آلَانَ بِفَخْرٍ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ فِي
نِهَآيَةِ الْأَمْرِ .

نَظَرَ بَاوْنِيدِرْنِي إِلَى لُوِيْزَا ، وَلَكِنَّهُ تَحَدَّثَ إِلَى ثُومَاسَ وَسَأَلَهُ : « إِنَّكَ لَا تَبْدُو
سَعِيدًا يَا ثُومَاسَ ، فَمَا السَّبَبُ ؟ »

قَالَتْ لُوِيْزَا : « كُنَّا نَحَاوِلُ مُشَاهَدَةَ السَّيْرِكِ ، وَلَكِنَّ الْوَدْنَا ضَبَطْنَا . »

غَلَقَ الْآبُ مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى زَوْجَتِهِ قَائِلًا : « إِنَّ مُشَاهَدَةَ السَّيْرِكِ أَمْرٌ سَيِّئٌ ،
شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ قِرَاءَةِ الشَّعْرِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قال باونديري : « إِنَّ التَّحْيِيلَ الْبَاطِلُ شَيْءٌ بِالْبَعْضِ الضَّرَرِ لِأَيِّ إِنْسَانٍ ، وَأَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى فِتَاةٍ مِثْلِ لَوِيْزَا . »

تَسَاءَلَ الْآبُ مَرَّةً أُخْرَى عَمَّنْ يَكُونُ قَدْ حَدَّثَهُمَا أَوْ حَثَّهُمَا عَلَى مَا فَعَلَاهُ ، فَرَدَّ باونديري مُتَسَائِلًا : « أَلَا تَوْجَدُ بِالْمَدْرَسَةِ تَلْمِيذَةً مِنْ السَّيْرِكِ تَدْرُسُ مَعَهُمَا فِي الْفَصْلِ نَفْسِهِ ؟ »

وَحَفِضَ غِرَادُغَرَايَنْدُ وَجْهَهُ قَائِلًا : « إِنَّهَا سَيِّسِيْلِيَا جُوب ، وَقَدْ رَأَيْتُهَا الْيَوْمَ . »
فَرَدَّ باونديري بِسُرْعَةٍ : « إِذَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرُدَهَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ . اطْرُدْهَا الْيَوْمَ عَلَى الْفَوْرِ . »



رَدَّتِ الزَّوْجَةُ قَائِلَةً : « بَلَى ! إِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ يُقَدِّمُ تُوْمَاسُ وَلَوِيْزَا عَلَى ذَلِكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ عِنْدَكُمَا وَاجِبَاتِ مَدْرَسِيَّةٍ لَتَشْغَلَكُمَا ؟ أَنْتُمَا تَعْرِفَانِ أَنَّكُمَا تَدْرُسَانِ مِنَ الْحَقَائِقِ مَا يُصِيبُ رَأْسِي بِالْصُّدَاعِ إِذَا مَا حَاوَلْتُ قِرَاءَتَهَا ، بَلَى لَا أُسْتَطِيعُ أَبَدًا أَنْ أَتَذَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ نِصْفَ مَا قَرَأْتُ . »

فَقَاطَعَتْهَا الْفِتَاةُ قَائِلَةً : « هَذَا هُوَ السَّبَبُ ! »

لَمْ تَرُقْ هَذِهِ الْإِجَابَةُ الْآمُّ ، فَقَالَتْ : « لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ يَا لَوِيْزَا ! هَيَّا أَذْهَبِي إِلَى غُرْفَةِ الدَّرَاسَةِ لِنَسْتَذَكِّرِي شَيْئًا . كَمْ كُنْتُ أَمْنَى لَوْ كَانَ لِي كُلُّ فُرْصَةِ التَّعْلِيمِ الْمُتَاحَةِ لَكُمْ . »

لَمْ تَحْظَ الْآمُّ إِلَّا بِقَسْطٍ بَسِيطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَلَمْ تَتَعَلَّمْ إِلَّا عَدَدًا مُخَدَّوْدًا مِنَ الْحَقَائِقِ . وَلَمْ يَتَزَوَّجِ السَّيِّدُ غِرَادُغَرَايَنْدُ بِهَا إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ رَأْسًا خَاوِيًا أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ رَأْسٍ حُشِيٍّ بِالْخَيَالِ وَالْأَوْهَامِ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَلَسَ السَّيِّدُ غِرَادُغَرَايَنْدُ وَخَذَهُ مَعَ باونديري ، وَقَالَ لَهُ : « إِنِّي قَلِقٌ يَا باونديري بِسَبَبِ مَا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ ؛ فَقَدْ تَلَقَى وَلَدَايَ أَفْضَلَ قَسْطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَأَعْنِي بِهَذَا الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ . وَآلَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ الْعِلْمِ يَتَسَلَّلُ إِلَى رَأْسَيْهِمَا . فَمَا الَّذِي دَفَعَهُمَا إِلَى الذَّهَابِ إِلَى السَّيْرِكِ فِي رَأْيِكَ ؟ »

أَجَابَ باونديري الرَّجُلَ الْعَمَلِيَّ : « إِنَّهُ التَّحْيِيلُ الْبَاطِلُ . »

فَقَالَ لَهُ الْآبُ : « أُرْجُو أَلَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَلَكِنَّكَ قَدْ تَكُونُ فِي الْوَاقِعِ مُحَقًّا . »

أعجبت غراذغرايند برأي باوندرني ، وطلبت منه أن ينتظر حتى يأتي بعنوان الفتاة من مكتبه .

ذهب غراذغرايند ليخضير العنوان من مكتبه ، على حين ذهب باوندرني إلى حجرة الدراسة حيث كانت لويزا تجلس مع ثوماس وإخوتها الثلاثة الآخرين ، وكانت الصغيرة حين نائمة فوق كتاب مفتوح على صفحة مليئة بالأرقام .

وعندما دخل باوندرني الحجرة قال لثوماس ولويزا : « إن الأمر على ما يرام ، وسوف يغفروا عنكما والذكما هذه المرة . وآلان يا لويزا ! ألا استحق قبلة ؟ »

فرفعت خدّها نحوه ، دون أن ترفع عينيهما ، فقبلها ، وقال لها باوندرني : « أنت دائما أثيرة لذّي يا لويزا ! إلى اللقاء ! »

وما إن انصرف حتى بدأت الفتاة تحك خدّها لتزيل آثار القبلة ، فأحمر خدّها من أثر ذلك ، فقال لها أخوها مداعبا : « أخشى أن تحدثي نقرة في وجهك وأنت تفعلين هذا يا لو ! »

ردت عليه قائلة : « لك أن تقطع بالسكين الموضوع الذي قبلني فيه ، ولن أصرخ ! »

الفصل الثالث

بعد خمس دقائق كان السيد باوندرني والسيد غراذغرايند يسرعان في طريقهما إلى مدينة كوكناون ، وكانت وجهتهما شارع بود حيث يسكن كل من السيد جوب وأبنيه سيسيليا .

كانت مدينة كوكناون تمثل الفصح بعينه ، ولو خطر لك أن بها أي سمة من سمات الجمال لكنت في ذلك مخطئا كل الخطأ ، فليس بها مظهر من مظاهر الجمال ، أو أي لمحة من لمحات الخيال . فمباني المدينة التي يبيت قديما بالطوب الأحمر قد تحول لونها إلى اللون الأسود بضبي الزمن ، ولما تراكم عليها من أتربة ودخان . فكوكناون هي مدينة المصانع والآلات والماكينات والمداخن العالية ، وتمتلئ أجواؤها بسحب الدخان والبخار . فالآلة البخارية معبود المدينة ، وبها قناة سوداء اللون ، ونهر أحمر مياها من جراء ما يلقي فيه من مخلفات مصانع الملابس والمنسوجات .

وبالمدينة العديد من الشوارع المتسعة المتشابهة ، والعديد من الشوارع الضيقة المتشابهة والمزدحمة بالمنازل التي يتشابه السكان الذين يعيشون فيها . فهم يتدأون أعمالهم يوميا في الساعة صباحا ، ويعودون إلى منازلهم في الساعة مساء . ولا يختلف اليوم بالنسبة لهؤلاء الناس في شيء عن الأملس ، ولا العام الحالي عن العام الماضي أو المقبل في قليل أو كثير . وتلك حقائق لا يدهش لها

سُكَّانُ الْمَدِينَةِ ؛ فَالْحَيَاةُ فِي كُوكُنَاوْنِ هِيَ الْعَمَلُ وَلَيْسَتْ الرَّاحَةُ ، وَالْعَمَلُ يَعْنِي الْحَيَاةَ لِيَوْمٍ آخَرَ أَوْ لِسَنَةِ أُخْرَى .

وَبِالْمَدِينَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ دَارًا لِلْعِبَادَةِ بُنِيَتْ بِالطُّوبِ الْأَخْمَرِ ، وَكُلُّهَا مُتَشَابِهَةٌ ، وَلَا تُخْتَلِفُ فِي شَيْءٍ عَنِ السَّجْنِ الَّذِي بُنِيَ بِذَوْرِهِ بِالطُّوبِ الْأَخْمَرِ أَيْضًا ؛ وَمَبْنَى الْبَلَدِيَّةِ كَانَ مِثْلَ الْمُسْتَشْفَى وَالسَّجْنِ فِي الشَّكْلِ وَالْحَجْمِ وَلَوْنِ الطُّوبِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَجَلَّى فِي هَذِهِ الْمَبَانِي ، وَفِي عُقُولِ النَّاسِ ، سِوَى الْوَاقِعِ ، الْوَاقِعِ .

وَرَغْمَ أَنَّ كُوكُنَاوْنِ هِيَ مَدِينَةُ الْوَاقِعِ وَالْحَقَائِقِ ، فَقَدْ كَانَ لَهَا مَشَاكِهَا ؛ فَالْعُمَالُ وَعَائِلَاتُهُمْ لَا يَتَرَدَّدُونَ عَلَى دَوْرِ الْعِبَادَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، بَلْ إِنَّهُمْ يُسْرِفُونَ فِي الشُّرْبِ ، وَلَمْ يَكُنْ الشَّاي أَوْ الْقَهْوَةُ شَرَابَهُمْ ، حَتَّى إِنْ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْبَرْلَمَانِ صَرَخَ قَائِلًا :

« إِنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى قَوَائِنَ جَدِيدَةٍ لِنُجَبِّرَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ عَلَى آتِيَادِ دَوْرِ الْعِبَادَةِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ ، وَنُحَدِّثَ مِنْ إِسْرَافِهِمْ فِي الشُّرَابِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ . »

وَيَتَّفِقُ أَهَالِي كُوكُنَاوْنِ مَعَ لُوِيْزَا وَتُومَاسَ غِرَاذْغَرَايْنِدِ فِي سِمَةِ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ اتِّقَادُهُمْ لَشَيْءٍ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَمَا يَفْتَقِدُونَهُ لَيْسَ حَقِيقَةً أُخْرَى بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ؛ فَلَدَيْهِمْ مِنَ الْحَقَائِقِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَاجُونَ . وَهَذَا يَدْعُونَا إِلَى التَّسَاوُلِ : هَلْ مَا يَفْتَقِدُونَهُ هُوَ الْخَيَالُ ؟ أَمْ لَعَلَّهُ السُّرُورُ وَالْمَتَعَةُ ، كَيْلِكَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي سِيرِكِ سَلَارِي ؟

مَرَّ بَاوْنِدِرِي وَغِرَاذْغَرَايْنِدِ بِالسَّيْرِكِ وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يُلْقِيَ أَيَّ مِنْهُمَا نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَيْهِ ، وَاسْتَمَرَّ فِي طَرِيقِهِمَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى نِهَايَةِ شَارِعِ بُوْدَ ، حَيْثُ يَسْكُنُ السَّيِّدُ

جُوبَ وَأَبْنَتُهُ سِيْسِيْلِيَا . وَفَجَاةً أَقْبَلَتْ الْفَتَاةُ سِيْسِيْلِيَا تُجْرِي مِنْ نَاصِيَةِ الطَّرِيقِ ، فَعَرَفَهَا السَّيِّدُ غِرَاذْغَرَايْنِدِ عَلَى الْفَوْرِ ، وَصَاحَ بِهَا : « قَفِي ؛ إِنَّا نُرِيدُكَ ! »

اسْتَدَارَتْ الْفَتَاةُ رَقَمَ عِشْرِينَ وَعَادَتْ إِلَيْهِمَا ، وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ لَاهِتٍ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ غِرَاذْغَرَايْنِدِ : « إِنَّا نَبْحَثُ عَنْ وَالِدِكَ جُوبَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُصَحِّبَنَا إِلَى غُرْفَتِهِ ؛ لِأَنَّا نُرِيدُ أَنْ نَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ . »

فَرَدَّتْ سِيْسِي قَائِلَةً : « سَأَفْعَلُ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ إِنْ سَمِعْتُمَا بُيَاحَ كُلِّبٍ فَلَا تَفْرَعَا ، إِنَّهُ مِيرِيلِغَزْ كُلِّبٍ وَالِدِي الْمُدْرَبُ . إِنَّهُ لَا يَعْضُ عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

وَلَكِنَّ الرُّجُلَيْنِ عِنْدَمَا وَصَلَا الْمَنْزِلَ لَمْ يَجِدَا الْكُلْبَ وَلَا صَاحِبَهُ هُنَاكَ ، فَطَلَبَتْ إِلَيْهِمَا سِيْسِي أَنْ يَجْلِسَا وَيَنْتَظِرَا دَقِيقَةً وَاحِدَةً حَتَّى تَذْهَبَ وَتَبْحَثَ عَنْ وَالِدِهَا ، ثُمَّ أَخْضَرَّتْ لَهُمَا كُرْسِيَّيْنِ ، وَخَرَجَتْ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْغُرْفَةِ .

بَعْدَ دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ دَخَلَ الْغُرْفَةَ شَابٌّ مُتَوَسِّطُ الْقَامَةِ ، ثَبَدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْقُوَّةِ الْجَسَدِيَّةِ ؛ فَصَدْرُهُ وَظَهْرُهُ وَرِجْلَاهُ تُكَادُ تُمَرَّقُ ، مِنْ قُرْطِ قُوَّتِهِ ، الْبَذْلَةُ الَّتِي يَرْتَدِيهَا .

كَانَ هَذَا الشَّابُّ هُوَ السَّيِّدُ تَشِيلْدُزِرُ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ فِي سِيرِكِ سَلَارِي . وَقَدْ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ لِلزَّائِرَيْنِ ، ثُمَّ سَأَلَهُمَا إِنْ كَانَا يَرِغْبَانِ فِي مُقَابَلَةِ السَّيِّدِ جُوبَ ، فَرَدَّ سَيِّدُ غِرَاذْغَرَايْنِدِ بِالْإِيجَابِ ، وَأَضَافَ قَائِلًا : « لَقَدْ انْتَصَرَفَتْ أَبْنَتُهُ لَتَبْحَثَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَقْتُ لِنُضِيعَهُ . هَلْ لَكَ أَنْ تُثْقَلَ إِلَيْهِ رِسَالَةٌ مِنَّا ؟ »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّا مِنْ طَرَارِ أُولَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْوَقْتِ ، أَمَّا

أَنْتُمْ ، أَيُّهَا الشَّبَابُ ، فَلَا تَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْوَقْتِ . »

فَرَدَّ السَّيِّدُ تَشِيلَنْدَرُزُ قَائِلًا : « إِذَا لَا تُضَيِّعْ وَقْتُكَ . » وَاسْتَدَارَ نَاحِيَةَ السَّيِّدِ غَرَادَغَرَايَنْدِ وَقَالَ : « إِنَّ وَالِدَ الْفَتَاةِ قَدْ ذَهَبَ يَا سَيِّدِي . »

فَرَدَّ غَرَادَغَرَايَنْدِ مُتَسَائِلًا : « ذَهَبَ ؟ أَيْنَ ذَهَبَ ؟ »

فَرَدَّ السَّيِّدُ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لَقَدْ تَرَكَ السَّيْرُكُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِإِعْجَابِ جُمْهُورِ السَّيْرُكِ طَوَالَ الْأَسَابِيغِ الْمَاضِيَةِ ؛ لِهَذَا فَقَدْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ . »

قَالَ بَاوْنِدِزِي لِعَرَادَغَرَايَنْدِ : « إِنَّا بَيْنَ قَوْمٍ غُرَبَاءَ . جُوبَ لَمْ يَكُنْ مَحْبُوبًا ؛ وَلِهَذَا هَرَبَ . رَجُلٌ مِثْلِي أَرْتَفَعَ بِنَفْسِهِ ... »

فَقَاطَعَهُ تَشِيلَنْدَرُزُ قَائِلًا : « غَضٌّ مِنْ كِبَرِيَاؤِكَ إِذَا قَلِيلًا . »

وَتَسَاءَلَ غَرَادَغَرَايَنْدِ : « وَلَكِنْ مَاذَا بِشَأْنِ الْفَتَاةِ أَبْنَتِيهِ ؟ هَلْ تَرَكَهَا هُنَا ؟ »

أَجَابَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « يُوسِفُنِي هَذَا . لَقَدْ كَانَ هُوَ وَأَبْنَتُهُ شَدِيدِي التَّعَلُّقِ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ، وَلَكِنَّ الْأَبَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ — لَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فِي السَّيْرُكِ ؛ وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِالْحَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ . »

قَالَ غَرَادَغَرَايَنْدِ بِدَهْشَةٍ : « أَلِهَذَا هَرَبَ وَتَرَكَهَا خَلْفَهُ ؟ »

لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ غَرَادَغَرَايَنْدِ رَبَّ أَسْرَةٍ ، رَغِمَ أَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ ؛ لِهَذَا فَقَدْ شَعَرَ أَنَّ الْفَتَاةَ رَقْمَ عِشْرِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ وَحِيدَةً آلَانَ فِي الْحَيَاةِ .

قَالَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لَقَدْ شَعَرَ جُوبَ بِالْحَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ

الْبَقَاءُ مَعَ أَبْنَتِهِ . لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا لِذَرَجَةِ أَنَّهُ ... »

وَقَاطَعَهُ بَاوْنِدِزِي فِي صَوْتٍ كَالرَّغْدِ قَائِلًا : « هَرَبَ مِنْهَا ! عَظِيمٌ ! هَذَا عَظِيمٌ ! سَأَقُولُ لَكَ شَيْئًا أَيُّهَا الشَّبَابُ ، شَيْئًا قَدْ تَذَهَّشُ لِسَمَاعِهِ . إِنِّي أَفْهَمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ . لَقَدْ تَرَكَتَنِي أُمِّي وَهَرَبْتُ مِنِّي . »

قَالَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « إِنَّ هَذَا لَا يُثِيرُ دَهْشَتِي . لَقَدْ فَعَلْتَ وَالِدُكَ مَا كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَفْعَلَهُ ، وَلَكِنْ لَا تُصْبِحْ بِهَذَا الشَّكْلِ فَالْمَبْنَى لَيْسَ قَوِيًّا . إِنْ اسْتَمَرَّرْتَ فِي الصَّبَاحِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فَقَدْ يَنْهَارُ السَّقْفُ عَلَيْنَا . » ثُمَّ اسْتَدَارَ مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى غَرَادَغَرَايَنْدِ : « لَقَدْ كَانَ مُكْتَتِبًا طَوَالَ الْيَوْمِ ، وَأَنْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ سَيِّسِي مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَقَدْ أَخَذَ كَلِمَةً مَعَهُ . إِنْ سَيِّسِي لَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ وَالِدَهَا قَدْ تَرَكَهَا . »

تَسَاءَلَ غَرَادَغَرَايَنْدِ : « وَلِمَ لَا تُصَدِّقُ ذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لِأَنَّهُمَا كَانَا وَثِيقِي الصِّلَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْ لُهُمَا أَنْ أَفْتَرَقَا مِنْ قَبْلِ . بِمُسْكِنَةِ سَيِّسِي ! إِنَّا لَمْ نَعْلَمْهَا شَيْئًا بِالسَّيْرُكِ ، فَوَالِدُهَا جُوبَ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي أَنْ تَعْمَلَ بِالسَّيْرُكِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . لَقَدْ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يُوفِّرَ لَهَا التَّعْلِيمَ حَتَّى ... »

وَقَاطَعَهُ غَرَادَغَرَايَنْدِ مُبْدِيًا إِعْجَابَهُ بِتَفْكِيرِ وَالِدِهَا وَسَدَادِ رَأْيِهِ .

وَاسْتَمَرَ تَشِيلَنْدَرُزُ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ عِنْدَمَا اتَّخَذَتْ أَبْنَتُهُ بِالْمَدْرَسَةِ . وَإِنَّا بِالطَّبْعِ سَعَادِيرُ كُوكُتَاوَنِ الشَّهْرِ الْقَادِمِ . »

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى غَرَادَغَرَايَنْدِ وَقَالَ : « إِنْ كُنْتُ يَا سَيِّدِي قَدْ جِئْتُ هُنَا لِتَمْدِيدِ الْمُسَاعَدَةِ لِهَذِهِ الْفَتَاةِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ مِنْ حُسْنِ طَالِعِهَا . »

رَدُّ غَرَادُغَرَايْنِد قَائِلًا : « إِنَّ مَدْرَسَتِي مُخَصَّصَةٌ لِتَعْلِيمِ أَطْفَالِ مَدِينَةِ كُوكُتَاوَن ،
وَقَدْ كُنْتُ عَازِمًا عَلَى أَنْ أَخْبِرَ جُوب بِأَنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَدْرَسَةِ أَحَدٌ مِنَ
أَبْنَاءِ السَّيْرِك . وَلَكِنْ الْآنَ ، إِذَا كَانَ وَالِدُهَا قَدْ تَرَكَهَا حَقِيقَةً قَرِيبًا ... »

وَنَظَرَ غَرَادُغَرَايْنِد إِلَى بَاوُنْدُرِي وَقَالَ لَهُ : « بَاوُنْدُرِي أُرِيدُ مَشُورَتَكَ . » وَالتَفَتَ
إِلَى تَشِيلْدُرَز وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَهُمَا وَحَدُّهُمَا لِفَتْرَةٍ بَسِيطَةٍ ؛ فَانْتَصَرَفَ الْآخِرُ
وَوَقَفَ بِيَابِ الْعُرْفَةِ . وَتَرَامَتْ إِلَى سَمْعِهِ بَعْضُ كَلِمَاتِ الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ
الرَّجُلَيْنِ ، وَمِنْ بَيْنِ مَا سَمِعَهُ :

« لَا ! أَنَا أَقُولُ لَا يَا غَرَادُغَرَايْنِد ! » ، « مِثْلُ لُوِيْزَا ... نِهَآيَةَ الْحَيَاةِ شَرِيرَةٌ
يَا بَاوُنْدُرِي . إِنِّي أَمَلْتُ أَنْ ... »

وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ قَدْ تَجَمَّعَ خَارِجَ الْعُرْفَةِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ السَّيْرِك ، وَوَقَفُوا
مَعَ السَّيِّدِ تَشِيلْدُرَز . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَخْصِيَّاتٌ غَرِيبَةٌ كِرَاكِيي الْخَيْلِ ، وَمَدْرِي
الْحَيَوَانَاتِ ، وَالرَّاقِصِينَ وَالْمُغَنِّينَ . كَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ نِسَاءٌ بَدِينَاتٍ وَأَخْرِيَّاتٍ
لَحِيفَاتٍ ، بَعْضُهُنَّ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الْجَمَالِ ، وَبَعْضُهُنَّ قَبِيحَاتٍ . وَلَكِنَّهُنَّ كَانُوا
مُتَّفِقِينَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا بُسْطَاءَ وَوُدْعَاءَ مِثْلَ الْأَطْفَالِ ، وَكَانَتْ
فِي أَعْيُنِهِمْ نَظَرَاتٌ تُبَيِّنُ عَنِ الْأَمَانَةِ وَالشَّفَقَةِ ، وَكَانُوا عَلَى أُنْتَمٍ اسْتِعْدَادٍ لِمُسَاعَدَةِ
الْآخَرِينَ مِنْهُمَا كَانَ التَّمَنُّ .

وَأَخِيرًا جَاءَ السَّيِّدُ سَلَارِي الْبَدِينُ . وَفَوْرَ دُخُولِهِ الْعُرْفَةَ وَجَّهَ حَدِيثَهُ إِلَى
غَرَادُغَرَايْنِد قَائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ يَا سَيِّدِي بِرَحِيلِ جُوب وَكَلْبِهِ ؟ تَرَى هَلْ سَبَبٌ
مَجِيئِكَ مُتَعَلِّقٌ بِالْفَتَاةِ ؟ »

أَجَابَ غَرَادُغَرَايْنِد : « نَعَمْ ، وَسَوْفَ أُغْرِضُ أَقْبَرَاخًا بِشَأْنِهَا عِنْدَمَا تَعُودُ . »

قَابَدِي سَلَارِي سَعَادَتَهُ لِسَمَاعِ ذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنِّي لَا أُرِيدُ بِالضَّبْطِ أَنْ
الْمُخْلَصُ مِنْهَا ، فَتَمَّةُ نَوْعٍ مِنَ الْقَانُونِ بَيْنَ أَفْرَادِ السَّيْرِكِ ، هُوَ أَنَّا نَرْغَبُ فِي مَدِّ
يَدِ الْمُسَاعَدَةِ لَهَا . »

« بِالطَّبَعِ نَعَمْ . »

« إِنَّ مَا لَدَيْكَ مِنْ خُطْبٍ وَأَفْكَارٍ بِشَأْنِ سَيِّسِي قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَّا لَدَيَّ ؛
لَأَنَّهُ إِذَا بَقِيَتْ مَعَنَا فَسَيَكُونُ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ بِالسَّيْرِكِ ، كَمَا أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَبْدَأَ
مِنْ أَوَّلِ السَّلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مَا أَرَادَهُ لَهَا وَالِدُهَا . »

وَعَادَتْ سَيِّسِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، فَدَفَعَهَا الْمَوْجُودُونَ إِلَى دَاخِلِ الْعُرْفَةِ ، ثُمَّ
انْفَوْا حَوْلَ الْبَابِ .

وَأَنْفَجَرَتْ سَيِّسِي بَاكِئَةً وَهِيَ تَقُولُ : « آه يَا أُمِّي الْعَزِيزُ ! يَا أُمِّي الطَّيِّبَ
الْحَنُونَ ! مَاذَا سَتَفْعَلُ بِدُونِي ؛ إِذْ لَنْ يَكُونَ لَكَ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ ؟ »

قَالَتْ ذَلِكَ وَالْدُمُوعُ تُسَابُ عَلَى وَجْهِهَا ، وَهُنَا صَاحَ السَّيِّدُ بَاوُنْدُرِي قَائِلًا :
« الْآنَ اسْمَعُوا جَمِيعًا ! إِنَّا نَضَيِّعُ الْوَقْتَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ هَرَبْتَ أُمِّي وَتَرَكَتَنِي ،
وَالْآنَ يَفْعَلُ وَالِدُ تِلْكَ الْفَتَاةِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ ؛ فَالْحَقَائِقُ وَاضِحَةٌ أَمَامَنَا . لَقَدْ تَرَكَهَا
وَلَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا ، وَلَنْ تَرَاهُ مَرَّةً أُخْرَى . »

وَهُنَا سَمِعَ صَوْتًا يَتَسَاءَلُ : « مَنْ يَكُونُ هَذَا ؟ هَلْ يَنْظُرُ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ يَعْرِفُ
كُلَّ شَيْءٍ ؟ »

وَصَاحَتِ النَّسْوَةُ : « يَا لِلْعَارِ ! أَيُّهُ حَقَائِقُ هَذِهِ ؟ ! إِنِّهَا لَقَسْوَةٌ ! »



وَهُنَا أَقْتَرَبَ سَلَارِي مِنَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي وَهَمَسَ قَائِلًا : « إِنَّ قَوْمِي لَا يَمِيلُونَ إِلَى الْأَدَى بِطَبْعِهِمْ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ نَافِذَةٌ مَفْتُوحَةٌ يَا سَيِّدِي ، وَإِنْ قُلْتَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يُلْقُوا بِكَ مِنْهَا ؛ لِذَا أَعْمَلُ بِنَصِيحَتِي وَأَلْزِمُ الْهَدُوءَ . »
وَبِالْفِعْلِ عَمِلَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ ، وَلَكِنَّ وَجْهَهُ اكْتَسَى بِاللُّونِ الْأَحْمَرَ مِنْ قَرِطِ الْإِنْفِعَالِ حَتَّى كَادَ يَنْفَجِرُ .

قَالَ السَّيِّدُ غَرَاذْغَرَانِد : « لَقَدْ رَحَلَ الرَّجُلُ ، وَقَدْ يَعُودُ مَرَّةً ثَانِيَةً . وَلَكِنَّا لَا نَعْرِفُ مَتَى سَيَعُودُ ، وَنَحْنُ نَتَّفَقُ جَمِيعًا عَلَى ذَلِكَ . »
رَدَّ سَلَارِي قَائِلًا : « إِنَّ مَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ . »

قَالَ السَّيِّدُ غَرَاذْغَرَانِد : « كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ أَنْ أَفْصِلَ سِيَّيْلِيَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ ؛ وَلَكِنَّ عَلَى ضَوْءِ الظُّرُوفِ الْمُخْتَلِفَةِ الْآنَ ، فَالْفَتَاةُ لَمْ تَعُدْ تَنْتَمِي إِلَى السَّيْرِكِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا وَالِدُهَا ، وَإِنِّي عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ أَشْمَلَهَا بِرِعَايَتِي ، وَأَوْفِرَ لَهَا الْمَسْكَنَ ، وَأَتَوَلَّى تَعْلِيمَهَا . وَإِنْ وَاقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَهَا أَنْ تَأْتِيَ مَعِي عَلَى الْفُورِ ؛ وَلَكِنَّ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالسَّيِّدَاتُ الْأَتَكْتُبُوا إِلَيْهَا ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهَا الْأَتُرَاسِلَكُمْ . إِنَّ هَذَا كُلُّ مَا لَدَيَّ لِأَقُولَهُ . »

قَالَ سَلَارِي : « إِنَّ هَذَا غَرَضٌ طَيِّبٌ يَا سَيِّدِي ، وَعَلَيَّ أَنْ أُتَّخِذَ قَرَارِي بِشَأْنِهِ . وَأَنْتِ أَيْضًا يَا سِيَّيْلِيَا عَلَيْكِ أَنْ تُقَرَّرِي هَلْ تَرْضَيْنَ أَنْ تُعِيشِي مَعَ إِيمَا غُورْدُن ؟ وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ نَوْعَ الْعَمَلِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَتَعَلَّمِيهِ ، كَمَا تَعْرِفِينَ نَوْعَ الْحَيَاةِ الَّتِي سَتَعِيشِيهَا . أَظُنُّ أَنَّ هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ . »

قَالَ غَرَاذْغَرَانِد : « هَذَا مَعْقُولٌ جِدًّا . وَتَذَكَّرِي يَا آيَسَةُ جُوب أَنَّ تَعْلِيمَ الْفَتَاةِ

مُهِمٌّ ، وَأَنَّ وَالِدَكَ كَانَ يَرْغُبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ إِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَتَّخِذَ قَرَارَكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ طَبِيعَةِ أَفْكَارِكَ وَقَرَارَاتِكَ يَا أَيْسَةُ جُوب . »

كَفَّتْ سِيسِي عَنِ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا انْتَفَجَرَتْ فِي الْبُكَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً وَتَسَاءَلَتْ : « مَاذَا لَوْ عَادَ وَالِدِي ؟ أَوَدُّ أَنْ أَبْقَى هُنَا وَإِلَّا فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَنِي ؟ »

أَجَابَهَا السَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ بِهَدْوٍ : « لَا تَقْلَقِي بِشَأْنِ هَذَا يَا أَيْسَةُ جُوب . » وَلَمَّا كَانَ يُدْرِكُ الْحَقَائِقَ فِي لَمَحِ الْبَصَرِ فَقَدْ قَالَ مُسْتَطَرِّدًا : « إِنَّ وَالِدَكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ سِرَّكَ سَلَارِي بِسَهُولَةٍ ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَتَوَلَّى السَّيِّدُ سَلَارِي إِبْلَاغَهُ أَنَّكَ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ تُوْمَاسِ غَرَادُغْرَانْدِ ، بِمَدِينَةِ كُوكْتَاوَن ، وَأَنَا مَعْرُوفٌ لِلْجَمِيعِ ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أُبْقِيَكَ مَعِيَ إِذَا مَا أَرَادَ وَالِدَكَ اسْتِعَادَتَكَ . »

اسْتَمَرَّتِ الدُّمُوعُ تُسَابُ عَلَى وَجْهِ سِيسِي طَوَالَ الدَّقَائِقِ الْعَشْرِ أَوْ الْخَمْسِ عَشْرَةِ التَّالِيَةِ . لَكِنَّ الْكَثِيرِينَ طَبَعُوا قُبُلَانِهِمْ عَلَى وَجْهِهَا ، فَجَفَّتِ الْقُبُلَاتُ مَا عَلَيْهِمَا مِنْ دُمُوعٍ . وَفِي الْنَهَايَةِ كَانَتْ سِيسِي مُسْتَعِدَّةً ، فَحَمَلَتْ حَقِيَّةَ مَلَابِسِهَا الصَّغِيرَةِ وَسَطَ أَصْوَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ حَوْلِهَا تَرْدُدُ : « وَدَاعَا يَا سِيسِيلِيَا ! وَدَاعَا يَا سِيسِي ! لَا تَنْسِينَا ! »

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتِ السَّيِّدِ سَلَارِي إِلَى السَّيِّدِ غَرَادُغْرَانْدِ هِيَ : « إِنَّهَا لَنْ نُنْسَانَا يَا سَيِّدِي ؛ فَإِنَّا نُسَلِّي النَّاسَ وَهَذِهِ هِيَ مُهِمَّتُنَا ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ التَّسْلِيَةِ ؛ فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْمَلُوا طَوَالَ الْوَقْتِ . »

وَأَنْصَرَفَ السَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ وَالسَّيِّدُ باونْدِرِي وَقَدْ سَارَتْ بَيْنَهُمَا الْفَتَاةُ رَقْمُ عَشْرِينَ .

الفصل الرابع

كَانَ السَّيِّدُ باونْدِرِي غَرْبًا ؛ لِذَا اسْتَعْدَمَ مُدِيرَةَ مَنْزِلٍ تُدْعَى السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ عَمِلَتْ مُدِيرَةَ مَنْزِلٍ مِنْ قَبْلُ ؛ إِذْ كَانَتْ تَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ غَنِيَّةٍ وَمَشْهُورَةٍ ، وَلَكِنْ زَوْجُهَا السَّيِّدُ سِبَارِسِتِ مَاتَ صَغِيرَ السِّنِّ ، وَاخْتَلَفَتْ مَعَ عَالَمِهَا مِمَّا اضْطَرَّهَا لِلْعَمَلِ .

وَكَانَ السَّيِّدُ باونْدِرِي وَالسَّيِّدَةُ سِبَارِسِتِ شَخْصَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ ؛ فَهِيَ تَفْخَرُ بِمَالِهَا الرَّابِعِ الْعَلِيِّ بِالْثَرَاءِ ، وَتَحْجُلُ مِنْ حَاضِرِهَا . أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا يَوْمًا مَا ، وَاعْتَادَ أَنْ يَقُولَ لِأَصْدِقَائِهِ : « لَقَدْ صَعِدْتُ مِنْ لَا شَيْءٍ إِلَى مَكَالَشِي الْحَالِيَةِ . أَمَّا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتِ فَإِنَّهَا بِكُلِّ مَا لَهَا مِنْ مُمِيزَاتٍ قَدْ هَبَطَتْ إِلَى لَا شَيْءٍ ! »

وَعِنْدَمَا غَادَرَ السَّيِّدُ باونْدِرِي وَالسَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ شَارِعَ بُوْد ، أَخَذَا سِيسِي مَعَهُمَا إِلَى مَنْزِلِ السَّيِّدِ باونْدِرِي ، حَيْثُ قَضَتْ لَيْلَتَهَا . وَكَانَ عَلَى السَّيِّدِ غَرَادُغْرَانْدِ أَنْ يُعِدَّ لَهَا غُرْفَةً فِي سِتُون لُودْج .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ ، قَالَ السَّيِّدُ باونْدِرِي لِلْسَّيِّدَةِ سِبَارِسِتِ : « يَجِبُ أَنْ تَبْقَى الْفَتَاةُ هُنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ تُوْمَاسُ غَرَادُغْرَانْدُ . إِنَّ فِكْرَةَ إِقَامَتِهَا هُنَاكَ تُقْلِقُنِي ؛ وَهِيَ فِكْرَةٌ غَيْرُ سَلِيمَةٍ ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي مَصْلَحَةِ لُوِيْزَا عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

قَالَتْ : « آه يَا سَيِّدِي ، إِنَّكَ أَبُ ثَانٍ لِابْنَةِ غَرَادُغْرَانْدِ ! »

قال : « ربما اكون ابا ثانيا بالنسبة ليوم الصغير يا سيدي . فانه سيعمل بالبنك قريبا ؛ ولذلك فمن الممكن ان يعيش معنا عندئذ . اخبريني يا سيدي : هل تعرفين شيئا عن اهل السيرك ؟ »

اجابت : « لقد تعلمت منك القليل عن الحياة الوضيعة ، يا سيدي . »

ضحك باوندرني قائلا : « بالطبع نعم ؛ فانت ولدت في اخصان البذخ ، اما انا فولدت في الشارع . »

قالت : « حقا يا سيدي ، لقد ولدت في اخصان البذخ ، اما انت ... » وفي تلك اللحظة ، فتح الباب ، ودخل منه السيد غراذغرايند ومعهُ ابنته لويزا .

وتصافح الرجلان ، وقبل السيد باوندرني لويزا ، ثم دخلت سيسي العرفة ، واتحنت في احترام لكل منهما .

قال السيد غراذغرايند : « حسنا يا ايسه جوب ! لقد اتخذنا قرارا بتعلق بمستقبلك . انك ستقيمين بمنزلي ، وتذهبين الى المدرسة كل يوم . اما في الاوقات التي لن تكوني فيها بالمدرسة ، فيمكنك ان تعني بزوجتي لانها مريضة . ولقد اخبرت ابنتي الایسه لويزا عنك . » ثم اشار الى لويزا قائلاً : « هذه هي لويزا . وقد اخبرتها عن حياتك بالسيرك ، تلك الحياة التي انتهت الآن ، ويجب ألا تتحدثي عنها ثانية ، كما يجب عليك ان تبدي الآن مرحلة تعليمك ؛ فانك لا تعرفين شيئا عن الحقائق يا ايسه جوب . »

فاجابت سيسي وهي تنحني : « اجل يا سيدي ، لا اعرف عنها شيئا . »

قال السيد غراذغرايند : « سوف اغير من ذلك سريعا . » ثم اقترب منها

وهمس في اذنها : « هل تستطيعين القراءة يا ايسه جوب ؟ »

قالت : « نعم يا سيدي . فقد كان والدي اُميا لا يجيد القراءة ؛ لذا اعتدت ان اقرأ له ، وكانت تلك اللحظات التي كنت اقرأ له فيها من اسعد اللحظات ... » ثم اجهشت بالبكاء ، فنظرت اليها لويزا لأول مرة ، وسألها السيد غراذغرايند : « وماذا كنت تقرأين ؟ »

اجابت : « كنت اقرأ له القصص الرائعة يا سيدي ، منها ما كانت تضحك عن الحيات الشريرة والخوريات الطيبة . كما قرأت « روبنسون كروزو » ، « ورخلات جليفر » والمليك الذي كان لا يلبس أية ملابس ، وكنا نتساءل ... »

صاح السيد غراذغرايند : « كفى ! هذا يكفي ! يجب ألا تتساعلي يا ايسه جوب ! ولا تتخيلي أبدا ! » ثم خاطب باوندرني قائلاً : « ان هذا امر خطير يا سيد باوندرني ؛ فثمة خلل ما ، ويجب علي ان اصلح هذا الخلل على الفور . » فاجاب السيد باوندرني : « لقد حذرناك يا سيد غراذغرايند . حذرناك الليلة الماضية . انني ما كنت لافعل ما تفعله ، ولكن ... هذا شأنك وخذك فامض فيه ما دمت قد عزمتم . »

وبعد ذلك بقليل اصطحب السيد غراذغرايند وابنته سيسيلىا جوب معهما الى شلون لودج . وكانت الابنة صامئة طوال الطريق ، ولكن السيد غراذغرايند اخذ لكر مرة بعد اخرى : « اياك والتساؤل يا ايسه جوب ! اياك ان تتساعلي ! »

كان شعار « اياك والتساؤل » هو قانون السيد غراذغرايند الذي يحكم

الْحَيَاةَ ، فَقَدْ كَانَ سِرُّ التَّعْلِيمِ لَدَيْهِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَطَاعَ الشَّخْصُ أَنْ يَجْمَعَ الْأَعْدَادَ وَيَطْرَحَهَا وَيَضْرِبَهَا وَيَقْسِمَهَا ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّسَاوُلِ .

وَالشَّيْءُ الْغَرِيبُ هُوَ أَنَّ كِبَارَ رِجَالِ مَدِينَةِ كُوكَنَاوَن كَانُوا يَتَفَقَّهُونَ مَعَهُ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ . وَلَكِنْ لِمَاذَا إِذَا كَانَتِ الْمَكْتَبَةُ الْعَامَّةُ فِي كُوكَنَاوَن تَحْتَلِي بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْكُتُبِ ؟ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَا يُورِّقُ السَّيِّدَ غِرَاذْغَرَايْنِد وَيَمَلَأُ حَيَاتَهُ بِالْغَضَبِ وَالْقَلْبِ . فَكَانَ النَّاسُ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْرَأُوا قِصَصَ الْجِنِّيَّاتِ وَمُغَامِرَاتِ رُوبِنْسون كروزو وَرِحَالَاتِ جِلْفِر ، بَلْ وَكَانُوا يَقْرَأُونَهَا بِالْفِعْلِ وَيَتَفَعَّلُونَ بِهَا ، وَيَتَحَيَّلُونَ مَا فِيهَا ، وَتَمَلُّ قُلُوبُهُمْ بِالسَّعَادَةِ أحيانًا وَبِالْحُزَنِ أحيانًا أُخْرَى . وَلَكِنْ لَمْ تُكُنْ هُنَاكَ كُتُبُ كَهَذِهِ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ غِرَاذْغَرَايْنِد ، وَلَمْ تُكُنْ لُويْزَا أَوْ ثُوم الصَّغِيرُ يَعْرِفَانِ شَيْئًا عَنْ قِصَصِ الْخَوْرِيَّاتِ أَوْ تِلْكَ الْمُغَامِرَاتِ .

ذَاتَ مَسَاءٍ قَالَ ثُوم لِشَقِيقَتِهِ ، وَكَانَا جَالِسَيْنِ فِي حُجْرَةِ الدِّرَاسَةِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ حَيَاتِي يَا لُو ، إِنِّي أَكْرَهُهَا ، وَأَكْرَهُ كُلَّ النَّاسِ فِيمَا عَدَاكَ أَنْتِ . »

فَسَأَلَتْهُ لُويْزَا : « أَتُكْرَهُ سِيسِي أَيْضًا يَا ثُوم ؟ »

قَالَ ثُوم : « يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أَنَادِيَهَا بِاسْمِ الْآبَةِ جُوب ، وَأَنَا أَكْرَهُ ذَلِكَ ، وَأُظَنُّ أَنَّهَا تُكْرَهُنِي أَيْضًا . »

رَدَّتْ لُويْزَا : « لَا ، إِنَّهَا لَا تُكْرَهُكَ يَا ثُوم ، وَأَنَا وَاثِقَةٌ بِهَذَا . »

قَالَ ثُوم : « لَا ، إِنَّهَا تُكْرَهُنَا جَمِيعًا ، فَقَدْ اسْتَقَمَّنَاهَا ، وَصَارَتْ تَبْدُو أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهَا ، بَلْ لَقَدْ كَادَ السَّقْمُ يَنَالُ مِنْهَا بِالْفِعْلِ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « إِنَّ الدَّرُوسَ تَرْهَقُهَا ، »

قَالَ ثُوم : « إِنِّي جِمَارٌ يَا لُو ! فَأَنَا كَالْجِمَارِ فِي غَيَابِهِ ، وَأَجِسُّ بِمَا يُجِسُّ بِهِ الْجِمَارُ ، بَلْ إِنِّي لَا أَنَالُ السَّعَادَةَ إِلَّا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَنَالُهُ الْجِمَارُ ، وَلَا يَنْقُصُنِي صَوِي أَنْ أُرَكَلَ النَّاسُ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ مِمَّنْ سَتَرَ كُلَّهُمْ يَا ثُوم ! »

رَدَّ عَلَيْهَا قَائِلًا : « كَلَّا ، أَنَا لَا أَوُدُّ إِيْدَاعَكَ ، وَلَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُحْيَا فِي هَذَا ... فِي هَذَا السَّجْنِ بِدُونِكَ يَا لُو . »

قَالَتْ لُويْزَا : « إِنِّي كَثِيرًا مَا أَسْأَلُ لِمَاذَا لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَجْعَلَكَ أَسْعَدَ ؟ إِنِّي أَعْلَمُ فِي السَّنِّ ... وَلَكِنِّي لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ مَا يُسَعِدُ الْآخَرِينَ . فَأَنَا لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَعْرِفَ لَكَ الْمَوْسِيقَى أَوْ أَغْنِي ، وَلَا أَعْرِفُ أَيَّةَ قِصَصٍ لِأُخْبِكَهَا لَكَ ، بَلْ إِنِّي لَا أَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَطِيعُ أَنْ أُحْدِثَكَ عَنْهُمْ . »

قَالَ ثُوم : « وَكَذَلِكَ أَنَا ، إِنِّي جِمَارٌ ، وَقَدْ صَنَمْتُ أَبِي عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنِّي جِمَارًا . »

قَالَتْ لُويْزَا : « يَاللَّاسَفَ الشَّدِيدَ ! إِنَّنَا لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نُسَاعِدُ أَنْفُسَنَا . »

رَدَّ ثُوم : « إِنَّكَ تَحْتَلِفِينَ عَنِّي ، فَأَنْتِ فَنَاءٌ جَمِيلَةٌ . إِنَّكَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمُمْتَنِعُ فِي حَيَاتِي . وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَجْعَلِي هَذَا الْمَكَانَ مُشْرِقًا وَتُشِيعِي فِيهِ الْبَهْجَةَ . وَفِي أَمْعِكَ أَنْ تَقُودِنِي كَمَا تُشَانِينَ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ يَا ثُوم ، وَلَكِنَّكَ أُخِي الْعَزِيزُ . » وَذَهَبَتْ إِلَيْهِ

وَقَبْلَتُهُ ، وَعَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا قُرْبَ التَّافِذَةِ .

قَالَ ثَوْم : « كَمْ أَوْدُ أَنْ أَجْمَعَ الْحَقَائِقَ وَالْأَرْقَامَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ ، وَكُلَّ مَنْ
اكتشفها ، ثُمَّ أَخْرِفَهُمْ جَمِيعًا حَتَّى يَصِيرُوا زَمَادًا ! وَلَكِنِّي عِنْدَمَا أَذْهَبُ لِأَعِيشَ
مَعَ بَاونْدِرَنِي الْعَجُوزِ فَسَوْفَ أُغَيِّرُ مِنْ بَعْضِ الْأُمُورِ . »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « مَاذَا سَتَفْعَلُ يَا ثَوْم ؟ »

أَجَابَ : « سَوْفَ أَمْتَعُ نَفْسِي قَلِيلًا ، فَسَأَلْتَقِي بِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَسَأَفْعَلُ
الكَثِيرَ ، وَسَوْفَ أَحَاوِلُ أَنْ أَمْلَأَ ذَلِكَ الْفَرَاغَ الْهَائِلَ بِدَاخِلِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « أَرْجُو أَلَّا يُحِبِّبَ السَّيِّدُ بَاونْدِرَنِي أَمْلَكَ ، فَهُوَ يُفَكِّرُ عَلَى نَهْجِ
تَفْكِيرِ أَبِي ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ لُحْشَوْنَةً مِنْهُ . وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ يَصِفُ مَا لَدَى أَبِي مِنْ
خَنَائِنَ . »

ضَحِكَ ثَوْم وَقَالَ : « إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَعَامَلَ مَعَ بَاونْدِرَنِي الْعَجُوزِ . »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « كَيْفَ ؟ هَلْ هَذَا سِرٌّ ؟ »

أَجَابَ ثَوْم : « إِنْ كَانَ سِرًّا ، فَهُوَ لَيْسَ بِعَمِيدٍ . إِنَّهُ أَنْتَ يَا لُو ! إِنَّكَ أَثِيرَةٌ لَدَيْهِ ،
وَسَوْفَ يَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ ، وَأَنْتِ سَتَفْعَلِينَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِي . وَإِذَا وَضَعْنَا
الْتَّيَجَّتَيْنِ مَعًا كَمَا يَقُولُ أَبِي ، فَسَتَكُونُ الَّتِي تَبْجَعُ أَنْ بَاونْدِرَنِي سَيَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ
أَجْلِي . »

إِنْتَظَرَ ثَوْم تَغْلِيْقَهَا ، لَكِنْ دُونَ جَذْوَى فَسَأَلَهَا : « هَلْ نِمْتَ يَا لُو ؟ »

قَالَتْ : « كَلَّا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِي ... »



فَجَاءَتْ صَاحِبَةَ السَّيِّدَةِ غَرَادُغَرَايْنِدُ مِنْ خَلْفِهِمَا ، وَهِيَ تَقِفُ عَلَى بَابِ حُجْرَةِ
الْدِّرَاسَةِ : « لَا تَتَسَاءَلِي يَا لُويزَا . أَلَا تَعْرِفِينَ أَنَّ وَالِدَكَ قَدْ حَرَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ؟ »

قَالَتْ لُويزَا : « بَلَى يَا أُمَاهُ . وَلَكِنَّا أَحْيَاءُ ، وَأَنَا لَا أَفْكُرُ إِلَّا فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ .
فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ ؛ أَلَيْسَتْ كَذَلِكَ ؟ فَمَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَفْعَلَهَا
فِي حَيَاتِنَا الْقَصِيرَةِ ؟ »

قَالَتْ السَّيِّدَةُ غَرَادُغَرَايْنِدُ : « هَرَاءَ ! يَا لِرَأْسِي الْبِسْكَينِ ، يَا لُويزَا أَنْ
تَسْأَلِي وَالِدَكَ هَذَا السُّؤَالَ السَّخِيفَ . »

الفصل الخامس

كَانَتْ حَيَاةُ سِيْسِي فِي سِتُونِ لُودْجٍ وَالْمَدْرَسَةِ أَشْبَهَ بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَالْأَرْقَامِ ، وَكَانَتْ ثَمَّةُ بَرِيقٍ أَشْبَهَ بِنَجْمٍ يَسْتَطِيعُ وَسْطَ هَذِهِ الْعَاصِفَةِ ، ذَلِكَ هُوَ أُمْلُهَا
فِي أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا وَالِدُهَا .

وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ غَرَادُغَرَايْنِدَ ذَابَ عَلَى أَنْ يُرَدِّدَ أُمَامَهَا قَوْلَهُ : « لَقَدْ ذَهَبَ وَالِدُكَ
يَا سِيْسِي لِيَا جُوبَ ، وَلَنْ يَعُودَ وَتِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْبَيِّنَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ
تُدْرِكِيهَا . »

وَكَانَتْ سِيْسِي قَدْ بَدَأَتْ تَكْرَهُ الْحَقَائِقَ ، كَمَا أَنَّ الْحَقَائِقَ كَانَتْ قَدْ كَرِهَتْهَا
بِذَوْرِهَا ، وَابْتُ أَنْ تَعْلُقَ بِذَهَبِهَا أَوْ تَسْتَقِرَّ بِرَأْسِهَا . وَأَبْلَغُ الْمُدْرَسِ السَّيِّدِ
غَرَادُغَرَايْنِدُ أَنَّ الْفَتَاةَ رَقَمَ عَشْرِينَ لَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ الْحِسَابَ ، وَقَالَ إِنَّهَا تَعْرِفُ
شَكْلَ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّهَا تَأْتِي أَنْ تَعْرِفَ حَجْمَهَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ .

وَأُجَابَةُ السَّيِّدَةِ غَرَادُغَرَايْنِدَ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ سَيِّئٌ ، وَلَكِنَّ عَلَيْكَ
أَلَّا تُعْطِيَهَا أَيَّ قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ ، وَعَلَيْكَ أَيْضًا أَنْ تُغْذِيَهَا بِالْحَقَائِقِ بِصِفَةِ دَائِمَةٍ . »

كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي سِتُونِ لُودْجٍ أَشْبَهَ بِالآلَةِ الْبُخَارِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِالنِّتْظَامِ وَكَفَاءَةِ
مَا لَا يَغِيثُ بِهَا أَحَدٌ ؛ لِذَا لَمْ تَكُنْ لُويزَا تُبَادِلُ سِيْسِي الْحَدِيثَ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّهَا
عَرَضَتْ عَلَيْهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ تُشْرَحَ لَهَا أَحَدَ دُرُوسِهَا الصَّغِيرَةِ ، وَمَا إِنْ أَنْتَهَتْ مِنْ
ذَلِكَ حَتَّى قَالَتْ لَهَا سِيْسِي : « يَا لَكَ مِنْ فَتَاةٍ مَاهِرَةٍ يَا أَيْسَةَ لُويزَا ! كَمْ أُرْتَمَى
لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ دُرُوسِي بِشَكْلِ أَفْضَلٍ مِنْ ذَلِكَ . »

فأجابتها لويزا : « إن هذا لن يجعلك أحسن حالا يا سيسي . »

قالت سيسي : « ولن يجعلني أسوأ حالا يا آنسة لويزا . »

قالت لويزا : « لا أظن ذلك ، فأنت أكثر رقة بتي في تعاملك مع أُمي ، كما أنك تحترمين ذاك أكثر مما أحترم أنا ذاتي . »

قالت سيسي : « ولكنني في غاية الغباء يا آنسة لويزا ، وكثيرا ما تكون إجاباتي بالمدرسة خاطئة . فhekذا يقول المدرس . »

طلبت لويزا أن تذكر لها بعضا من تلك الإجابات الخاطئة ، فقالت لها : « لقد قال المدرس اليوم : ' إن هذه الدولة التي نعيش فيها تمتلك خمسين مليوناً من الجنيهات . فهل هي دولة غنية وسعيدة ؟ ألب آيتها ألفمائة رُقم عشرين هل تعيشين في دولة غنية وسعيدة ؟ ' »

سألتها لويزا : « وبماذا أجبت يا سيسي ؟ »

أجابت : « قلت إنني لا أعرف ، فأنا لا أعرف من الذي يملك هذه النقود ، كما أنني لا أعرف إن كان شيء منها يخصني ، وكانت تلك الإجابة خطأ بطبيعة الحال ؛ لأنها لم تكن من بين ما ورد بالكتاب من إجابات . »

قالت لويزا : « نعم ، إن تلك إجابة خاطئة . »

واستطردت سيسي قائلة : « ثم اخترتني المدرس مرة أخرى ، وقال : ' بمدينة كوكتاون نصف مليون من السكان ، يموت منهم اثنا عشر شخصا كل عام ؛ لأنهم لا يجدون طعاما . ثم سألتني : هل هذا أمر حسن أم سيئ ؟ ' فأجبت بأن

هذا أمر بالغ السوء بالنسبة لهؤلاء الاثني عشر شخصا ولعائلاتهم . ولكن الإجابة الصحيحة كانت : إن هذا حسن ، ولم أستطع أن أفهم ... »

قالت لويزا : « ليس من السهل دائما أن نفهم . »

ولكن سيسي قالت : « لقد كانت رغبة والدي أن أتعلم ، كما كنت بدوري أود أن أتعلم ، ولكنني لا أوفق أبدا في معرفة الإجابات الصحيحة لما يوجه إلي من أسئلة . »

فسألتها لويزا : « هل كان والدك يعرف الإجابات الصحيحة ؟ »

وهنا تذكرت سيسي أوامر السيد غواذغراوند التي تقضي بالآلا تتحدث عن والدها أو عن حياتها السابقة على الإطلاق ؛ فنظرت إلى لويزا نظرة حزينة . ولكن لويزا قالت لها : « ليس لهذا السؤال من ضرر يا سيسي ، كما أنه لا يمكن أن يسمعنا أحد هنا . »

فأجابتها سيسي : « كان والدي يلم بالكتابة إماما محدودا ، ولم يكن واسع المعرفة . »

سألتها لويزا : « وماذا بشأن والدتك ، هل كانت متعلمة ؟ »

فأجابتها : « قال لي والدي إنها كانت متعلمة ، وقد توفيت عند ولادتي . »

ثم انخفض صوت سيسي وهي تضيف هامسة : « وكانت أُمي راقصة . »

وجاء سؤال لويزا التالي ، وكأنه نزوة طارئة عارمة من تلك التروات التي كانت

تَضِيعُ لِقَورِهَا أَوْ تُحْجَبُ فِي الظُّلُمَاتِ . سَأَلْتُهَا : « هَلْ كَانَ وَالِدُكَ يُحِبُّهَا ؟ »
أَجَابَتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا وَيَكُنْ لَهَا مِنَ الْحُبِّ وَالْإِعْزَازِ قَدْرُ
مَا كَانَ يُكِنُّهُ لِي . وَقَدْ أَحْبَبَنِي فِي الْبِدَايَةِ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَمْ تَفْتَرِقْ مِنْذُ مَوْلَدِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « وَلَكِنَّهُ قَدْ تَرَكَكَ آلَانْ يَا سِيسِي . »

قَالَتْ سِيسِي : « وَلَكِنَّهُ قَدْ فَعَلَ هَذَا لِمَصْلَحَتِي وَلَيْسَ لِمَصْلَحَتِهِ هُوَ ، يَا أَيْسَةُ
لُويزَا . فَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَعْرِفُ وَالِدِي حَقَّ الْمَعْرِفَةِ كَمَا أَعْرِفُهُ أَنَا . إِنَّهُ لَنْ يَشْعُرَ
بِالسَّعَادَةِ يَوْمًا حَتَّى يَعُودَ إِلَيَّ . »

قَالَتْ لُويزَا : « أَخْبِرْنِي بِالْمَزِيدِ عَنْهُ ، وَلَنْ أَسْأَلَكَ بَعْدَ آلَانْ . أَيْنَ كُنْتُمَا
تَعِيشَانِ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « كُنَّا نَسَافِرُ دَائِمًا وَتَتَجَوَّلُ مَعَ السَّيْرِكِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَيْتٌ
بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ . وَلَمْ نَسْتَغَيِّرْ قَطُّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ . وَلَمْ يَكُنْ وَالِدِي فِي الْحَقِيقَةِ
مِنْ بَيْنِ رَاكِبِي الْخَيْلِ الْمَهَرَّةِ ، بَلْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ ... » وَهَمَسَتْ سِيسِي وَهِيَ
تَنْطَلِقُ بِالْكَلِمَةِ الْفَطِيعَةِ : « كَانَ مُهْرَجًا . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ يُضْحِكُ النَّاسَ ؟ »

فَأَجَابَتْهَا : « نَعَمْ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَبْكِي أحيانًا ، عِنْدَمَا يَفْشَلُ فِي إِضْحَاكِهِمْ . وَكَمْ
مِنْ مَرَّةٍ بَكَى هُنَا فِي كُوْكُتَانِ . »

فَسَأَلْتُهَا لُويزَا : « وَمَاذَا عَنْكَ ؟ هَلْ كُنْتَ تُوَاسِيَنَّهُ آنَذَاكَ ؟ »

فَأَجَابَتْهَا سِيسِي وَقَدْ أَخْذَلَتْ ثَبْكَي : « كُنْتُ أُحَاوِلُ ذَلِكَ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَتْ

مَخَافَتُهُ تَتَضَاعَفُ ، فَصَارَ يَتَقَيَّدُ أَنَّهُ مُهْرَجٌ فَاشِلٌ ؛ لِذَا كَانَ يَحْرُسُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ
مِنْهُ فَنَاءً مَاهِرَةً وَنَاجِحَةً ، عَلَى خِلَافِهِ ، وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَقْرَأُ لَهُ بَعْضَ الْكُتُبِ .
وَلَكِنْ أَخْتَارُنَا لِهَذِهِ الْكُتُبِ لَمْ يَكُنْ مُوَقَّعًا ، وَلَمْ تَكُنْ هِيَ الْكُتُبُ الْمُنَاسِبَةُ ، وَلَكِنَّا
لَمْ نَعْرِفْ ذَلِكَ . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ يُحِبُّ هَذِهِ الْكُتُبَ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا بِدَرَجَةٍ كَثِيرَةٍ ؛ إِذْ كَانَتْ تُنْسِيهِ
مَتَاعِبَهُ . كَمَا كَانَ يَقْضِي سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ ، وَمِنْ أَمْرِ الْجَنِّيَّاتِ
الَّتِي كُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ عَنْهَا فِي تِلْكَ الْكُتُبِ . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ وَالِدُكَ عَطُوفًا تَجَاهَ الْآخَرِينَ ؟ »

رَدَّتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، كَانَ ذَلِكَ شَأْنَهُ دَائِمًا ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ أَيَّةَ
مَشَاعِرٍ سَيِّئَةٍ نَحْوِ الْآخَرِينَ . »

وَأَسْتَمَرَّتْ لُويزَا فِي تَسْأُلِهَا : « هَلْ كُنْتَ تَعْرِفِينَ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَرَكَكَ يَوْمًا مِنْ
الْأَيَّامِ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « لَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ سَعِيدًا . فَالْنَّاسُ ... »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ ثُومُ غُرْفَةِ الدِّرَاسَةِ ، وَكَانَ غَارِقًا فِي التَّفَكُّيرِ فِي أُمُورِهِ
الْخَاصَّةِ . وَخَمَلَقَ إِلَى الْفَتَاتَيْنِ ، وَلَكِنَّ لُويزَا قَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « كُنْتُ أَسْأَلُ
سِيسِي بِضْعَةَ أَسْئَلَةٍ ، وَلَا دَاعِي لَأَنْ تَنْصَرِفَ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَبْقَى مَعَنَا هُنَا وَلَكِنْ
لَا تَقَاطِعْنَا . »



قال ثوم : « إن باونديزي العجوز قد حضر مع والدنا إلى المنزل ، فهلا جئت
للتحدثي إليه ؟ إن فعلت ذلك فقد يدعوني لتناول العشاء . »

فأجابته : « سوف أحضر بعد دقيقة واحدة . »

قال ثوم : « إذا سالتنظر حتى أتاكد . »

أكملت سيسي حديثها هامسة : « لقد كان والدي يشعر بالثعاسة عندما يعجز
عن إضحاك الناس ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لمهرج السيرك . وقد سمعته
ينكي في الليل ، وكان يحاول إخفاء وجهه عني ، ولكن تناهى إلى سمعي بضع
كلمات كان يقولها ، منها « يا عزيزتي ! » و « يا سيسي الحبيبة ! »

« وفي الصباح اختضعتي وقبلني ، وكانت هذه عادته كل صباح عندما أذهب
إلى المدرسة ؛ لذا لم يساورني شك . وعندما عدت من المدرسة لم أجده
بالمنزل ؛ إذ كان قد رحل . »

وقاطعها ثوم قائلاً لشفقيته : « أسرع يا لو ، وإلا سينصرف العجوز
باونديزي . »

ولكن سيسي استمرت في حديثها هامس مع لويزا قائلة : « هذا هو كل شيء
يا آنسة لويزا ، ولكنني أعرف أنه سوف يعود إلي مرة أخرى ، أو لعله سيكتب
لي أو للسيد سلاوي . إنني كلما رأيت السيد غراذغرايند ممسكاً بخطاب في
يديه ، كاد قلبي يتوقف ، وشعرت بأن الخطاب من ... »

وصاح ثوم مقاطعاً : « هيا بنا يا لو ! ماذا تنتظرين ؟ »

أخذت لويزا بعد ذلك تتعمد النظر في وجه أبيها كلما شاهدته يمسك بخطاب
من خطابات ليفتحه ، وكانت سيسي ، في بعض الأحيان ، تجد الشجاعة وتساله :
« هل ثمة خطابات لي يا سيد غراذغرايند ؟ » وكانت لويزا تنتظر بشغف — لا يقل
عن شغف سيسي — الإجابة عن هذا السؤال . ولكن الإجابة كانت دائماً :
« لا يا سيبيليا ، لا شيء لك ! »

وبعد أن تذهب سيسي إلى مدرستها ، كان السيد غراذغرايند كثيراً ما يعلق
على ذلك بقوله : « إنه الأمل ! ذلك السهم الذي يسري في الدماء ! لم لا تفكر
تلك الفتاة في الحقائق ؟ »

ولم يكن في شئون لودج من يعرف مدى قوة الأمل الذي تعلق به سيسي

سيوى لويزا ، بل كانت تُدرك أيضا أن الأمل لديها قوِي قوّة الحقيقة . أما نوم
الصغير فلم يكن يفكر إلا في أموره الخاصة بطبيعة الحال . ولم يكن يشغل السيدة
غراذغرايند شيء سيوى رأسها المريض ، ذلك الرأس الذي لم يكن يحوي شيئا
بداخلة سيوى الألم .

الفصل السادس

كان ستيفن بلاكبول يعمل نساجا في مصنع للأقمشة القطنية يملكه جوشيا
باوندرلي . وكان في الأربعين من عمره ، وإن بدا أكبر من عمره الحقيقي ؛ فكيفه
المنحنيان ، وشعره الرمادي دلائل على أنه على الكثير في حياته .

ولم يكن ستيفن قد نال أي قسط من التعليم ، وذلك على خلاف بعض العمال
الآخرين الذين علموا أنفسهم بأنفسهم . فكانوا يستعرون الكتب من المكتبة
ويقرأونها في منازلهم . وكان منهم من يجيد الحديث ، ولكن ستيفن لم يكن
مثلهم ، رغم أنه كان محبا للقراءة ، ولكنه كان نساجا ماهرا ورجلا أميناً .

وذاث مساء ، بعد أن دق جرس انتهاء العمل ، وتوقفت الآلات بالمصنع ،
وأطفئت الأنوار ، اندفع ستيفن مع غيره من العمال رجالا ونساء ليخرجوا من
بناية المصنع إلى الشارع . وظل ستيفن يسير في الشارع يبحث عن شخص
ما . وبعد قليل صاح مناديا : « راشيل ! »

التفت لندائه سيده كانت تسير تحت أحد مصابيح الشارع ، فوقعت غيبا
ستيفن على وجهها الصغير الأسمر اللون وعينيهما الرقيقتين . ولم تكن ملامح
وجهها تدل على أنها في مقتبل العمر ، فقد كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها .

ردت راشيل على ندائه قائلة : « آه يا فتى ، أهذا أنت يا صديقي العجوز ! »

قال لها ستيفن : « إنك تبدين شابة كمهدي بك يا راشيل . »

صَحِكَتْ رَاشِيلُ وَقَالَتْ : « لَقَدْ تَقَدَّمَ الْعُمُرُ بِنَا يَا قَتِي ، وَلَا حَاجَةَ بِنَا لِأَنْ
نُخْفِيَ بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ . »

فَاسْتَأْذَنَهَا فِي أَنْ يَسِيرَ مَعَهَا وَيُرَافِقَهَا حَتَّى يَبْتِهَا ، فَأُجَابَتْهُ قَائِلَةً : « لَكَ ذَلِكَ
لَكِنْ يَحْسُنُ أَلَّا يُشَاهِدَنَا النَّاسُ مَعًا كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنْ كَانَ يَجِبُ أَنْ أُرَاكَ مِنْ وَقْتٍ
لَاخَرٍ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

قَالَ سَتِيفِن : « لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا طَيِّبَةً مَعِي يَا رَاشِيلُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنْ رَغِبَاتِكَ
عِنْدِي كَالْقَانُونِ . إِنِّي أَعْرِفُ أَنَّ النَّاسَ دَائِمًا يَقُولُونَ ، حَتَّى غَنِكَ . »

فَعَلَّقَتْ قَائِلَةً : « لَا تَتَفَكَّرْ فِي الْقَوَانِينِ يَا سَتِيفِن »

قَالَ : « أَنْتِ عَلَى حَقٍّ يَا فَتَاةُ ، فَمَا الْقَوَانِينُ إِلَّا تَوَعُّ مِنَ التَّخَبُّطِ . إِنِّي أَفَكِّرُ
وَأَفَكِّرُ ، وَأُجِدُ نَفْسِي دَائِمًا وَسَطَ هَذَا التَّخَبُّطِ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَجَاوَزَهُ . »

وَعِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى مَنْزِلِهَا صَافَحَهَا سَتِيفِنُ وَتَبَادَلَا نِجِيَّةَ الْمَسَاءِ ، ثُمَّ انْتَصَرَفَتْ
وَهُوَ يُتَابِعُهَا بِنَظَرَاتِهِ حَتَّى دَخَلَتْ فِي مَنْزِلِهَا . لَقَدْ كَانَ سَتِيفِنُ يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ كُلَّ
شَيْءٍ فِيهَا . فَقَدْ كَانَ يُحِبُّ قَامَتَهَا الرَّشِيقَةَ ، وَوَجْهَهَا وَصَوْتَهَا .

وَمَا إِنَّ وَصَلَ سَتِيفِنُ إِلَى مَسْكَنِهِ الْكَائِنِ فَوْقَ أَحَدِ الْمَتَاجِرِ الصَّغِيرَةِ ، حَتَّى أَشْغَلَ
الْمِصْبَاحَ فِي الْغُرْفَةِ الَّتِي يَتَكُونُ مِنْهَا هَذَا الْمَسْكَنُ . وَكَانَتْ صَاحِبَةُ الْمَتَجَرِ قَدْ
أَخْلَذَتْ إِلَى النَّوْمِ فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يوقظَهَا . وَكَانَتْ غُرْفَةُ سَتِيفِنُ خَالِيَةً إِلَّا مِنْ سَرِيرِهِ
وَمِنْضَدَةٍ وَمَكْتَبٍ وَبِضْعَةٍ مَقَاعِدَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ سَتِيفِنُ يَضَعُ الْمِصْبَاحَ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ تَعَثَّرَ وَكَادَ يَقَعُ فَوْقَ شَيْءٍ مَا



في غرفته . لقد كان هذا الشيء امرأة سرعان ما نهضت من الأرض وهي تستند على إحدى ذراعيها ، فصاح ستيفن : « أعوذ بالله ! لقد غدت مرة أخرى ! »

حاولت المرأة أن تجلس منتصبة ، ولكنها كانت مخمورة فبدرة ترتدي ملابس ممزقة ، ثم أراحت شعرها عن وجهها ، ومالت برأسها إلى الأمام وهي تضحك قائلة : « نعم يا فتى ، غدت مرة ثانية ، ومرة ومرة ، ولم لا ؟ »

ونهدت واقفة وهي تمسك بالمنضدة ، وزمت ستيفن بنظرة غاضبة ، على حين جلس هو على السرير ، ثم صاحت : « سوف أبيع كل ما تملكه ، بل سأبيع كل شيء عشرة مرة . ابتعد عن هذا الفراش ! ابتعد ! إنه فراشي . »

والتفت نحو الفراش ، ولكن ستيفن تجنّبها وجلس على كرسي بجوار



التافذة . وألقت المرأة بنفسها فوق السرير ، واستغرقت في النوم . وظل ستيفن جالساً بجوار التافذة طوال الليل ، ولم يقم إلا مرة واحدة ليلقي فوق المرأة بغطاء .

وفي صباح اليوم التالي توجه ستيفن مبكراً إلى مصنع الأقمشة القطنية الذي يملكه السيد باوندرني ؛ ذلك المصنع الذي يحوي العديد من آلات النسيج ، ومن العمال الذين يطلق عليهم السيد باوندرني اسم الأيدي العاملة .

وعند الظهر دق الجرس ، وخرجت الأيدي العاملة إلى الشارع ؛ إذ إن باوندرني يسمح لهم بساعة لتناول الغداء خلالها . ولم يكن ستيفن يشعر برغبة في تناول الطعام ؛ لذا فإنه سار في الشارع مدة عشرين دقيقة حتى وصل إلى منزل السيد باوندرني فطرق باب البيت ، وفتح له مديرة المنزل فقال لها : « هل لي أن أتحدث إلى السيد باوندرني يا سيدي ؟ إني واحد من أيديه العاملة ! »

فسألتها السيدة سباريت : « ما اسمك ؟ »

فأجاب : « اسمي ستيفن بلاكبول يا سيدي . »

ولم يكن ستيفن من مثيري المتاعب في المصنع ؛ لذا وافق السيد باوندرني على مقابلته ، فأصطحبته السيدة سباريت إلى داخِل المنزل .

وسأله السيد باوندرني قائلاً : « ما الأمر يا ستيفن ؟ أعلم أنك لم تأت هنا لتشكو ، فلست واحداً من أولئك العمال الأغبياء ، الذين يريدون أن تكون في أفواههم ملاءة من ذهب . »

فَأَجَابَهُ قَائِلًا : « لَا يَا سَيِّدِي ، فَأَنَا لَا أَفُكِّرُ فِي الذَّهَبِ . »

فَعَادَ يَسْأَلُهُ : « مَا الْمَشْكَلَةُ إِذَا ؟ »

نَظَرَ سَتِيفِنُ نَحْوَ السَّيِّدَةِ سِبَارِسِتِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي بَادَرَهُ قَائِلًا :
« لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ سَيِّدَةً عَظِيمَةً ، وَرَغِمَ أَنَّهَا تَعْمَلُ الْآنَ مَدِيرَةً لِمَنْزِلِي فَإِنَّهَا
نَشَأَتْ فِي أَحْضَانِ الْتَرَفِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ اعْتِرَاضٌ عَلَى بَقَائِهَا فَإِنَّهَا سَتَبْقَى
مَعَنَا هُنَا . »

فَأَجَابَ سَتِيفِنُ : « لَا اعْتِرَاضَ لِي يَا سَيِّدِي ، كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي كَلِمَاتِي مَا يَجْرَحُ
مَشَاعِرَ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الْعَظِيمَةِ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِذَا تَكَلَّمْتُ وَسَأَصْغِي إِلَيْكَ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « لَقَدْ جِئْتُ طَالِبًا النَّصِيحَةِ ، فَإِنِّي فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَيْهَا . فَقَدْ
تَزَوَّجْتُ مِنْذُ بَسْعَةِ عَشَرَ عَامًا بِفَتَاةٍ صَغِيرَةٍ ، وَكَانَتْ فَتَاةً طَيِّبَةً وَعَلَى قَدْرِ مِنَ
الْجَمَالِ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا تَبَدَّلَ حَالُهَا وَسَاءَ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِحُطْأِي بِهَا . فَإِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّنِي مَا كُنْتُ لَهَا زَوْجًا قَاسِيًا . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، كَمَا اعْرِفُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ سَيِّئَةً .
لَقَدْ بَدَأَتْ تُذَمِّنُ الشَّرَابَ ، وَكَفَّتْ عَنِ الْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّهَا بَاعَتْ الْأَثَاثَ وَسَيَّيْتُ
لَكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَتَاعِبِ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « لَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أُمِدَّ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ إِلَيْهَا ، كَمَا حَاوَلْتُ الْكَثِيرَ
مَعَهَا ، وَلَكِنَّهَا بَاعَتْ مَلَاسِي وَأَثَائِي ، لَيْسَ مَرَّةً وَاحِدَةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَحَسَبْتُ ، بَلْ

عِشْرِينَ مَرَّةً . كَانَتْ تُنْفِقُ النَّقُودَ دَائِمًا عَلَى الشَّرْبِ . وَتَغَيَّرَ حَالُهَا مِنْ سَيِّئٍ إِلَى
أَسْوَأَ ، وَهَجَرْتَنِي أَلْتَنِي عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَعُودُ دَائِمًا فَمَاذَا أُسْتَطِيعُ أَنْ
أَفْعَلَ ؟ لَقَدْ كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَخْشَى أَنْ أَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ . لَقَدْ دَفَعْتُ لَهَا مَبْلَغًا مِنْ
النَّقُودِ لِكَيْ تَبْقَى بَعِيدَةً عَنِّي ، وَظَلَلْتُ أَدْفَعُ لَهَا طَوَالَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ . إِنَّنِي أَحْيَا
حَيَاةَ صَعْبَةٍ ، بَلْ حَيَاةَ كَثِيبَةٍ . وَلَكِنِّي لَا أَشْعُرُ بِالْحُجْلِ أَوْ الْخُوفِ . وَعِنْدَمَا عُدْتُ
إِلَى مَنْزِلِي اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ وَجَدْتُهَا هُنَاكَ مُسْتَلْقِيَةً عَلَى الْأَرْضِ فَاقْدَرْتُ الْوَفَى . »

تَوَقَّفَ سَتِيفِنُ عَنِ الْحَدِيثِ هُنَيْهَةً بَدَأَ لِخَلَالِهَا قَوِيًّا وَفَخُورًا ، وَسَرَّعَانَ مَا اتَّحَثَتْ
كَيْفَاهُ ، وَعَكَسَتْ مَلَامِحُ وَجْهِهِ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ حَيْرَةٍ .

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ مِنْ زَمَنِ بَاسْتِشْنَاءِ ذَلِكَ الْجُزْءِ الْأَخِيرِ . إِنَّهُ
أَمَرَ سَيِّئًا ، وَمِنْ الْمُسَيِّفِ أَنَّكَ تَزَوَّجْتَ هَذِهِ السَّيِّدَةَ ، لَكِنْ قَوْلِي هَذَا يَأْتِي مُتَأَخِّرًا
الْآنَ . »

وَهُنَا سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتِ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي : « هَلْ كَانَ أَكْبَرَ سِنًا مِنْ هَذِهِ
الْفَتَاةِ يَا سَيِّدِي ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي مُوَجِّهًا حَدِيثَهُ لِسَتِيفِنُ : « لَقَدْ سَمِعْتُ سُؤَالَ السَّيِّدَةِ
يَا سَتِيفِنُ . هَلْ كُنْتُ أَكْبَرَ مِنْ تِلْكَ الْفَتَاةِ عِنْدَمَا تَزَوَّجْتُهَا ؟ »

قَالَ : « لَا ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَادِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِي ، وَكَانَتْ هِيَ فِي
الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا . »

قَالَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتِ : « إِنَّنِي أَذْهَبُ لِهَذَا يَا سَيِّدِي ؛ فَعِنْدَمَا التَّوَفَّقِي فِي
الزَّوْاجِ يَرْجِعُ عَادَةً إِلَى الْفَرْقِ فِي السَّنِ . »

نظر باونديري إلى مديرة المنزل بجدة وقد أرستمت على وجهه ملامح الفضول
والخجل، ثم ألقت إلى ستيفن مرة أخرى قائلاً: «استمر يا بلاكبول فانا في
انتظار سماع بقيقة كلامك.»

عاد ستيفن يسأل: «كيف أستطيع أن أتحلص من تلك المرأة يا سيدي؟
هل لك أن تنصحنى؟»

تساءل باونديري: «تتحلص منها؟! ولكنها زوجتك يا رجل، وزواجك بها
قائم حتى تموت أنت أو تموت هي.»

قال ستيفن: «ولكن يجب أن أتحلص منها وإلا أصيبت بالجنون، آه، لولا
راشيل لكنت قد بلغت الآن مرحلة الجنون بالفعل.»

فسأله باونديري: «من راشيل هذه؟»

أجابته: «إنها أفضل فتاة في العالم يا سيدي.»

قالت السيدة سبارسيت: «آه، إنه يؤد أن يكون حراً يا سيدي حتى يستطيع
أن يتزوج مرة أخرى.»

قال ستيفن: «هذا ما أريده، فالسيدة محقة في رأيها. إن الرجل الذي
لا يلقى أي صعب إذا كان زواجه غير موفق؛ إذ يمكنه أن يقيم مع زوجته في
غرفتين منفصلتين في مسكن واحد، كما يمكنهما أن يعيشا منفصلين ويفتسما
نقودهما. ويمكنهما أحياناً أن يتفصلا بمقتضى القانون. ولكن، هل يستطيع
الرجل الفقير أن يفعل شيئاً من هذا؟ يجب أن أتحلص من تلك المرأة، وأريد

أن أعرف كيف يتسنى لي ذلك؟»

قال باونديري: «لا تستطيع ذلك.»

تساءل ستيفن: «هل يعاقبني القانون إذا ما ضربتها؟»

أجابته باونديري: «ستعاقب بالطبع.»

عاد ستيفن يسأله: «وإذا هجرتها، هل يعاقبني القانون أيضاً؟»

أجاب باونديري: «بطبيعة الحال.»

سأل ستيفن: «ماذا سيحدث إذا تزوجت الفتاة العريضة الأخرى؟»

أغمضت السيدة سبارسيت عينيها، وأجاب السيد باونديري: «ستوف تعاقب
على ذلك.»

قال ستيفن: «ألا يوجد يا سيد باونديري أي قانون يمكن أن يسانديني؟»

أجابته: «الزواج يدوم طوال العمر يا بلاكبول، وهو أمر بالغ الأهمية.»

قال ستيفن: «ولكن بعض الزوجات لا تدوم. وأنا أعرف ذلك، كما أنني
قرأت عن ذلك أيضاً. فيعض الرجال يقتلون زوجاتهم، وبعض النساء يقتلن
أزواجهن، لكنني لن أقتل زوجتي، ولكن لا بد أن يكون ثمة قانون يساعدي.»

قال باونديري: «ثمة قانون، ولكنه ليس لك، فهو يكلف الكثير من المال.»

سأله ستيفن بهدوء: «وكم يكلفني ذلك؟»

أجاب : « حوالى ألف جنيه ثقيرا ، وربما ألفين أو ثلاثة . »

شحب وجه ستيفن وهو يقول في هدوء : « إذا أنا على صواب . إنه التخبُّط .
لا أمل لي على الإطلاق ، وسأكون أفضل حالا لو ميت . »

رفعت السيدة سبارسيت عينيها نحو السماء ، على حين قال السيد باوندرني :
« إن ما نقوله هراء ، فالقوانين في هذه الدولة ليست ضربة من التخبُّط ، ولكيئك
لا تفهمها . إن أهيماماتك تبدأ وتنتهي عند التَّوَل . لقد كنت دائما يا ستيفن
بلاكيول من العمال الممتازين ، ولا تزال كذلك . وأمل ألا يتبدل حالك وتصبح
شخصا سيئا مثل بعض زملائك من العمال . »

هز ستيفن رأسه وقال : « شكرا لك يا سيدي ، وأتمنى لك يوما سعيدا . »
والتصرف وهو يردد بهدوء : « إنه تخبُّط ، وتخبُّط هائل ! »

الفصل السابع

بينما كان ستيفن يعبر الطريق أمام منزل باوندرني لمست سيدة عجوز ذراعة ،
فالتفت إليها . كانت سيدة طويلة معتدلة القوام رغم كبر سنها ، كانت حسنة
الهندام نظيفة الملابس . وكان عالقا بجذائنها بعض الوخل ، لعله من أثر سترها
في طرق الريف .

وبادرت السيدة إلى سؤاله : « أَلَمْ تَكُنْ يا سيدي في زيارة لمنزل السيد
باوندرني ؟ »

أجابها ستيفن : « بلى يا سيدي . »



قالت : « أَرْجُو الْمَعْذِرَةَ يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ هَلْ تَحْدُثُ إِلَيْهِ ؟ »

أجاب : « أَجَلْ يَا سَيِّدَتِي . »

سألته : « كَيْفَ كَانَ يَدُو ؟ هَلْ هُوَ بِخَيْرٍ ؟ هَلْ هُوَ ضَخْمُ الْجَنَّةِ جَسُورٌ ؟ »
وكانَ صَدْرُ بَلَكِ السَّيِّدَةِ يَكَادُ يَنْحَلِّعُ وَهِيَ تُعَاوِذُ تَسْأَلُهَا : « هَلْ كَانَ صَوْتُهُ قَوِيًّا وَاضِحًا ؟ »

وَحِيلَ لِسَتَيْنِ أَنَّهُ سَبَقَ لَهُ أَنْ رَأَى بَلَكِ السَّيِّدَةِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّهُ أَجَابَهَا بِقَوْلِهِ :
« نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي لَقَدْ كَانَ فِي حَالَةٍ طَيِّبَةٍ ، كَمَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ مِثْلَ مَا ذَكَرْتَ ثَمَامًا . »

شَكَرَتْهُ السَّيِّدَةُ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّ سَتَيْنِ عَادَ يُفَكِّرُ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « لَا ، لَا أَظُنُّ أَنِّي قَابَلْتُ هَذِهِ السَّيِّدَةَ مِنْ قَبْلُ . لَا بُدَّ أَنِّي رَأَيْتُهَا فِي أَحْلَامِي ، وَأَظُنُّ أَنَّهَا لَمْ تَرُقْ لِي كَثِيرًا . »

سَارَتْ السَّيِّدَةُ بِجَوَارِ سَتَيْنِ وَهِيَ تُبَادِلُهُ الْحَدِيثَ ، فَعَرَفَ مِنْهَا أَنَّهَا تَسْكُنُ كُوخًا بِالرَّيْفِ عَلَى بُعْدِ ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا مِنْ بَلَدِهِ كُوخَتَاوَنَ ، وَأَنَّهَا قَدِمَتْ إِلَى كُوخَتَاوَنَ بِالْقِطَارِ صَبَاحَ الْيَوْمِ ، وَأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ مَسَافَةَ خَمْسَةِ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا مِنْ مَسْكَنِهَا حَتَّى مَحْطَةِ الْقِطَارِ .

قَالَتِ السَّيِّدَةُ : « سَوْفَ أُسِيرُ مَسَافَةَ خَمْسَةِ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا أُخْرَى عِنْدَ عَوْدَتِي إِلَى مَنْزِلِي هَذَا الْمَسَاءَ ، وَلَكِنْ أَلَيْسَ هَذَا شَيْئًا مُقْبِلًا لِسَيِّدَةٍ فِي مِثْلِ سِنِّي ؟ »
أَجَابَهَا : « إِنَّهُ مُفِيدٌ لِلْعَايَةِ ، وَلَكِنْ لَا تُكْرِرِي ذَلِكَ كَثِيرًا يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ : « لَا يَحْدُثُ هَذَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً كُلَّ عَامٍ . فَأَنَا أَدْخِرُ النَّفْوَ طَوَالَ الْعَامِ ، حَتَّى أُسَافِرَ إِلَى كُوخَتَاوَنَ ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَرَى ذَلِكَ السَّيِّدَ ، وَكُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَرَاهُ الْيَوْمَ ، وَهَئِنْدَا قَدْ رَأَيْتُكَ ، وَأَنْتَ قَدْ رَأَيْتَهُ ، وَغَلِيَّ أَنْ أَرْضَى بِهِذَا ! »

لَمْ يَفْهَمْ سَتَيْنِ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ تَرَعَّبُ بَلَكِ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزُ فِي مُقَابَلَةِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، فَهِيَ لَمْ تُعْطِ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ ؛ لِذَا قَالَتْ قَالَتْ لَهَا : « يَجِبُ أَنْ أَنْصَرِفَ آلَانَ وَإِلَّا تَأَخَّرْتُ عَنْ عَمَلِي ، فَأَنَا أَعْمَلُ تَسَاجًا فِي مَصْنَعِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي لِلْأَقْمِشَةِ الْقَطْنِيَّةِ : »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ نَظْرَةً تَفْهَمُ وَحِكْمَةً وَسَأَلَتْهُ : « أَسَعِدَ أَنْتَ فِي عَمَلِكَ ؟ »
أَجَابَهَا : « لَكُلِّ إِنْسَانٍ هُمُومَةٌ يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَلَكِنْ هَلْ تَعْنِي أَنَّكَ تُصَادِفُ بَعْضَ الْمَتَاعِبِ فِي الْيَتِّ ؟ »
أَجَابَهَا : « فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَلَا حَقَّقْتَ هَذِهِ الْمَتَاعِبَ فِي الْمَصْنَعِ ؟ »
أَجَابَ : « كَلَّا . »

كَانَا قَدْ وَصَلَا فِي بَلَكِ اللَّحْظَةِ إِلَى بَوَابَةِ الْمَصْنَعِ ، وَكَانَ الْعَمَالُ يُسْرِعُونَ فِي الدَّخُولِ ؛ إِذْ كَانَ الْجَرَسُ يَدُقُّ وَقَدْ بَدَأَتْ آلَاتُ ثَدُورٍ ، وَغَلَقَتِ السَّيِّدَةُ بِقَوْلِهَا : « يَا لَهُ مِنْ جَرَسٍ جَمِيلٍ ! إِنَّهُ أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ فِي حَيَاتِي مِنْ أَجْرَاسٍ ، مِنْذُ مَتَى وَأَنْتَ تَعْمَلُ هُنَا يَا سَيِّدِي ؟ »

أجابها : « مِنْذُ انْتَهَى عَشْرَةُ سَنَةٍ . »

قَالَتْ : « يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ تِلْكَ الْيَدَ الَّتِي عَمِلْتُ فِي هَذَا الْمَصْنَعِ الْعَظِيمِ طَوَالَ انْتَهَى عَشْرَةُ سَنَةٍ . »

وَقَبِلَتْ السَّيِّدَةُ يَدَ سَتِيفِنَ رَغَمَ مُحَاوَلَتِهِ مَنَعَهَا ، وَلَكِنْ قَبِلَتْهَا جَاءَتْ فِي بَسَاطَةٍ وَجِدَتْهُ ، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا الشَّيْءُ الْمُنَاسِبُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَفِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ . وَتَرَكَهَا سَتِيفِنَ وَأَنْصَرَفَ .

اسْتَمَرَّ سَتِيفِنَ فِي عَمَلِهِ عَلَى التَّوَلُّ الْخَاصِّ بِهِ لِمُدَّةٍ بَصِيفِ سَاعَةٍ . وَعِنْدَمَا أُطِّلَ مُصَادَفَةً مِنَ الْبَاقِدَةِ ، شَاهَدَ تِلْكَ السَّيِّدَةَ وَكَانَتْ لَا تَرَاهُ ثَقِيفٌ بِالْشَّارِعِ تَنْتَظِعُ إِلَى جُذُرَانِ الْمَصْنَعِ الدَّاكِنَةِ ، وَتَنْظُرُ إِلَى السُّحُبِ وَالْذُّحَانِ . وَلَا حَظَّ سَتِيفِنَ مَلَامِحَ وَجْهِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ ، فَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَجِدُ فِي صَوْتِ آلَاتٍ مَا هُوَ أَشْبَهُ بِالنَّغَامِ مُوسِيقِيَّةٍ شَجِيَّةٍ تَنْتَاهِي إِلَى سَمْعِهَا . وَظَلَّ سَتِيفِنَ مَشْغُولًا طَوَالَ فِتْرَةٍ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ بِأَمْرِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ ، وَانْشَغَلَ تَفْكِيرُهُ أَيْضًا بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَ قَدْ تَرَكَهَا فِي غُرْفَتِهِ .

وَانْتَهَى الْيَوْمُ ، وَكَانَتْ السَّمَاءُ تُمْطِرُ عِنْدَمَا غَادَرَ سَتِيفِنَ الْمَصْنَعَ لِيَسِيرَ فِي الشَّارِعِ . وَيجُولُ بِبَصَرِهِ هُنَا وَهُنَاكَ بَحْثًا عَنْ رَاشِيلَ ، الَّتِي كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَلْقَاهَا مَرَّةً أُخْرَى . فَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةُ إِلَى تِلْكَ الرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي لَا يَجِدُهَا عِنْدَ سِوَاهَا . وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ رَاشِيلَ قَدْ أَنْصَرَفَتْ مُبَكَّرَةً ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرَاهَا .

اسْتَمَرَّ يَسِيرُ طَوِيلًا تَحْتَ الْمَطَرِ غَارِقًا فِي أَفْكَارِهِ ، مُتَأَمِّلًا فِي حَيَاتِهِ الضَّائِقَةِ ، وَفِي حَيَاةِ رَاشِيلَ الَّتِي كَانَتْ يَدُورُهَا حَيَاةٌ ضَائِقَةٌ . لَقَدْ حَكَى لِرَاشِيلَ مِنْذُ سَنَوَاتٍ

طَوِيلَةً عَنْ مَتَاعِيهِ ، وَلَمْ يَنْطَرُقْ حَدِيثَهُمَا يَوْمًا إِلَى الزَّوْاجِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَزَوِّجًا لَتَزَوَّجَ رَاشِيلَ ، وَلَكَانَ لهُمَا بَيْتٌ دَافِئٌ وَمُرِيحٌ ، وَلَكَانَ لَهُمَا أَطْفَالٌ ، وَتَمَتُّعًا بِالْحُبِّ وَالْكَرَامَةِ وَآخِرَامِ الذَّاتِ . وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ هَذَا مَا هُوَ ذَا قَدْ شَدَّ وَثَاقَ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ لِيَتَرَبَّطَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ السَّكِينَةِ الْقَدِيرَةِ . وَلَمْ يَخْتَلِفْ حَالُ رَاشِيلَ كَثِيرًا عَنْ حَالِهِ ؛ فَقَدْ عَاشَتْ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً تَنْتَظِرُ وَتَأْمُلُ الزَّوْاجَ بِسَتِيفِنَ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي رَأَتْ فِيهِ صَدِيقَاتِهَا يَتَزَوَّجْنَ وَيَصِيرُ لَهُنَّ بُيُوتٌ وَعَائِلَاتٌ .

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ انْتَصَفَ عِنْدَمَا عَادَ سَتِيفِنَ إِلَى غُرْفَتِهِ ، وَغَلَى ضَوْءُ الْمَصْبَاحِ بِالْغُرْفَةِ شَاهِدًا رَاشِيلَ تَجْلِسُ إِلَى جِوَارِ السَّرِيرِ ، فَشَعَرَ كَمَا لَوْ أَنَّ ضِيَاءَ وَجْهِهَا قَدْ أَنَارَ ظُلُمَاتِ عَقْلِهِ . وَرَأَى أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ تَتَمَدَّدُ عَلَى السَّرِيرِ وَقَدْ آرَتْكَ بَعْضًا مِنْ مَلَابِسِ رَاشِيلَ . وَمَا إِنَّ رَأْيَهُ رَاشِيلَ حَتَّى قَالَتْ : « كَمْ يُسَعِدُنِي أَنَّكَ عُدْتَ أَخِيرًا يَا سَتِيفِنَ ، وَلَكِنَّكَ عُدْتَ مُتَأَخِّرًا جِدًّا . »

أجابها : « لَقَدْ كُنْتُ أَجُولُ فِي الْمَدِينَةِ . »

قَالَتْ : « هَذَا مَا تَوَقَّعْتُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ اللَّيْلَةُ لَيْسَتْ بِالْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِذَلِكَ . لَقَدْ جِئْتُ عَقِبَ الْعَدَاءِ ؛ إِذْ وَجَدْتُ رِسَالَةً تَرَكَتْهَا لِي السَّيِّدَةُ صَاحِبَةُ الْمَتَجَرِّ بِالطَّابِقِ السَّقْلِيِّ ، وَعَرَفْتُ مِنْهَا أَنَّ زَوْجَتَكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُنْقِذُهَا ؛ إِذْ كَانَتْ قَدْ الْحَقَّتْ الْأَذَى بِنَفْسِهَا ، وَتَحْتَاجُ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ ، كَمَا أَنَّ الطَّبِيبَ قَدْ جَاءَ أَيْضًا بَعْدَ ذَلِكَ . »

لَمْ يَسْتَطِعْ سَتِيفِنَ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ إِلَى وَجْهِ رَاشِيلَ الَّتِي قَالَتْ : « لَقَدْ سَارَعْتُ إِلَى مُسَاعَدَتِهَا . فَقَدْ كُنَّا نَعْمَلُ مَعًا عِنْدَمَا كُنَّا صِغَارًا ، كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَتِي قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا يَا سَتِيفِنَ ، وَأَعْرِفُ أَنَّكَ أَرْقُ مِنْ أَنْ تُدْعَاهَا تَمُوتَ أَوْ تَنَالِمَ . »

قال ستيفن : « آه يا راشيل ! يا راشيل ! »

كانت راشيل قد نقلت المِصْطَدَّة مِنْ مَكَانِهَا ، وَوَضَعَتْهَا إِلَى جِوَارِ السَّرِيرِ .
وَكَانَتْ فَوْقَ الْمِصْطَدَّةِ رُجَاجَتَانِ كُبَيْتٌ عَلَى إِحْدَاهُمَا بِالْجَبْرِ الْأَحْمَرِ كَلِمَةُ
« سَم » ؛ وَمَا إِنْ وَقَعَ بَصَرُ سَتِيفِنَ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى شَحَبَ لَوْنُهُ . وَلَكِنَّ
راشيل سَكَتَتْ بَعْضًا مِنْ مُخْتَوِيَاتِ تِلْكَ الرُّجَاجَةِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَاشِ ، ثُمَّ
مَسَحَتْ بِهَا عَلَى رَقَبَةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ حَيْثُ يَوْجَدُ اثَرُ الْإِخْدَشِ أَوْ الْجُرْحِ ، وَهِيَ
تَقُولُ : « يَجِبُ أَنْ أُكْرِّرَ هَذَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي الْثَالِثَةِ صَبَاحًا ؛ لِذَا سَأُظَلُّ سَاهِرَةً إِلَى
جِوَارِهَا حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ . »

قال لها ستيفن : « وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَرِيحِي يَا راشيل ؛ إِذْ عَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبِي
إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّبَاحِ . »

قَالَتْ : « فَلْتَسْتَرِيحِ أَنْتِ . أَمَّا أَنَا فَقَدْ نِمْتُ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ اللَّيْلَةَ الْأَمْضِيَّةَ ، عَلَى
حِينَ تَبْدُو أَنْتِ مُتَعَبًا . حَاولِ أَنْ تَنَامِ عَلَى هَذَا الْكُرْسِيِّ ، وَسَأَتَوَلَّى أَنَا مُلَاحَظَتَهَا ،
فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ يَا سَتِيفِنَ ، كَمَا أَنَّهَا تَهْدِي عِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ ، وَلَكِنَّ
الطَّبِيبَ يَقُولُ إِنَّ حَالَتَهَا سَوْفَ تَتَحَسَّنُ فِي الْعَدِ . »

وَقَعَتْ عَيْنَا سَتِيفِنَ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى كَلِمَةِ « سَم » فَأَرْتَعَدَ جَسَدُهُ بِعُتْفٍ ، وَهَبَّتْ
راشيل وَاقِفَةً فَقَالَ لَهَا : « لَا يَا راشيل ، اجْلِسِي بِجِوَارِ السَّرِيرِ حَيْثُ رَأَيْتُكَ عِنْدَ
دُخُولِي . لَقَدْ كُنْتُ أَجْمَلُ مِنْ أَيِّ مَرَّةٍ رَأَيْتُكَ فِيهَا . »

أَمْضَى سَتِيفِنَ لَيْلَةً مَرْعِيَةً ؛ إِذْ أَتَانَتْهُ أَحْلَامٌ مَرْعِجَةٌ وَقَاسِيَةٌ بَعْدَ أَنْ رَاحَ فِي
النُّومِ . فَقَدْ بَدَتْ لَهُ كَلِمَةُ « سَم » وَكَأَنَّهَا كُبَيْتٌ بِأَخْرُوفٍ مِنْ نَارٍ ، كَمَا حَمَلَتْهُ



أُحْلَامُهُ إِلَى عَالَمِ الْمُسْتَقْبَلِ . وَبَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَنْحُتُ عَنْ رَاشِيلَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرَى وَجْهَهَا أَوْ يَسْمَعَ صَوْتَهَا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ تِلْكَ الْأَخْرُفِ النَّارِيَّةِ الَّتِي كَبَيْتَ بِهَا تِلْكَ الْكَلِمَةَ الَّتِي لَازِمَتُهُ طَوَالَ الْوَقْتِ .

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ سَتِيفِنَ كَانَتْ رَاشِيلُ لَا تَرَأَى نَائِمَةً ، وَكَانَتْ رُجَاجَةٌ أَلْسَمُ فِي مَكَانِهَا فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ . وَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ فِي سَرِيرِهَا ، ثُمَّ جَلَسَتْ وَغَيَاهَا تَجُولَانِ فِي أُنْحَاءِ الْعُرْفَةِ دُونَ أَنْ تَسْتَقِرَّا عَلَى رَاشِيلَ ، وَلَكِنْ نَظَرَاتِهَا اسْتَقَرَّتْ فِي النَّهَائِيَةِ عَلَى الرَّكْنِ الْمَظْلَمِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ سَتِيفِنُ . وَأَذْرَكَ سَتِيفِنَ أَنَّ تِلْكَ الْعَيْنَيْنِ الْغَاضِبَتَيْنِ لَمْ تَقْعَا عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا تَبْحَثَانِ عَنْهُ ، وَكَأَنَّ الْمَرْأَةَ تَعْرِفُ أَنَّهُ مُوجُودٌ بِالْعُرْفَةِ . وَلَمْ يَجِدْ فِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ شَيْئًا يُدْكِرُهُ بِالْمَاضِي ، فَالْفَتَاةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَهَا لَيْسَ لَهَا ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمُرْعَبُ ، وَكَأَنَّ مَا يَرَاهُ شَيْءٌ أَشْبَهَ بِخَيَوَانٍ يَجْلِسُ فِي السَّرِيرِ .

وَمَا إِنْ لَاحَظَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الرَّجَاجَتَيْنِ الْمَوْضُوعَتَيْنِ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ حَتَّى مَدَّتْ يَدَهَا بَنَهُمَا . وَلَكِنْ سَتِيفِنَ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا عِنْدَمَا شَاهَدَهَا تُسَبِّكُ بِرُجَاجَةِ أَلْسَمِ وَتَفْتَحُهَا بِأَسْنَانِهَا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَهَلْ كَانَ مَا يَرَاهُ حُلْمًا أَمْ حَقِيقَةً ؟ وَلَكِنَّهُ صَاحَ أَخِيرًا : « اسْتَيْقِظِي يَا رَاشِيلُ ! اسْتَيْقِظِي ! وَلَا مَائَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ! »

كَانَتْ الْمَرْأَةُ قَدْ رَفَعَتْ الرَّجَاجَةَ يَظْطَعُ إِلَى فَمِهَا ، وَمِنْ أَحَدِ بَعْدِ ذَلِكَ سَيُمْكِنُهُ مُسَاعَدَتُهَا . وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ أَطْلَقَتْ رَاشِيلُ صَرْخَةً وَهِيَ تَنْدَفِعُ إِلَى سَرِيرِهَا . وَقَاوَمَتْهَا الْمَرْأَةُ وَشَدَّتْ شَعْرَهَا ، وَلَكِنْ رَاشِيلُ انْتَزَعَتْ مِنْهَا الرَّجَاجَةَ .

إِنْدَفَعَ سَتِيفِنَ إِلَى السَّرِيرِ قَائِلًا : « مَاذَا يَخْذُلُ يَا رَاشِيلُ ؟ أَلَحُلْمُ هَذَا أَمْ



حقيقة ؟ »

أجابته راشيل : « إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ الْآنَ يَا سَتِيفِن . لَا بُدَّ أُنِّي اسْتَعْرِفْتُ فِي النَّوْمِ . »

عِنْدَمَا رَأَى سَتِيفِن وَجْهَ رَاشِيلِ الشَّاحِبِ وَشَعْرَهَا الْمُتَتَفِّشَ ، وَمَا تَرَكَتُهُ أَظَافِرُ الْمَرْأَةِ مِنْ خُدُوشٍ عَلَى وَجْهِهَا ؛ أَذْرَكَ عِنْدِيذٍ أَنَّ مَا حَدَثَ كَانَ حَقِيقَةً وَلَيْسَ خُلْمًا .

عَادَتْ رَاشِيلُ تَصُبُّ السُّمَّ عَلَى قِطْعَةِ الْقِمَاشِ لِتَمْسَحَ بِهِ عَلَى رَقَبَةِ الْمَرْأَةِ قَائِلَةً : « لَقَدْ بَلَغَتِ السَّاعَةُ الثَّلَاثَةَ ، وَكَمْ أَنَا سَعِيدَةٌ أُنِّي ظَلَلْتُ سَاهِرَةً إِلَى جَوَارِهَا . إِنَّهَا هَادِنَةٌ الْآنَ ، كَمَا أُنِّي قَدْ انْتَهَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَنْ نَحْتَاجَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَبَقِيَ بِهِذِهِ الزَّجَاجَةُ . »

ثُمَّ تَوَجَّهَتْ لِحَوْ الْمِدْفَأَةِ وَأَفْرَعَتْ عَلَى الرَّمَادِ مَا تَبَقِيَ بِالزَّجَاجَةِ مِنْ سُمٍّ وَقَالَتْ : « سَوْفَ أَنْصَرِفُ الْآنَ وَأَعُودُ إِلَى مَنْزِلِي يَا سَتِيفِن . »

فَقَالَ لَهَا : « سَوْفَ أُرَاقِلُكَ يَا رَاشِيلَ . لَا أُرِيدُ أَنْ تَخْرُجِي بِمُفَرِّدِكَ . »

قَالَتْ : « لَا ! يَجِبُ أَنْ تَبْقَى مَعَهَا ، فَلَا خَوْفَ عَلَيَّ . »

سَأَلَهَا : « أَلَا تَخَافِينَ أَنْ تُتْرَكَيْنِي وَخُذِي مَعَهَا ؟ »

أَجَابَتْ : « نَعَمْ يَا سَتِيفِن . »

قَالَ : « إِنَّكَ تُحَوِّلِينِي مِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ . كَمْ أُوَدُّ أَنْ أَشَبَّهَ بِكَ أَكْثَرَ

وَأَكْثَرَ . لَقَدْ أَتَقَذَّبْتَنِي يَا رَاشِيلَ ، وَقَدْ تَسَاءَلْتُ عِنْدَمَا رَأَيْتُ زُجَاجَةَ السُّمِّ : ' مَاذَا عَسَايَ أَنْ أَفْعَلَ لِنَفْسِي أَوْ لَهَا ؟ ' ... »

وَضَعَتْ رَاشِيلُ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ لِتَوَقِّفَ كَلِمَاتِهِ ، لَكِنَّهُ تَنَاوَلَ يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ قَائِلًا : « لَقَدْ رَأَيْتُكَ بِجَوَارِ فِرَاشِهَا ، وَسَأَتَّخِذُكَ دَائِمًا يَا رَاشِيلَ بِجَوَارِ فِرَاشِهَا ، وَسَأَتَّخِذُكَ دَائِمًا بِجَوَارِي . »

وَسَارَ مَعَهَا إِلَى الشَّارِعِ ، وَالْقَتْ عَلَيْهِ نَجِيَّةَ الْمَسَاءِ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ . وَكَانَ الْمَطَرُ قَدْ تَوَقَّفَ وَبَذَتْ النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ رَاشِيلَ هِيَ ضَوْءُ النُّجُومِ الَّذِي يُبِيرُ خِيَاثَهُ .

رَدَّتْ قَائِلَةً : « هَذَا صَحِيحٌ يَا سَيِّدِي ، رَغِمَ أَنْتِي بَذَلْتُ قُصَارَى جُهْدِي كُلِّي
أَتَعْلَمُ . »

قَالَ : « نَعَمْ يَا آيِسَةُ جُوب . لَقَدْ كُنْتُ أُرَاقِبُكَ عَنْ كَتَبٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّكَ
حَاولَتِ جَاهِدَهُ ، وَلَكِنَّ الْمَشْكِلةَ أَنَّكَ بَدَأْتَ مُتَأَخِّرَةً ؛ كَمَا أَنَّ حَيَاتِكَ أَلَوَى لَمْ
تَكُنْ حَيَاةً مُوَفَّقَةً . »

أَجَابَتْهُ سِيَّسِي وَالذَّمُوعُ تَمَلُّاً عَيْنِهَا : « إِنِّي آسِيفَةٌ يَا سَيِّدِي . »
رَدَّ قَائِلًا : « لَا تَبْكِي يَا آيِسَةُ جُوب ، لَا تَبْكِي . إِنِّي لَا أَشْكُو مِنْكَ ، قَائِلَتِ
فَتَاةً رَقِيقَةً طَيِّبَةً وَمُحِبَّةً ، وَفِي هَذَا مَا يَكْفِي . »

إِنْخَسَتْ سِيَّسِي قَائِلَةً : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي شُكْرًا جَزِيلًا . »

قَالَ : « لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا عَوْنًا لِلْسَيِّدَةِ غِرَازْغَرَايْنِد ، بَلْ وَأَيْضًا لِلْآيِسَةِ لُويزَا ،
حَسْبَمَا أَعْتَقِدُ ، وَأَمَلُ أَنْ تَكُونِي سَعِيدَةً هُنَا . »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَقْبَلَتْ لُويزَا إِلَى غُرْفَةِ الدَّرَاسَةِ ، فَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهَا وَالِدُهَا ، وَأَمْسَكَ
بِيَدِهَا قَائِلًا : « يَبْدُو يَا غَرِيزَتِي أَنَّكَ قَدْ ائْتَمَعَلْتَ عَنْكَ حَتَّى كَبُرَتْ وَأَصْبَحْتَ شَائِئَةً
نَاضِجَةً ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

كَانَ رَدُّ لُويزَا نَظْرَةً سَرِيعَةً تَفَحَّصَتْ بِهَا وَجْهَ وَالِدِهَا ، ثُمَّ أَطْرَقَتْ قَائِلَةً : « بَلَى
يَا أَبِي . »

قَالَ لَهَا : « نَجِبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ حَدِيثًا جَادًا يَا غَرِيزَتِي . هَلْ لَكَ أَنْ

الفصل الثامن

إِذَا كَانَتْ الْأُنْوَالُ فِي مَصْنَعِ بَاوْنِدِرْتِي قَادِرَةً عَلَى أَنْ تُنْسِجَ الْحَامَاتِ لِتَصْنَعَ مِنْهَا
أَشْيَاءَ جَدِيدَةً . فَالزَّمَنْ أَقْدَرُ مِنْ تِلْكَ الْأُنْوَالِ وَأَقْوَى ، فَهُوَ يُنْسِجُ خِيوطَ الْحَيَاةِ ،
وَيَصْنَعُ مِنْهَا مُسْتَقْبَلِ النَّاسِ . فَفِي خِلَالِ عَامَيْنِ جَعَلَ الزَّمَنْ مِنْ لُويزَا شَائِئَةً مُكْتَمِلَةً
الْأُنْوَانَةِ . وَجَعَلَ مِنَ الصَّغِيرِ ثُومَاسِ كَاتِبًا فِي بَنْكِ بَاوْنِدِرْتِي ، وَضَيْفًا فِي مَنْزِلِهِ أَيْضًا .
وَقَدْ تَكُونُ حَيَاةُ كَاتِبِ الْبَنْكِ قَاسِيَةً ، وَلَكِنْ كَانَ لَدَى ثُومَاسِ وَقْتُ كَافٍ لِيَسْلِيَ
نَفْسَهُ بَعِيدًا عَنِ الْمَنْزِلِ .

أَمَّا سِيَّسِي جُوبُ الْحَامَةِ الطَّيِّبَةِ ، فَقَدْ صَاغَتْ مِنْهَا يَدُ الزَّمَنِ فَتَاةً رَائِعَةً الْجَمَالِ ،
وَلَكِنْ لِلْأَسَفِ لَمْ تُغَيَّرْ مِنْ عَقْلِيَّتِهَا أَوْ أُسْلُوبِهَا فِي التَّفْكِيرِ . وَقَدْ أُخْزِنَ هَذَا السَّيِّدُ
غِرَازْغَرَايْنِد ، وَلَكِنَّ حُبَّهُ لَهَا كَانَ أَكْبَرَ مِنْ غَضَبِهِ مِنْهَا . وَخِلَالِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَ
السَّيِّدُ غِرَازْغَرَايْنِدُ قَدْ أَصْبَحَ عُضْوًا فِي الْبَرْلَمَانِ عَنْ كُوكُوتَاوَن . وَكَانَ يُسْعِدُهُ دَائِمًا
أَنْ يُطَلِّقَ عَلَى نَفْسِهِ اسْمَ « عُضْوٍ عَنِ الْحَقَائِقِ » .

ذَاتَ يَوْمٍ قَالَ لِسِيَّسِي : « لَمْ تُعِدِ الْمَدْرَسَةُ ذَاتَ فَائِدَةٍ لَكَ يَا آيِسَةُ جُوب ،
وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَتْرَكِيهَا . »

أَجَابَتْهُ سِيَّسِي : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، وَيُؤَسِّفُنِي هَذَا . »

قَالَ : « إِنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمِي فِي الْمَدْرَسَةِ سِوَى قَدْرِ مُخَدَّودٍ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَالْأَرْقَامِ . »



ردّ نوم : « إنني أفكر فيك دائما يا لو . إننا قد نظل معا لفترة ، بل وقد تبقى معا على الدوام . أليس كذلك ؟ كما أنك إن وافقت الوالد فيما سيقلبه لك فإنك بهذا ستساعديني مساعدة كبيرة ، بل قد أجد نفسي من استعداد شباب كوناون حقا . »

لكن لويزا كانت ترحل إلى نيران المدفأة دون أن تكشف ملامح وجهها شيئا عما يدور في سريرتها . ولم يستطع أخوها أن يستشف شيئا من تلك الملامح ، ولكنه جذبها إليه أكثر فأكثر في حنان زائد وقيل وجنتها ، فقبلته بدورها وهي لا تزال تشخص ببنصرها إلى نيران المدفأة .

واصل نوم حديثه قائلا : « لقد جئت لكي أخبرك بشيء ما ، ولا شك أنك

تحضري إلى مكتبي غدا صباحا عقب الإفطار ؟ سأجري محادثة مهمة مساء اليوم ، وعندما أعود ستكونين قد أخذت إلى النوم . »

وتمنى لها ليلة سعيدة بعد أن قبل وجنتها ، وبذلكه لويزا التحيّة .

بعد مرور ساعة تقريبا ، قديم نوم الصغير إلى ستون لودج ، وسرّ عندما وجد أخته وحدها في غرفة الدراسة . وما إن رآته لويزا حتى قالت : « يا عزيزي نوم ! إنك لم تأت هنا منذ زمن طويل . »

ردّ نوم : « نعم يا لو . إن أمورا عديدة تشغلني دائما في المساء ، كما أن باونديري العجوز عادة ما يكلفني بما يشغلني طوال اليوم . إنه رجل صعب في بغض الأحيان ، وعلى أن أذكره بك دائما . ولكن أخبريني يا لو هل ذكر لك أي شيئا اليوم أو بالأمس ؟ »

أجابته : « لا يا نوم ، ولكنه يريد أن يتحدث إلي صباح الغد . »

ردّ قائلا : « آه ، هذا ما أغنيه ! هل تعرفين أين سيكون الليلة ؟ »

أجابته : « لا أعرف . »

قال لها : « إذا سأخبرك أنا : إنه سيكون مع السيد باونديري ليتحدثا في البنك . ولكن هل تعرفين لم يتحدثان بالبنك ؟ سأخبرك أنا : سيتحدثان بالبنك حتى لا تسمع السيدة سباريت حديثهما . ثم وضع ذراعه حول شقيقته وجذبها إليه في حنان ، وسألها : « أنت تحبينني يا لو ، أليس كذلك ؟ »

أجابته أخته : « بطبيعة الحال يا نوم . ولكن لماذا لا تأتي لزيارتي ؟ »

قَدْ خَزَرَتْ آلَانُ مَا تَوَيْتُ أَنْ أَقُولَهُ . وَآلَانُ عَلَيَّ أَنْ أَنْصَرِفَ يَا لَوْ ، فَسَادْ هَبْ
الَّيْلَةَ إِلَى حَقْلٍ فِي صُحْبَةِ بَعْضِ الزَّمَلَاءِ مِنْ مُوظَّفِي الْبَنْكِ . وَلَكِنْ تَذَكَّرِي دَائِمًا
حُبِّكَ لِي .

قَالَتْ : « سَأَتَذَكَّرُ ذَلِكَ يَا تَوْم . »

قَالَ : « يَا لَكَ مِنْ فَتَاةٍ رَائِعَةٍ يَا لَوْ ! إِلَى الْلَقَاءِ . »

نَمَتَتْ لَهَا أُخْتُهُ فَضَاءٌ أُمِّيَّةٌ سَعِيدَةٌ وَهِيَ تُرْقِبُهُ يَخْرُجُ مُسْرِعًا ، ثُمَّ شَخِصَتْ
بِصَرِّهَا إِلَى نِيرَانِ الْمَدْفَأَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي خُجْرَةِ الدَّرَاسَةِ وَكَأَنَّهَا تَبَحُّثُ فِيهَا عَنْ شَيْءٍ
مَا . وَلَمَّا لَمْ تَجِدْهُ فِي تِلْكَ النَّيْرَانِ جَالَتْ بِبَصَرِهَا فِي السَّمَاءِ الَّتِي صَبَّغَتْهَا نِيرَانُ
الْمَصَابِعِ بِاللُّونِ الْأَخْمَرِ ، عَسَاهَا أَنْ تَجِدَ بِهَا ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي تَبَحُّثُ عَنْهُ .
لَقَدْ جَعَلَ مِنْهَا الزَّمَنُ فَتَاةً نَاضِجَةً . وَآلَانُ تَقْسَأُلُ : أَيُّ مُسْتَقْبَلٍ يَتَسَبَّحُ لَهَا الزَّمَنُ
حَيَوطُهُ ؟

حَمَلَتْ لَهَا صَبِيحَةُ الْيَوْمِ الْتَالِي إِجَابَةَ هَذَا التَّسْأُولِ ، عِنْدَمَا تَحَدَّثُ إِلَيْهَا وَالْمَدَّهَا
غَيْبَ الْإِفْطَارِ قَائِلًا : « كَمْ أَنَا سَعِيدٌ بِكَ يَا غَرِيزَتِي لُويزَا ، وَسَعِيدٌ بِتِلْكَ النَّتَائِجِ
الَّتِي حَقَّقْتَهَا بِتَعْلِيمِكَ . فَقَدْ أَفَادَتْكَ الْحَقَائِقُ كَثِيرًا ، إِذْ لَمْ أَسْمَحْ قَطُّ لِتِلْكَ التَّرَوَاتِ
الْغَيْبَةِ بِأَنْ تَجِدَ لَهَا مَكَانًا فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْخَيَالُ الْعَاطِلُ أَنْ يُحِلَّ
بِمِيزَانِ حَيَاتِكَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنِّي أُعْرِفُ أَنَّكَ سَتَتَّقِيقِينَ مَعِيَ فِيمَا سَأَقُولُهُ آلَانُ . »

وَأَنْتَظِرُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا تَغْلِيْقًا عَلَى مَا قَالَ ، وَلَكِنَّهَا لَزِمَتْ الصَّمْتَ ، فَاسْتَظَرَدَ
قَائِلًا : « لَقَدْ تَقَدَّمَ رَجُلٌ يَطْلُبُ الزَّوْاجَ بِكَ يَا غَرِيزَتِي . »

إِنْتَظَرَ هُنَيْهَةً أُخْرَى لِيَسْمَعَ رَدَّهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْطِقْ بِشَيْءٍ ، وَبَلَغَتْ بِهِ الدَّهْشَةَ

حَدًّا جَعَلَهُ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ بِرَقَّةٍ : « إِنَّهُ يَطْلُبُ الزَّوْاجَ بِكَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « إِنِّي أَسْمَعُكَ يَا أَبِي . إِنِّي مُصْغِيَةٌ إِلَيْكَ . »

أَجَابَهَا : « إِذَا قَوْلِي شَيْئًا . »

قَالَتْ : « لَيْسَ بَعْدَ يَا وَالِدِي ، فَلْتُخْبِرْنِي أَوَّلًا بِكُلِّ شَيْءٍ . »

إِنْتَابَ الرَّجُلُ إِخْسَاسَ بَعْدَمِ الْإِزْتِيَاكِ ؛ فَتَنَاولَ مِسْطَرَّةً مِنْ فَوْقِ مَكْتَبِهِ ،
وَحَمَلَهَا إِلَيْهَا قَائِلًا : « نَعَمْ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . فَهَنَّاكَ بَعْضُ الْحَقَائِقِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي يَجِبُ
أَنْ تُعْرِفَهَا . لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي سَعِيدًا أَيَّ سَعَادَةٍ وَهُوَ يَرَاكَ تَكْبِيرِينَ حَتَّى
صَبَرَتْ شَابَّةٌ نَاضِجَةٌ ، وَكَمْ تَمَنَّى دَائِمًا أَنْ يَتَقَدَّمَ يَوْمًا طَالِبًا أَنْ يَتَزَوَّجَكَ . وَيَعْتَقِدُ
آلَانُ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ قَدْ جَاءَ ؛ إِذَا فَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ تَقْبَلِي زَوْجًا لَكَ . هَذِهِ هِيَ الرِّسَالَةُ
الَّتِي أُحْمِلُهَا لَكَ . »

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى أَرْجَاءِ الْعُرْفَةِ لِغُفْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ ، ثُمَّ قَالَتْ لُويزَا بِهَدْوٍ :
« أَعْتَقِدُ يَا أَبِي أَنِّي أَحَبُّ السَّيِّدِ بَاوْنْدِرِي ؟ »

أَجَابَهَا وَقَدْ أَزْدَادَ شَعُورُهُ بَعْدَمِ الْإِزْتِيَاكِ : « لَا أَعْرِفُ يَا غَرِيزَتِي . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تُرِيدُنِي يَا أَبِي أَنْ أَحِبَّ السَّيِّدَ بَاوْنْدِرِي ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا يَا غَرِيزَتِي ، فَلَيْسَ هَذَا مَا أُرِيدُهُ بِوَجْهِ خَاصٍّ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ يُرِيدُ السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي أَنْ أُحِبَّهُ يَا أَبِي ؟ »

أَجَابَهَا : « فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، هَذَا سُؤَالٌ تَصْعُبُ الْإِجَابَةُ عَنْهُ يَا غَرِيزَتِي . »

سألته : « هل يصعب عليك أن تُجيب بنعم أو بلا يا أبي ؟ »

رد قائلا : « نعم . وماذا تعني كلمة « الحب » يا عزيزي ، فأنت والسيد باونديري من أولئك الذين يؤمنون بالحقائق وليس بالتزوات العارمة ؟ فالشباب وأغبياء الناس قد يتكلمون عن الحب ، ولكنني لا أستطيع أن أقرن ذلك بعرض السيد باونديري للزواج بك . »

سألته : « أي كلمة يمكنني إذا أن أستخدمها يا أبي بدلا من كلمة الحب ؟ »

أجابها : « الحقائق يا عزيزي ، أستخدمي كلمة الحقائق . لقد بلغت العشرين من عمرك تقريبا ، ولعل السيد باونديري في الخمسين من عمره ؛ ولكن ليس لهذا الفارق في السن أهمية تذكر . فأنت تساوينه في المكانة والثروة ، وعادة ما يكون الرجل أكبر سنا من المرأة عند الزواج . وتلك حقيقة نجدها سواء في إنجلترا أو في الهند أو الصين . »

ظلت لويزا على هدوئها وعادت تسأل والدها : « هل تعتقد يا أبي أنه يمكن للحقائق أن تقوم مقام الحب ؟ »

أجابها : « بالتأكيد يا عزيزي . فقد طلب السيد باونديري أن يتزوجك ، وهذه حقيقة من الحقائق . أما الحقيقة المهمة فهي إجابتي عن هذا السؤال بكل بساطة : هل تقبلينه زوجا لك ؟ »

كررت لويزا السؤال : « هل أقبله زوجا لي ؟ »

كانت الفتاة ترتعد ، وتمنت في تلك اللحظة لو أنها ألقت بنفسها بين ذراعي

أبيها وأخبرته بمكنون قلبها . ولكن ثوماس غراذرايند لم يلاحظ شيئا ؛ فقد كان هناك جدار مرتفع يفصل بين عقله وبين كافة المشاعر المعتادة ، ولهذا فقد مرّت تلك اللحظة مثلما مرّ ما قبلها من لحظات ، وضاعت عليها تلك الفرصة .

طال صمتها فعاد والدها يسألها : « فيم تفكرين يا عزيزي ؟ »

أجابت : « إن الحياة قصيرة يا أبي . »

قال : « ولكن الناس يعيشون الآن أطول مما كانوا يعيشون منذ خمسين عاما مضت . »

قالت : « إنني أفكر في حياتي أنا يا أبي . »

قال : « لا شك يا عزيزي أن الحياة ستطول بك شأنك في ذلك شأن معظم الناس . »

قالت : « إنني أود أن أصنع شيئا طيبا في حياتي ، وقد لا يعني هذا شيئا ؛ فالسيد باونديري يرغب في أن يتزوجني ، وأنا لا أحب السيد باونديري ، فإن فهم ذلك فسأقبله زوجا ، وعليه عندئذ أن يقبلني كما أنا ، وأرجو أن يبلغه ذلك يا أبي وبكل دقة . »

قال : « سوف أفعل ذلك ، وإنه لمن الصواب أن يكون الإنسان ذيقا . هل لديك أية رغبة تتعلق بموعد زواجك ؟ »

أجابته : « لا يا أبي ، إن هذا لا يهم كثيرا . »

رَمَقَهَا وَالِدُهَا بِنَظَرَةٍ حَادَّةٍ وَقَالَ : « لَعَلَّهُ يَنْبَغِي عَلَيَّ يَا لُويزَا أَنْ أَسْأَلَكَ سُؤَالَ
أَخِيرًا : هَلْ طَلَبَ شَابٌّ آخَرُ أَنْ يَتَزَوَّجَكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « مَنْ نَظَنُّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِلزَّوْاجِ بِي ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي اتَّفَقْتُ بِهِ
مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَيْنَ حَدَثَ هَذَا ؟ وَمَا هِيَ تَجَارِيهِ الْعَاطِفِيَّةُ ؟ »

قَالَ : « لَقَدْ كَانَ مِنْ وَاجِبِي أَنْ أَسْأَلَكَ هَذَا السُّؤَالَ يَا لُويزَا . »

قَالَتْ : « إِنِّي لَا عَهْدَ لِي بِمَا يُرَاوِدُ النِّسَاءَ مِنْ آمَالٍ أَوْ بِمَا يَشْعُرْنَ بِهِ مِنْ رَغَبَاتٍ
وَمِنْ غَوَاطِفٍ . »

قَالَ : « هَذَا صَحِيحٌ يَا عَزِيزَتِي ، وَإِنِّي لَسَعِيدٌ بِذَلِكَ . »

اسْتَطَرَدَّتْ لُويزَا قَائِلَةً : « كَثِيرًا مَا يُمَثِّلُ الْأَطْفَالُ دَوْرَ الْأَبِ وَالْأُمِّ عِنْدَمَا
يَلْعَبُونَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ دَرَّبْتَنِي جَيِّدًا حَتَّى لَمْ يَكُنْ لِي يَوْمًا قَلْبُ
طِفْلَةٍ . »

رَدَّ وَالِدُهَا : « هَذَا صَحِيحٌ يَا عَزِيزَتِي ، فَقَدْ كَانَ فِي تَعْلِيمِكَ دَائِمًا مَا أَسْعَدَنِي
سَعَادَةً كُبْرَى ، وَالْيَوْمَ هَازِلًا أُخْنِي ثِمَارَ ذَلِكَ ، فَالْسَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي رَجُلٌ عَظِيمٌ .
وَلَنَذْهَبَ الْآنَ لِتُخَيِّرِ وَالِدَتَكَ . »

كَانَتْ زَوْجَةُ السَّيِّدِ غَرَاذِغَرَايْنْد تَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ لُويزَا شَعَرَتْ بِالسَّعَادَةِ . وَكَانَتْ
سَيِّسِي فِي بَلَدِكَ الْأَثْنَاءِ تَجْلِسُ إِلَى جَوَارِ فِرَاشِ السَّيِّدَةِ الْمَرِيضَةِ ، تَقُومُ بِنُغْضِ
أَشْغَالِ الْإِبْرَةِ . وَنَظَرَتْ إِلَى لُويزَا نَظْرَةً حَزِينَةً ، وَلَكِنَّهَا نَظْرَةً مَلِيْقَةً بِمَشَاعِرِ الْحُبِّ
الَّتِي تُخَالِطُهَا أَحَاسِيسُ الشُّكِّ وَالشَّفَقَةِ . وَقَدْ أَذْرَكَتْ ذَلِكَ لُويزَا ، وَتَبَدَّلَتْ

مَشَاعِرُهَا مِنْذُ بَلَدِكَ اللَّحْظَةِ ، وَصَارَتْ صَامِتَةً جَامِدَةً مُتَكَبِّرَةً ، وَكَفَتْ عَنْ صِدَاقَتِهَا
لِسَيِّسِي ، حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَعُدْ تُبَادِلُهَا الْحَدِيثَ .

الفصل التاسع

كَانَ السَّيِّدُ بَاوُلْدَرْيَ يَخْشَى — إِلَى خَدِّ مَا — أَنْ يُخْبِرَ السَّيِّدَةَ سِبَارِسِتَ بِشَيْءٍ عَنْ نَيْتِهِ فِي الزَّوْاجِ ، وَكَانَ يَتَسَاءَلُ عَمَّا سَتَفْعَلُهُ : رَبِّمَا تَتْرُكُ الْبَيْتَ عَلَى الْفُورِ ، أَوْ لَا تُحَرِّكُ سَاكِنًا ، وَكَانَ يَتَعَقَّدُ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَتَحَطَّمَ قَلْبُهَا ، أَوْ تَقُومَ بِتَحْطِيمِ أَثَاثِ الْبَيْتِ .

قَالَ لَهَا : « يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِتَ ! لَقَدْ نَشَأْتُ فِي أَحْضَانِ التَّرَفِ وَالرَّفَاهِيَةِ ، كَمَا أَنَّكَ سَيِّدَةٌ عَظِيمَةٌ فَاضِلَةٌ وَحَكِيمَةٌ أَيْضًا . »

قَالَتْ : « يُسَعِدُنِي أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيُكَ يَا سَيِّدِي »

قَالَ : « وَالْآنَ يَا سَيِّدَتِي سَوْفَ أَتِيْرُ دَهْشَتَكَ : سَوْفَ أَتَزَوَّجُ ابْنَةَ تُوْمَاسِ غِرَادُغَرَايَنْدَ . »

قَالَتْ : « أَحَقًّا يَا سَيِّدِي ؟ أَتَمَنَّى لَكَ السَّعَادَةَ يَا سَيِّدُ بَاوُلْدَرْيَ . نَعَمْ ، أَتَمَنَّى لَكَ كُلَّ السَّعَادَةِ . » وَفِي كِبَرِيَاءٍ يُخَالِطُهَا إِحْسَاسٌ بِالْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ كَرَّرَتْ قَوْلَهَا : « أَتَمَنَّى لَكَ ، مِنْ كُلِّ قَلْبِي يَا سَيِّدِي ، دَوَامَ السَّعَادَةِ . »

رَدَّ قَائِلًا : « شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدَتِي ، وَهَذَا مَا أَتَمَنَّاهُ أَيْضًا . وَلَعَلَّكَ لَا تَرْغِبِينَ فِي الْبَقَاءِ مَعَنَا بَعْدَ زَوَاجِي ، وَلَكِنِّي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ أُرْحِبُ بِكَ هُنَا دَائِمًا . »

هَزَّتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ رَأْسَهَا ، وَقَالَتْ بِكِبَرِيَاءٍ : « لَنْ يُمَكِّنَنِي أَنْ أَقْبَى هُنَا يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ بَاوُلْدَرْيَ بِسُرْعَةٍ : « ثَمَّةَ شَقَّةٍ وَاسِعَةٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَا سَيِّدَتِي . إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ بِهَا فَسَتُضَيِّفِينَ — بِلَا شَكِّ — قِيَمَةً إِلَى الْبَيْتِ ، أَمَّا أَنَا فَسَأَدْفَعُ لَكَ الْمَبْلُغَ نَفْسَهُ ... »

قَاطَعَتْهُ قَائِلَةً : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلَا دَاعِيَ لِمُنَاقَشَةِ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ يَا سَيِّدِي ، فَالْأَمْرُ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا سِوَاهُ أَقَمْتُ هُنَا أَمْ بِالْبَيْتِ ، فَمَكَاتِنِي سَتَظِلُّ عَالِيَةً هُنَاكَ شَأْنُهَا شَأْنُ مَكَاتِنِي هُنَا . »

قَاطَعَهَا بَاوُلْدَرْيَ بِدَوْرِهِ قَائِلًا : « آه ، لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ يَا سَيِّدَتِي . لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرَحَ شَيْئًا أَقَلَّ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ سَيِّدَةُ لَهَا مِثْلُ أَصْلِكَ . فَأَنَا — بِطَبِيعَةِ الْحَالِ — رَجُلٌ مِنَ الشَّارِعِ ، أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَعْتَدْتَ حَيَاةَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ . »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، هَذَا صَحِيحٌ يَا سَيِّدِي . يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ رَفِيقٍ ! »

قَالَ : « إِنَّ تِلْكَ الشَّقَّةَ الَّتِي فَوْقَ الْبَيْتِ مُرِيخَةٌ لِلْعَايَةِ ، وَيُمْكِنُكَ يَا سَيِّدَتِي أَنْ تَسْتَعِينِي بِمَنْ يَنْظِفُهَا لَكَ . كَمَا أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا يَقُولِي جِرَاسَةَ الْبَيْتِ ، وَسَيَقُومُ بِحِرَاسَتِكَ أَيْضًا . »

قَالَتْ : « لَا تَقُلْ شَيْئًا آخَرَ يَا سَيِّدِي ، فَأَنَا أَقْبِلُ مَا عَرَضَتْهُ عَلَيَّ بِكُلِّ الشُّكْرِ وَالْإِثْمَانِ . » ثُمَّ أَضَافَتْ وَقَدْ غَلَبَتْهَا مَشَاعِرُ الْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ : « سَتَكُونُ الْآيِسَةُ غِرَادُغَرَايَنْدَ بِالنَّسَبَةِ لَكَ غَايَةَ أُمَانِيَّتِكَ ، وَكُلُّ مَا تَسْتَحِقُّ يَا سَيِّدِي . »

فَاجَابَهَا مُؤَيَّدًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ . أَمَلُ ذَلِكَ . »

حَرَصَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَبْدُو دَائِمًا مُهَذَّبَةً بِاللُّغَةِ الرَّقَّةِ عِنْدَمَا

تَحَدَّثُ إِلَى السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، الَّذِي سَيَتَزَوَّجُ الْفَتَاةَ الَّتِي يُرِيدُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا . وَلَكِنَّ
نَظْرَةَ الشَّفَقَةِ لَمْ تَفَارِقْ وَجْهَهَا ، تِلْكَ النَّظْرَةُ الَّتِي جَعَلَتْ وَجْهَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي
الْحُمْرَ وَتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ تَبْدُوَانِ سَاخِجَتَيْنِ وَتَتَصَبَّانِ عَرَفًا .

تَحَدَّدَ مَوْعِدُ الزَّوْاجِ ، وَذَابَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي عَلَى الْذَّهَابِ إِلَى سِتُون لُودْج
كُلِّ مَسَاءٍ . وَكَانَ فِي الْهَدَايَا الْقِيَمَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا إِلَى لُويزَا مَا قَامَ مَقَامَ الْحُبِّ .
وَصُنِعَتْ لَهَا أَفْخَرُ الْمَلَابِسِ وَالْأَحْذِيَّةِ . وَكَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَالسَّيِّدَةُ غَرَادْغَرَانْد
قَدْ اتَّفَقَا عَلَى مَا يُؤَوَّلُ إِلَى لُويزَا مِنْ مَالٍ ، كَمَا حُطِّطَا أَيْضًا لِلْعَرَسِ مِنْ كَافَّةِ
التَّوَاحِي ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمَسَائِلِ الْمَالِيَّةِ وَالْخَفَائِظِ .

إِنَّ النَّاسَ قَدْ يَحْتَلِفُونَ فِي إِحْسَاسِهِمْ بِزَمَنِ الْحُبِّ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَشْعُرُ بِالسَّاعَاتِ
تَمَرُّ سَرِيعَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُهَا أَوْقَاتًا بَطِيئَةً مُتَشَاوِلَةً . أَمَّا فِي سِتُون لُودْج فَالْيَوْمُ
أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً بِالتَّكْمَالِ ، وَكُلُّ سَاعَةٍ سِتُونَ دَقِيقَةً .

أَخِيرًا جَاءَ الْيَوْمُ الْعَظِيمُ ، فَقَدْ تَزَوَّجَ السَّيِّدُ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي كَرِيمَةً غَضُو
الْبِرْلَمَانِ السَّيِّدِ ثُومَاسِ غَرَادْغَرَانْد . وَبَعْدَ أَنْ تَمَّتْ مَرَامِسُ الزَّوْاجِ تَنَاوَلَ الضُّيُوفُ
طَعَامَ الْإِفْطَارِ فِي سِتُون لُودْج ، ثُمَّ أَلْقَى السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي كَلِمَةً قَالَ فِيهَا :

« أَيُّهَا السَّيِّدَاتُ وَالسَّادَةُ ، أَنَا جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي مِنْ كُوكْتَاوَن . وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ
لِي وَلِزَوْجَتِي أَنْ تُرْحَبَ بِكُمْ هُنَا . إِنَّكُمْ جَمِيعًا تَعْرِفُونَنِي جَيِّدًا ، وَتَعْرِفُونَ أَنَّنِي
قَدْ بَدَأْتُ حَيَاتِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَا تَتَوَقَّعُوا أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي كَلِمَاتٍ
جَمِيلَةً . فَصَدِيقِي وَصَهْرِي ثُومَاسِ غَرَادْغَرَانْد غَضُو فِي الْبِرْلَمَانِ ، وَهُوَ الرَّجُلُ
الَّذِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يُلْقِيَ خُطَابًا مُنَاسِبًا .

« إِنِّي أَشْعُرُ الْيَوْمَ بِالْفَخْرِ ؛ فَذَلِكَ الصَّبِيُّ الْقَدِيرُ الَّذِي جَاءَ مِنَ الشَّارِعِ قَدْ



تَزُوجَ ابْنَةِ ثوماس غراذغرايند . لَقَدْ كُنْتُ أَزُقُّكَ بَلَكَ السَّيِّدَةِ وَهِيَ كَبِيرٌ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهَا الْيَوْمَ تَسْتَجِئُ أَنْ أَكُونَ زَوْجًا لَهَا ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ سَتَتَّفِقُونَ مَعِيَ عَلَى أَنِّي جَدِيرٌ بِهَا . فَشَكَرْنَا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالسَّيِّدَاتُ لِتَمَنِّيَانِكُمُ الطَّيِّبَةَ لَنَا . إِنِّي أَرَى حَوْلَ الْمَائِدَةِ عَدَدًا مِنَ الضُّيُوفِ غَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ فَالْيَوْمَ تَمَنِّيَانِي : إِنِّي أَتَمَنَّى لِكُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَجِدَ زَوْجَةً مِثْلَ زَوْجَتِي ، كَمَا أَتَمَنَّى لِكُلِّ سَيِّدَةٍ أَنْ تَجِدَ زَوْجًا مِثْلِي . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ سَاعَةٍ كَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَزَوْجَتُهُ مُسْتَعِدَّيْنِ لِلسَّفَرِ لِقَضَاءِ شَهْرِ الْعَسَلِ فِي فَرْنَسَا . فَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي حَرِيصًا عَلَى زِيَارَةِ مَصَانِعِ الْأَقْمِيشَةِ الْقُطَيْبِيَّةِ فِي مَدِينَةِ « لِيُون » لِهَذَا قَصَّدها لِقَضَاءِ شَهْرِ الْعَسَلِ .

وَالْتَقَتْ لَوِيزَا بِأَخِيهَا عَلَى سَلَامٍ سَتُونَ لَوْذَجٍ فَقَالَ لَهَا : « أَنْتِ أَحْسَنُ أُخْتٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ يَا لُو ! »

فَأَحَاطَتْهُ أُخْتُهُ بِذِرَاعَيْهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الْكَلَامَ ، وَلَكِنْ تَوَمَّ اسْتَطْرَدَ قَائِلًا : « إِنَّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي مُسْتَعِدٌّ الْآنَ ، فَعَلَيْكَ بِالذَّهَابِ . مَعَ السَّلَامَةِ ! سَأَكُونُ فِي أَيْتَظَارِكُمَا عِنْدَمَا تَعُودَانِ . آه يَا لُو ! إِنِّي أَسْعُدُ شَبَابَ كُوكْتَاوَن ! أَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ جَمِيلَةً الْآنَ ؟ »

الفصل العاشر

كَانَ يَوْمًا حَارًّا فِي مَدِينَةِ كُوكْتَاوَن ، وَكَانَ كُلُّ أَمْرِي يُعْرِفُ أَنَّهُ فَصْلُ الصَّيْفِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْحَرَارَةُ بِسَبَبِ مَا يُلْقِيهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ ظِلَالٍ عَلَى الشُّوَارِعِ . فَالْكَأْسُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ لَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّهَا تَتَوَارَى عَادَةً خَلْفَ سُحُبِ الدُّخَانِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي تُغْلَفُ الْمَدِينَةَ . وَلَكِنْ الْكُلُّ يَعْرِفُ أَنَّهُ الصَّيْفُ ، فَالشَّهْرُ هُوَ شَهْرُ يُولْيُو ، وَمَصَانِعُ الْمَدِينَةِ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ .

لَقَدْ انْقَضَى عَامٌ عَلَى زَوَاجِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي بِلَوِيزَا ، وَطَوَالَ هَذَا الْوَقْتِ لَمْ تَكُنْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتْ عَنْ ذَلِكَ الْإِحْسَاسِ بِالشَّقَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحَسُّ بِهَا نَاجِيَةً السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي . وَكَانَتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ جَالِسَةً بِجِوَارِ نَافِذَتِهَا الْمُفَضَّلَةِ ، فَقَدْ كَانَ لِمَسْكِنِهَا نَافِذَتَانِ تُظِلَّانِ عَلَى الشُّارِعِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْبَنْكُ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى مِنْهُمَا كُلَّ مَا يَدُورُ فِي الْمَدِينَةِ . وَكَانَتْ كُلَّ صَبَاحٍ تُرَاقِبُ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي وَهُوَ يَغْبِرُ الشُّارِعَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَنْكِ ، وَتَرَاهُ فِي الْمَسَاءِ وَهُوَ يَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَكَانَتْ إِلَى جَانِبِ هَذَا تَرَى أَشْيَاءَ أُخْرَى كَثِيرَةً .

كَانَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتْ هِيَ الْمَلِكَةُ الْمُتَوَجِّعَةُ عَلَى الْبَنْكِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ؛ إِذْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا هُنَاكَ لِتُخْرَسَ مَكَاتِبُ الْبَنْكِ وَغُرَفَةُ الْخِزَانَةِ ذَاتِ الْجُدْرَانِ وَالْأَقْفَالِ الْحَدِيدِيَّةِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَحْوِي مُعْظَمَ أَمْوَالِ كُوكْتَاوَن . وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتْ — إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ — تَتَوَلَّى الْإِشْرَافَ عَلَى الْخَادِمَةِ الْعَجُوزِ الَّتِي تَقُومُ بِأَعْمَالِ النُّظَافَةِ وَالطَّهْيِ فِي الْبَيْتِ ، كَمَا كَانَتْ تَرَأْسُ ذَلِكَ الشَّبَابِ الَّذِي يَقُومُ بِحِرَاسَةِ الْبَنْكِ لَيْلًا ، وَالَّذِي كَانَ يَضَعُ سَرِيرَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَمَامَ الْغُرْفَةِ الْحَدِيدِيَّةِ .

في تلك الليلة شاهدت السيدة سبارسيت السيد باوندرني وهو يغادر البنك ،
وتبعه الموظفون بعد ذلك بعشر دقائق ، ثم أحضر الحارس الشاب إربيق الشاي
للملكة ، فقالت له : « شكراً لك يا بيتزر . »

قال : « شكراً لك أنت يا سيدي . »

كان الحارس الشاب ذا شعر فاتح اللون ، وبشرة بيضاء ، ولم يطرأ أي تغيير
على ملامح وجهه طوال السنوات الخمس الأخيرة من عمره . وكان يتمتع
بذاكرة قوية احتفظت بما تعلمه من حقائق وما رآه من وجوه . وكان لا يزال
يذكر الفتاة رقم عشرين .

سألت السيدة سبارسيت : « هل أغلقت كل الثوابذ والأبواب يا بيتزر . »
أجابها : « نعم يا سيدي . »

ولما كانت السيدة سبارسيت لا تستقبل كثيراً من الزوار فإنها كانت عادة
تسلي نفسها بالحديث مع بيتزر كل ليلة . وسألته وهي تصب الشاي :
« ما الأخبار اليوم يا بيتزر ؟ »

أجابها : « لا شيء جديد يا سيدي ، فالعمال في المصنع يثيرون المتاعب مرة
أخرى ، ولا أظن أن في هذا شيئاً جديداً ، أليس كذلك ؟ »

سألته : « وماذا يفعلون الآن يا بيتزر ؟ »

أجابها : « إنهم بالطبع يتحدثون ويتجادلون ، فهم يحاولون تكوين نقابة
عمالية لهم . »

قالت السيدة سبارسيت : « إن هذا أمر سيئ ، ولا بد أن يتصدى السيد
باوندرني وأصدقائه لهذا الغيب على الفور . لا بد من إخضاع العمال ، ولن
تكون ثمة نقابات عمال في كوتكاون . »

قال بيتزر : « أنت على حق تماماً يا سيدي . »

قالت : « أمل أيضاً أن يكون مسئلك موظفي البنك مسئلكا طيبا ، وأن يكونوا
جادين في أدائهم لعملهم . أليسوا كذلك يا بيتزر ؟ »

كان بيتزر يعمل أيضاً في البنك أثناء النهار . وكانت مهمته أن يجمع الأخبار
للسيد باوندرني ، فكان يستمع لما يدور بين عملاء البنك من أحاديث ، وكان
يستمع أيضاً لأحاديث الموظفين ، واستطاع من خلال هذا أن يعرف الكثير من
الأسرار التي كان ينقلها إلى السيد باوندرني . وكان بيتزر — على خلاف سيسي
جوب — قد عرف كافة الحقائق وألم بها من خلال ما تعلمه بالمدرسة . ولم
يكن يشغل نفسه بالأحاسيس المألوفة أو بالتعقيلات الوهمية ، بل كانت أفكاره
كلها دقيقة واضحة ، حتى إنه صار من أولئك الذين حظوا بإعجاب السيد
باوندرني والسيد غراذغرايند واعتزازهما .

صمت هنيهة قبل أن يجيب عن سؤال السيدة سبارسيت ثم قال : « بلى يا سيدي
إنهم ممتازون تماماً ، باستثناء السيد الذي تتكلم عنه عادة . »

قالت السيدة سبارسيت : « آه ! أتعصده ... »

رد بيتزر : « إنني أقصده غراذغرايند الصغير . فثمة بعض شكوك حوله . »

قالت : « أَلَمْ أَخْبِرْكَ مِنْ قَبْلُ يَا بِيْتَزْر أَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَكَ تَذَكُّرُ أَيْتِهْ أَسْمَاءِ ؟ »

قال : « بَلَى يَا سَيِّدِي ... إِنِّي آسِفٌ . »

قالت : « تَذَكَّرْ يَا بِيْتَزْر ، أَنَّنِي مُسْتَوْلَةٌ عَنِ الْبَيْتِ فِي اللَّيْلِ . لَقَدْ أَقَرَّ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرَنِي بِمَكَائِنِي وَمَكَائِنِ اسْتَرْقِي الْعَالِيَةِ ؛ لِذَا يَجِبُ أَنْ أَكُونَ صَادِقَةً مَعَهُ مُخْلِصَةً لَهُ ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ إِذَا مَا سَمَحْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَسْمَعَكَ تَرَدَّدَ أَمَامِي أَسْمَاءُ . فَإِنَّا لَا يَسْتَعْنِي أَنْ أَسْمَعَ أَسْمَاءَ شَاءَ الْحَظُّ الْعَائِرُ أَنْ يَرْتَبِطَ لِلْآسِفِ بِأَسْمِهِ ؛ لِهَذَا أَرْجُوكَ يَا بِيْتَزْر أَنْ تَسْتَعْدِمَ كَلِمَةَ الشَّخْصِ . »

إِتَّجَهَ بِيْتَزْر نَاجِيَةً الْتَافِذَةَ وَنَظَرَ مِنْهَا قَائِلًا : « حَسَنًا يَا سَيِّدِي إِنَّ هَذَا الشَّخْصَ الصَّغِيرَ لَا يَقْصِرُفُ كَمَا يَنْبَغِي ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ بِجِدٍّ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْذُ أَنْ قَدِمَ إِلَى هُنَا . وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مُسْرِفٌ كَسُولٌ ، وَيَفْرِطُ فِي الشَّرَابِ . وَلَوْلَا بَلَكُ الْعِلَاقَةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالسَّيِّدِ بَاوْنِدِرَنِي مَا اسْتَقْطَاعَ أَنْ يَفْعَلَ هُنَا قَطُّ . »

قالت السَّيِّدَةُ سِبَارِسِيْت : « آه ! آه ! »

قال : « أَتَمَنِّي يَا سَيِّدِي أَلَّا يُتَذَرَّ هَذَا الشَّخْصُ أُمُوالَ قَرِيْبِهِ . إِنَّ السَّيِّدَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الشَّخْصَ فِي خِدْمَتِهِ لَجَدِيرٌ بِعَطْفِنَا وَشَفَقَتِنَا . »

قالت : « أَجَلْ يَا بِيْتَزْر ، لَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ دَائِمًا عَلَيْهِ ، وَسَأُشْفَقُ عَلَيْهِ أَبَدًا . »

قال : « إِنَّ هَذَا الشَّخْصَ الصَّغِيرَ يَكَادُ يُعَيِّرُ لِقَوْدِهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ يَا سَيِّدِي . »

قالت : « كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِمِثْلِكَ يَا بِيْتَزْر . »

رَدَّ بِيْتَزْر مُسْرُورًا : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي . إِنَّنِي أَذْخِرُ بِأَلْفَعْلٍ مِنْ مُرْتَبِي ، أَمَّا هَذَا فَإِنَّهُ لَا يَذْخِرُ شَيْئًا . » وَابْتَعَدَ عَنِ الْتَافِذَةِ فَجَاءَهُ وَقَالَ : « سَيِّدِي إِنَّ هُنَاكَ سَيِّدًا يَقِفُ فِي الشَّارِعِ ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْتَافِذَةِ طَوَالَ ذَقِيقَةٍ أَوْ ذَقِيقَتَيْنِ ، وَهِيَ هُوَ ذَا قَادِمٍ لِحَوْ أَلْبَابِ . »

وَفِي اللَّحْظَةِ الْتَالِيَةِ سَجَعًا طَرَقًا عَلَى أَلْبَابِ ، فَتَسَاءَلَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِيْت : « ثَرَى مَنْ يَكُونُ هَذَا الشَّخْصُ ؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ عَنْ مَوَاعِيدِ الْعَمَلِ بِأَلْبَيْتِكَ ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِنْ الْأَوْفَقِ أَنْ أَقَابِلَهُ . فَكَلِّرْ يَا بِيْتَزْر مَنْ يَكُونُ ؟ »

بَعْدَ ذَقِيقَةٍ عَادَ بِيْتَزْر وَمَعَهُ الْزَّائِرُ ، وَقَالَ : « هَذَا السَّيِّدُ يَوَدُّ مُقَابَلَتَكَ يَا سَيِّدِي . »



وَدَخَلَ خَلْفَ بَيْتِ شَابٍّ أُتِيَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ اللَّامِبَالَةِ . وَحَكَمَتِ السَّيِّدَةُ
سَبَارِسِتَ عَلَى الْفَوْرِ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ مُهَذَّبٌ .

قَالَ الرَّجُلُ : « عَفُوا يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتِ السَّيِّدَةُ سَبَارِسِتَ فِي نَفْسِهَا : « رَجُلٌ فِي الْخَامِسَةِ وَالْثَلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ .
مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، جَمِيلُ الصُّورَةِ ، لَهُ أَسْنَانٌ قَوِيَّةٌ ، وَصَوْتٌ جَمِيلٌ ، وَعَيْنَانِ
جَسُورَتَانِ . » وَمَا لَيْتُ أَنْ قَالَتْ لَهُ : « تَفَضَّلْ بِالْجُلُوسِ يَا سَيِّدِي . »

شَكَرَهَا الرَّجُلُ ، وَلَمْ يَجْلِسْ وَإِنَّمَا اسْتَنَدَ إِلَى الْمَائِدَةِ قَائِلًا : « مَعْدِرَةٌ ! لَقَدْ
تَرَكْتُ خَادِمِي وَحَقَائِصِي فِي مَحَطَّةِ الْقِطَارِ ، وَلَكِنْ أَسْمَحِي لِي أَنْ أَسْأَلَكَ : إِنَّ
هَذِهِ الْمَدِينَةَ غَرِيبَةٌ ، فَهَلْ هِيَ مُعْتَمَةٌ دَائِمًا كَمَا أَرَاهَا آلَانَ ؟ »

أَجَابَتْهُ السَّيِّدَةُ سَبَارِسِتَ : « إِنَّهَا عَادَةٌ تَكُونُ أَشَدَّ عَتَمَةً . »

قَالَ الرَّجُلُ : « هَذَا مُسْتَحِيلٌ ! وَمَعْدِرَةٌ : هَلْ تُقِيمِينَ هُنَا دَائِمًا يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْ : « لَا يَا سَيِّدِي . وَلَكِنِّي أُقِيمُ هُنَا مِنْذُ وَفَاةِ زَوْجِي ، وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ
أَعِيشُ فِي ظُرُوفٍ مُخْتَلِفَةٍ ثَمَامًا . »

سَأَلَهَا : « أَلَمْ تَسْأَمِي هَذَا الْمَكَانَ ؟ »

أَجَابَتْ : « إِنَّ سُوءَ الطَّلَاعِ ، وَبَعْضَ وَقَائِعِ الْحَيَاةِ أَتَتْ لِي لِأَعِيشَ هُنَا ، وَلَكِنِّي
أَعْتَدْتُ ذَلِكَ . »

قَالَ بِغَيْرِ اكْتِرَافٍ : « لَعَلَّ مِنَ الْحِكْمَةِ ... »

فَقَاطَعَتْهُ قَائِلَةً : « وَلَكِنْ هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَكَ يَا سَيِّدِي لِمَ إِذَا أُرَدْتُ مُقَابَلَتِي ؟ »

أَجَابَ الرَّجُلُ : « بِالطَّبَعِ ، وَأَشْكُرُكَ لِتَذَكُّرِي . إِنِّي أَجْمَلُ خِطَابًا لِلْسَّيِّدِ
بِأُولَدِي يُقَدِّمُنِي لَهُ . وَعِنْدَمَا سَأَلْتُ أَحَدَ الْأَشْخَاصِ عَنْ مَكَانٍ إِقَامَتِهِ أَتَى بِي إِلَى
هُنَا . وَأَعْتَقَدُ أَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ أَلْبَنِيكَ لَمْ يُعْلَقِ أَبُوَابُهُ بَعْدُ . وَلَكِنْ يَدُو أَنَّ السَّيِّدَ
بِأُولَدِي لَا يُقِيمُ هُنَا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ السَّيِّدَةُ سَبَارِسِتَ : « أَجَلٌ يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ لَا يُقِيمُ هُنَا . »

قَالَ الرَّجُلُ ، وَقَدْ آرَثَكَ بِأَخَذِي قَدَمِيهِ عَلَى زَاوِيَةِ الْمُنْضَدَةِ : « شُكْرًا لَكَ .
لَنْ أَسْتَطِيعَ إِذَا أَنْ أَسْلَمَهُ هَذَا الْخِطَابُ اللَّيْلَةَ ، وَلَكِنِّي عَلَى الْأَقْلَى قَدْ عَرَفْتُ مَكَانَ
أَلْبَنِيكَ . لَا شَكَّ أَنَّكَ تُعْرِفِينَ أَيْنَ يُقِيمُ السَّيِّدُ بِأُولَدِي ، وَسَأَكُونُ سَعِيدًا نَوَ
أُرْسِدُنِي إِلَيْهِ . »

الْتَزَمَتِ السَّيِّدَةُ سَبَارِسِتَ الصَّمْتَ هُنَيْهَةً ، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ ، بَعْدَ أَنْ رَفَعَ قَدَمَهُ
عَنِ زَاوِيَةِ الْمُنْضَدَةِ : « لَا يَدُ أَنَّكَ تَتَسَاءَلِينَ عَمَّنْ أَكُونُ . » ثُمَّ أَخْرَجَ خِطَابًا مِنْ
جَيْبِهِ وَقَالَ : « إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ مُوجَّهٌ إِلَى السَّيِّدِ بِأُولَدِي ، وَمُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ
غِرَاذَغْرَايَنْدَ غُضُو الْبِرْلَمَانِ ، وَكُنْتُ قَدْ تَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ فِي لَنْدُن . »

فَاتَّجَهَتِ السَّيِّدَةُ سَبَارِسِتَ نَحْوَ التَّافِذَةِ ، وَأَشَارَتْ لِلزَّائِرِ إِلَى مَنْزِلِ بِأُولَدِي ،
فَقَالَ لَهَا : « شُكْرًا يَا سَيِّدَتِي . أَعْتَقَدُ أَنَّكَ تُعْرِفِينَ السَّيِّدَ بِأُولَدِي مَعْرِفَةً جَيِّدَةً . »

قَالَتْ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . إِنِّي أَعْرِفُهُ مِنْذُ عَشْرِ سِنَوَاتٍ . »

قَالَ لَهَا : « يَا لَهَا مِنْ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ . أَلَمْ يَتَزَوَّجِ ابْنَةُ غِرَاذَغْرَايَنْدَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « بَلَى . لَقَدْ نَالَ هَذَا الشَّرَفُ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ الرَّجُلُ : « لَقَدْ خَدَّنِي السَّيِّدُ غَرَاذِرَانِدَ عَنْ آيَتِي ، وَأُخْبِرَنِي أَنَّهَا تَمْنَعُ بِعَقْلِ رَاجِحٍ ، وَذَكِيَّةٍ جِدًّا ، وَفِطْنَةٍ : آوِ ، أَرَأَيْكَ تَقْسِمِينَ يَا سَيِّدَتِي ! أَلَا تُوَافِقِينَ عَلَى ذَلِكَ ؟ كَمْ عُمْرُهَا ؟ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ أَمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ »

ضَحِكَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ وَقَالَتْ : « إِنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى طِفْلَةٍ ! وَلَمْ تُكُنْ قَدْ بَلَغَتْ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا عِنْدَمَا تَزَوَّجَتْ . »

قَالَ الرَّجُلُ : « كَمْ يَدْهَشُنِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا . لَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنَّ التَّقِيَّ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ بَاوُنْدَرِي بِسَيِّدَةٍ حَكِيمَةٍ كَثِيرَةٍ فِي السَّنِّ ، فَشَكَرْنَا لَكَ لِتَصْحِيحِ مَعْلُومَاتِي ، وَشَكَرْنَا لِمُسَاعَدَتِكَ . وَالآنَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ . طَابَتْ لَيْلَتُكَ يَا سَيِّدَتِي . »

عِنْدَمَا غَادَرَ الرَّجُلُ آلَيْتِ اتَّجَهَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ نَحْوَ النَّافِذَةِ لِتَرَاهُ وَهُوَ يَسِيرُ فِي خُطُوبَاتٍ مُتَشَاوِلَةٍ .

وَبَعْدَ هُنَيْئَةٍ أَقْبَلَ بِيَتَزَرُ لِيَأْخُذَ أَكْوَابَ الشَّايِ الْفَارِغَةَ ، وَقَالَ لِلْسَّيِّدَةِ سِبَارِسِتَ : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُتَّفَقُ الْكَثِيرَ عَلَى مَلَابِسِهِ يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ : « إِنَّ مَلَابِسَهُ غَايَةٌ فِي الْأَنَاقَةِ يَا بِيَتَزَرُ . »

قَالَ بِيَتَزَرُ : « وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ مَا يُتَّفَقُ عَلَيْهَا مِنْ ثَقُودٍ . يَبْدُو أَنَّ هَذَا السَّيِّدَ لَا يَكْبُدُ فِي سَبِيلِ كَسْبِ الثَّقُودِ . »

ظَلَّتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ جَالِسَةً بِجَوَارِ النَّافِذَةِ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ دُونَ أَنْ تُضَيَّءَ مِصْبَاحُ غُرْفَتِهَا حَتَّى بَعْدَ أَنْ أَظْلَمَتِ الْعُرْفَةُ . وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ أَصْطَبَتْ

بِالْلُّونِ الْأَحْمَرِ بِسَبَبِ السَّيِّدَةِ اللَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ تُتَصَاعَدُ مِنْ مَصَانِعِ كُوكُتَاوَنَ .
وَأَخِيرًا قَامَتْ لِتَنَامَ ، وَقَالَتْ : « يَا لَكَ مِنْ أُحْمَقٍ ! »

مَنْ كَانَ ذَلِكَ الْأُحْمَقُ ؟ ذَلِكَ مَا لَمْ تُفْصِحْ عَنْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ .

يا ثوم ، فعليك بمقابلة أخي جيم ، ففي مقدوره أن يعد خطباً رائعة ، ولذته طريقة
ممتازة في التعامل . »

الفصل الحادي عشر

كان زائر السيد سباريت يدعى جيمس هارثاوس ، ويطلق عليه أصدقاؤه
اسم جيم . وكان الأخ الأصغر لأحد أعضاء البرلمان ممن يحظون بإعجاب السيد
غراذغرايند .

وقد عمل جيم هارثاوس ضابطاً في الجيش لفترة من الزمن ، ولكنه اعتزل
الخدمة بسبب الأغواء الثقيلة التي أثعبته . وعمل في خدمة الحكومة البريطانية
خارج البلاد ، ولكنه وجد العمل في البلدان الأجنبية شاقاً ومرهقاً ، فعاد إلى
إنجلترا . ورحل بعد ذلك إلى الشرق ، ولكن حرارة البلاد جعلته يعود إلى وطنه
حيث مارس العديد من الأعمال لكنه لم يرض عن أي منها .

ذات يوم قال له أخوه عضو البرلمان : « إن جماعة الحقائق المجردة تبحث
عن كل رجل مناسب للعمل معهم ، فلماذا لا تعمل في ميدان الحقائق يا جيم . »
أجاب جيم موافقاً : « إنها فكرة طيبة ، وخصوصاً أنه ليس أمامي في الوقت
الحالي ما هو أفضل منها . »

وأعازة أخوه كتاباً أو كتابين بهدف تأهيله للعمل في ميدان الحقائق ، وبعد
أسبوع شعر بأنه قد اكتسب قدرًا كافيًا من المهارة والقدره على فهم الحقائق
بما يؤهله لهذا العمل الذي عزم على القيام به . وعندما قابل أخوه السيد
غراذغرايند في البرلمان قال له : « إذا كنت في حاجة إلى رجل ملهم بالحقائق

ووصل هارثاوس بعد ذلك إلى مدينة كوكتاون حيث نزل بأحد فنادقها والتقى
بالسيد سباريت . وفي صباح اليوم التالي لوصوله أرسل خادمه إلى منزل
باونديري حاملاً رسالة غراذغرايند التي جاء فيها :

« إلى جوشيا باونديري بمدينة كوكتاون : رسالة من توماس غراذغرايند
بخصوص تقديم جيمس هارثاوس . »

وبعد أن تسلم السيد باونديري الرسالة بساعة واحدة ، جاء بنفسه إلى الفندق .
وكان جيم في ذلك الوقت يطل من نافذة العرفة التي كان يتناول فيها إفطاره ،
وقد بدت عليه أمارات الحزن ؛ إذ لم يكن يعتقد أن العمل في ميدان الحقائق
سيستتويه أو يثير اهتمامه خصوصاً في مدينة مثل كوكتاون ، حتى إنه كاد
يتراجع عن الالتحاق بهذا العمل ، وأن يبحث لنفسه عن عمل آخر . ولكن في
تلك اللحظة وصل أحد عمال الفندق وبصحبه السيد باونديري الذي قدم نفسه
قائلاً : « اسمي جوشيا باونديري من مدينة كوكتاون يا سيدي . »

أجاب جيم : « يسعدني لقائك . » ولكن مظهره لم يدل مطلقاً على أنه كان
سعيداً بهذا اللقاء .

استطرد باونديري قائلاً : « حسناً يا سيدي ! اعتقد أنك وجدت كوكتاون
مكاناً غريباً ؛ ولهذا فإنني سأحكي لك عنها ، سواء استمعت لما أقول أم لم
تستمع . »

قال جيم : « أَرْجُو أَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْهَا . »

قال باونديزي : « إِنَّ مَدِينَتَنَا لَا تُعْجِبُ مَنْ يَأْتِي إِلَيْهَا مِنْ أَهَالِي لَنْدَن . فَهُمْ يَجِدُونَهَا مَدِينَةً مُظْلِمَةً يَمْلَأُهَا الدُّخَانُ . وَلَكِنْ هَذَا الدُّخَانُ يَا سَيِّدَ هَارْتِهَاؤُس هُوَ طَعَامُنَا وَشَرَابُنَا ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ بِالصَّحَّةِ أَبَدًا ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ فَائِدَةً لِأَجْسَامِنَا ؛ لِذَا فَإِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُ ، بَلْ إِنَّا نَوَدُّ أَنْ نَحْفَظَ بِهِ . »

وَلَمَّا كَانَ هَارْتِهَاؤُس قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَمْضِيَ قُدَمًا فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ مَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ ، وَأَنَا أُوَفِّقُكَ عَلَى ذَلِكَ تَمَامًا يَا سَيِّدَ باونديزي . »

قال باونديزي : « يُسْعِدُنِي أَنَّكَ تُوَفِّقُنِي عَلَى هَذَا الرَّأْيِ . وَالْآنَ إِلَيْكَ بَعْضُ الْحَقَائِقِ الْآخَرَى . إِنَّ مَجَالَنَا هُوَ صِنَاعَةُ النَّسِيجِ ، وَهِيَ أَفْضَلُ وَأَسْهَلُ عَمَلٍ فِي الْعَالَمِ . كَمَا أَنَّ الْعَمَالِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ يَتَقَاضُونَ أَجُورًا أَعْلَى مِمَّا يَتَقَاضَاهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْعَمَالِ ، وَلَا يَبْقَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُضِيفَهُ إِلَى مَصَانِعِنَا يَهْدِفُ تَحْسِينَهَا سِوَى أَنْ نَقْرِشَهَا بِالسَّجَاحِيدِ الْهِنْدِيَّةِ ، وَلَكِنْ هَذَا مَا لَنْ نَفْعَلَهُ . »

قال هَارْتِهَاؤُس : « أَنْتَ مُجِتٌّ فِي كَلَامِكَ تَمَامًا يَا سَيِّدَ باونديزي . »

قال باونديزي : « وَلَكِنَّ النَّاسَ هُنَا لَا يَرْضَوْنَ بِشَيْءٍ ؛ فَهُمْ يَطْمَعُونَ فِي أَنْ يَتَنَاوَلُوا أَفْضَلَ اللَّحُومِ الْحَمْرَاءِ يَوْمِيًا ، بَلْ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَأْكُلُوا اللَّحْمَ بِمَلَاعِقٍ مِنْ ذَهَبٍ ؛ وَلِهَذَا تَرَاهُمْ أَلَيَوْمَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أُمُورٍ غَرِيبَةٍ كَالْتِقَابَاتِ الْعُمَالِيَّةِ . فَهَلْ سَمِعْتَ مِثْلَ هَذَا أَلَلُّوْا مِنْ قَبْلِ . »

أَجَابَهُ هَارْتِهَاؤُس : « أَعْتَقِدُ أَنَّ مَا تَقُولُهُ هُوَ عَيْنُ الصَّوَابِ يَا سَيِّدَ باونديزي . »

قال السَّيِّدُ باونديزي : « إِنِّي عِنْدَمَا أَتَعَامَلُ مَعَ أَيِّ شَخْصٍ أَوَدُّ دَائِمًا أَنْ أَفْهَمَهُ جَيِّدًا ، كَمَا أَوَدُّ أَنْ يَفْهَمَنِي بِدَوْرِهِ جَيِّدًا . وَلِهَذَا فَقَدْ قُلْتُ لَكَ كُلَّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، كَمَا أَنَّنِي مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى سَأَسَاعِدُكَ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِي ، وَتَمَّةً شَيْءٍ آخَرَ أَوَدُّ أَنْ أَضِيفَهُ لِمَا قُلْتُ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ أَيْضًا : فَأَنْتَ يَا سَيِّدِي تَنْتَسِي إِلَى عَائِلَةٍ لَهَا شَأْنُهَا ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ سِوَى بَعْضٍ مِنْ قَدَارَةِ الطَّرِيقِ ، تِلْكَ الْقَدَارَةُ الَّتِي أُغْرِفُهَا جَيِّدًا ؛ إِذْ إِنَّنِي قَدْ أَرَلْتُهَا عَنْ نَفْسِي بِجُهْدِي الدَّائِيَّةِ . وَلِهَذَا فَإِنَّ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ لَا يَقِلُّ عَمَّا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ . وَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّنِي تَزَوَّجْتُ ابْنَتَهُ ثُومْ غِرَاغِرَايْنِد . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَشْغُلُكَ هَذَا الصَّبَاحَ ، فَارْجُو أَنْ تُرَافِقَنِي إِلَى بَيْتِي ؛ إِذْ يُسْعِدُنِي أَنْ أَقْدَمَكَ إِلَى ابْنَتِهِ غِرَاغِرَايْنِد . »

أَجَابَهُ جيم : « إِنَّ أَفْوَاحَكَ هَذَا يُعَبِّرُ عَنْ أَعْرَ أُمِّيَّاتِي . »

بَعْدَ حَوَالٍ نِصْفِ سَاعَةٍ أَلْتَقَى جيم هَارْتِهَاؤُس بِالسَّيِّدَةِ باونديزي . وَكَانَ فِي أَلَلْقَاءِ مَا حَرَّكَ مَشَاعِرَهُ ، فَقَدْ وَجَدَ السَّيِّدَةَ باونديزي هَادِثَةً الطَّبَاعِ بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا لَا تَكْتَفِرُ كَثِيرًا بِمَا يَدُورُ حَوْلَهَا ، وَلَكِنَّهَا أَخَذَتْ تُرَاقِبُ ضَيْفَهَا بِإِمْعَانٍ . وَوَجَدَهَا مُعْتَزَّةً بِنَفْسِهَا ، وَتَشْعُرُ بِالْحَجَلِ مِنْ تَصَرُّفَاتِ زَوْجِهَا وَمَسَلِكِهِ الْفُظِّ .

لَمْ يَسْبِقْ لَجيم أَنْ أَلْتَقَى فِي حَيَاتِهِ بِسَيِّدَةٍ مِثْلِ لُوبِزَا . كَانَتْ جَمِيلَةً ، رَغَمَ أَنَّهَا كَانَتْ تُحَاوِلُ السَّيْطَرَةَ عَلَى نَظَرَاتِهَا . وَاسْتَشْفَ أَيْضًا أَنَّهَا تَعْتَمِدُ تَمَامًا عَلَى نَفْسِهَا ، كَمَا اسْتَشَجَّ أَيْضًا أَنَّهَا سَيِّدَةٌ لَا تَنَالُ مِنْهَا الشُّكُوكُ أَوْ الْآوْهَامُ ، مَا لَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعُو إِلَى الشُّكِّ . هَا هِيَ ذِي تَقِفٍ أَمَامَهُ وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ مَا يَشْغُلُ

ذهنها وأن أفكارها قد شردت وذهبت بها بعيدا . وأدرك أنه حتى تلك اللحظة لم يفهما فهما كاملا .

وعندما أجال بصره في العرقة لم يجد بها ما ينعكس لسمات المرأة أو ذوقها ، ولم يجد في العرقة ما يتهج النفس أو يشعرها بالراحة ، أو يدل على ذكريات سعيدة ، فقد كانت عرقة مترفة فيحة وثقيلة على النفس . وبعد أن قدّم باوندرلي ضيفه إلى زوجته قال : « يبدو يا لو أنه سوف يكون لكوكتاون عضوان بالبرلمان هما : والدك والسيد هارثاوس الذي جاء ليدرس المنطقة . » وألقت إلى ضيفه قائلا :

« إن زوجتي — كما ترى يا سيدي — أصغر مني سنا ، ولا أعرف لماذا قبلت أن تتزوجني ، ولكن لا بد أنها وجدت سببا لذلك . فهي إلى جانب صغر سنها تعلم الماما كافيا بكل ما في العالم من حقائق ، فإن كنت ترغب في التعلم سريعا فليس هناك معلم أرشح لك أفضل من لو باوندرلي . »

أجاب جيم : « إنني واثق بذلك . »

قال باوندرلي : « إنني لا أمتدح الناس عادة ، فانا لم أتعلم هذه العادة . كما أنني لست من عليّة القوم المهنيين يا سيد هارثاوس ، فما أنا إلا جوشيا باوندرلي من كوكتاون ، وفي هذا ما يكفي . وأنا لا أهتم كثيرا بما للآخرين من مكانة ، أو مظهر ، كما يفعل غيري من الناس . »

قال جيم وهو ينظر إلى لويزا متبسما : « إن السيد باوندرلي مخلوق نبيل الأصل يعيش طليقا في بيته الطبيعية ، أما أنا فلست سوى كائن ضعيف ثم ثرويضه . »



قالت لويزا بهدوء : « أراك تبدي قدراً كبيراً من الإحترام للسيدة باونديري ،
وليس في هذا ما يدهشني . »

دهش جيم قليلاً لهذا التعليق ؛ لأنه لم يفهم ما تقصده لويزا جيداً . ولكنها
استطردت قائلة : « إنك تزمع خدمة بلدك ، وتأمل أن توفق في إيجاد الحلول
المناسبة لمشكلات هذا البلد . »

ضحك جيم قائلاً : « إنني لم أظاهر يا سيّدة باونديري بأنني أستطيع أن أجِد
الحلول لبلدك المشكلات ؛ فقد شاهدت الكثير خلال أسفاري وتبين لي أنه ما
من شيء في هذه الحياة له قيمة تذكر ، أما عن دخولي البرلمان فإنني لن أدخله
إلا استجابة لآراء والديك ، وهي آراء سديدة مثل آراء الآخرين . »

سأله لويزا : « أليس لك رأي خاص في هذا الصدد يا سيّد هارثاوس ؟ »

أجابها : « نعم ، ليس لي رأي في ذلك على الإطلاق ، فضلاً عن أننا إذا
ما نظرنا إلى أية مجموعة من الآراء لوجدناها لا تختلف كثيراً عن غيرها من
الآراء ؛ فعادة ما يكون لها جميعاً النفع نفسه أو الضرر نفسه . وهذا ما يذكرني
بقول ماثور برودة الإبطالون وهو : « إن المقدّر سيكون . » وهذه هي الحقيقة
الوحيدة ، فهل توافقتني على هذا الرأي ؟ »

ويبدو أن هذا النوع من الزاوية الزائفة والخطرة قد أعجب السيدة باونديري ؛
لذا واصل جيم حديثه بسرعة قائلاً : « إن الحقائق والأرقام مملوءة بالمنفعة ، وهي
تتيح للإنسان أحسن الفرص . وأنا أستمع بها كثيراً ، ولا أومن بها ؛ ولهذا
سأدخل البرلمان من أجلها ، وما أظنني كنت أفعل شيئاً بخلاف ذلك حتى لو أنني

أصدقها أو أومن بها . »

قالت لويزا : « سوف تكون عضواً غير عادي من أعضاء البرلمان . »

قال : « هذا ليس صحيحاً على الإطلاق ؛ فنحن جميعاً لنا الأفكار نفسها
يا سيّدة باونديري . ولكن الكثيرين تنقصهم القدرة على أن يذكروا ذلك
صراحة . »

بدأ السيد باونديري ، أثناء هذه المناقشة ، وكأنه سينفجر ؛ فقد أحمر وجهه ،
وصار أشبه بكرة حمراء كبيرة ، وفجأة قاطعها قائلاً : « عليك أن تقوم يا سيّد
هارثاوس بزيارة بعض الشخصيات المهمة في المدينة ، وأنا على استعداد
لأصحبك الآن . وعليك بعد ذلك أن تتناول معنا العشاء الليلة . »

قام السيد هارثاوس بهذه الزيارات ، وأجاد في حديثه مع تلك الشخصيات
التي زارها ، إلا أن العمل أزهقه . وعندما ذهب لتناول العشاء وجد المائدة قد
أعدت لأربعة أشخاص ، ولكن لم يجلس عليها سوى ثلاثة فقط . وأثناء العشاء
تحدث باونديري حديثه الذي يفخر فيه بأنه ولد في الشارع ، وأفرط في ذكر
العديد من التفاصيل عن طفولته مما أتعّب جيم هارثاوس حتى إنه فكر في
الذهاب مرة ثانية إلى الهند أو إلى مصر . ربما استطاع أن يفعل ذلك ما لم تكن
لويزا تشغل تفكيره . وسأله جيم في نفسه : « هل هناك شيء في العالم من
المنكر أن يؤثر فيها ؟ »

نعم لقد كان هناك شيء ما ؛ فقد فتح الباب ، ودخل ثوم . وما لبث أن تغير
وجه الفتاة بمجرد أن رآته ، وأرست على شفيتها ابتسامة جميلة ، ومدت يدها

لَتَلْتَقِيَ أَصَابِعُهَا بِأَصَابِعِ ثَوْمٍ فِي قُوَّةٍ . وَقَالَ جِيمٌ فِي نَفْسِهِ : « آه ، هَذَا الْجَرُّ إِذَا هُوَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي تُجِبُّهُ ؟ » وَثُمَّ اتَّعَارَفَ بِالْجَرِّ الَّذِي جَلَسَ إِلَى الْمَائِدَةِ مَعَهُمْ .

قَدْ لَا يَكُونُ الْجَرُّ أَسْمًا ظَرِيفًا وَلَكِنَّ ثَوْمٌ كَانَ يَسْتَحِقُّهُ . وَقَالَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي مُخَاطِبًا ثَوْمٌ : « لَقَدْ تَأَخَّرْتَ يَا ثَوْمُ الصَّغِيرُ ، فَلِمَذَا ؟ »

أَجَابَ ثَوْمٌ : « لَقَدْ كَانَتْ أُمَامِي أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ لِأَنْجِزَهَا . إِنْ تَأَخَّرِي لَا يُهِمُّ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي : « عَلَى الشَّبَابِ أَلَا يَتَأَخَّرُوا عَنْ مَوْعِدِ الطَّعَامِ . »

فَهَمَّ جِيمٌ مُشْكِلَةً ذَلِكَ أَلَيْسَ ، وَقَالَ : « إِنَّ وَجْهَ أَخِيكَ يَا سَيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي مَالُوفٌ لِي . رَبُّمَا أَكُونُ قَدْ قَابَلْتُهُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَوْ فِي الشَّرْقِ ، رَبُّمَا ؟ »

أَجَابَتْ لَوِيْرَا : « لَا أَعْتَقِدُ ، فَلَقَدْ دَرَسَ هُنَا ، وَلَمْ يَتَسَرَّ لَهُ السَّفَرُ خَارِجَ إِنْجَلْتِيرا بَعْدَ . » ثُمَّ سَأَلَتْ ثَوْمٌ : « هَلْ سَافَرْتَ يَا ثَوْمُ ؟ »

أَجَابَ الْأَخِيرُ : « لَا ، لَمْ يُسْعِدْنِي الْحَظُّ بِالسَّفَرِ يَا سَيِّدِي . »

لَقَدْ شَغَلَتْ السَّيِّدَةَ بَاوْنِدِرِي وَشَقِيقَتُهَا تَفْكِيرَ جِيمٍ طَوَالَ الْعِشَاءِ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي ثَوْمِ الصَّغِيرِ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيرَ ، فَقَدْ وَجَدَهُ قَطًّا فِي مَسَلِكِهِ ، بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ قَاسِيًا حَتَّى مَعَ شَقِيقَتِهِ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : « لَا بُدَّ أَنْ قَلْبُهَا يَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا الْجَرُّ يَسْتَحْوِذُ عَلَى كُلِّ حُبِّهَا . فَلَا بُدَّ إِذَا أَتَتْهَا تَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ . »

الفصل الثاني عشر

كَانَ جِيمِسُ هَارْتِهَاؤُسُ يَتَظَاهَرُ أَتَاءَ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ بِأَنَّهُ مُعْجَبٌ بِثَوْمِ الصَّغِيرِ ، وَأَخَذَ يُشَجِّعُهُ عَلَى الْكَلَامِ . وَعِنْدَمَا حَانَ وَقْتُ انْتِصَافِ هَارْتِهَاؤُسِ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى الْفُنْدُقِ الَّذِي يَتَوَلَّى بِهِ ، فَعَرَضَ الْجَرُّ أَنْ يُرَافِقَهُ إِلَى هُنَاكَ .

عِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى الْفُنْدُقِ ، جَلَسَ ثَوْمٌ فَوْقَ أَحَدِ الْمَقَاعِدِ الطَّوِيلَةِ الْوُثِيرَةِ ، وَأَمَرَ لَهُ جِيمٌ بِشَرَابٍ ، ثُمَّ تَوَالَتْ الْأَشْرِبَةُ الَّتِي كَانَتْ كُلُّهَا مُنْعِشَةً قَوِيَّةً .



سأله ثوم : « هل أمضيت وقتنا كافيا الليلة مع باوندرني العجوز ؟ »

أجابته جيم : « إنه شخصٌ مُنناز . »

سأله ثوم : « هل تعتقد ذلك حقا ؟ »

أجابته جيم وقد علت شفته ابتسامة تذل على عدم الاكتراث : « نعم ، وأخو زوجه مضحك للغاية ! »

علق ثوم قائلا : « لعلك تعني أن باوندرني العجوز صهبر مضحك للغاية . »

قال جيم : « لا أظن أن هذا تعليق مناسب يا ثوم . »

كان ثوم يشعر بالرضا عن نفسه ، وأعجب بهارثاوس ، كما أعجب بملابسه وبصوته ، وقد أحب أن يناديه باسم ثوم دون كلفة . وبصفة عامة شعر بأنها أمسية رائعة .

استطرد ثوم قائلا : « إنني لم أشعر يوما بأنني أحب باوندرني العجوز ، ولا أعتقد أنني سأبدأ اليوم في أن أغير رأيي فيه وأجبه . »

فقال له جيم : « لا أظنك تبدي مثل هذا الرأي على مسمع من زوجته ، أليس كذلك ؟ »

أجاب ثوم : « أتعني شقيقي ؟ آه ، بلى ! ثم رشف رشفة من شرابه وواصل حديثه قائلا : « إن لو لا ثجبت باوندرني العجوز هي الأخرى . »

قال جيم : « لا أظنك تعني ما تقول . »

قال ثوم : « بل أعنيه تماما . وهذا صحيح فهي لا ثجبة . »

قال جيم : « ولكنها تزوجته يا ثوم ، ويندو أنهما يعيشان سعيدين . »

قال ثوم : « إنك تعرف والدي ، فليس من الغريبة في شيء أن تتزوج لو باوندرني العجوز ، خصوصا أنها لم تعرف غيره من الرجال طوال حياتها . وعندما رشحته والدي للزواج بها قبلته . »

قال جيم : « أهو أميثال الابنة الصالحة للواجب ؟ »

رد ثوم : « أعتقد أنه أميثال الأخت الصالحة للواجب . »

لم يعلق هارثاوس بعد ذلك بشيء ، ولكن الحزو استطرد قائلا : « لقد افترضنا بأن تتزوج باوندرني العجوز ، لأنني كنت قد دُفعت للعمل معه في البنك ، ولم أكن أود أن أعمل هناك . ومن ثم فلو رفضت الزواج به لسبب هذا لي العديد من المتاعب ، ولما أوضحنا لها ذلك الموقف قبلت أن تتزوجه . إنها تستعد دائما بأن تفعل أي شيء من أجلي . ألا ترى هذا موقفا طيبا منها ؟ »

قال جيم : « نعم ، إنه موقف طيب للغاية . »

قال ثوم : « لم يكن الأمر يعني الكثير لها ، فلم يكن في حياتها رجل آخر . وكان بيتنا أشبه بالسجن ، خصوصا بعد أن غادرته للعمل ، وكان علي في الوقت ذاته أن أفكر في مستقبلتي وفي راحتي ، وقد كان ذلك موقفا طيبا منها عندما وضعت ذلك في اعتبارها . »

قال جيم مؤيدا ، وهو يصب المزيد من الشراب في كأسيهما : « نعم ، إنه

كَذَلِكَ بِالتَّكِيدِ ، وَهِيَ تَبْدُو سَعِيدَةً تَامًا . »

قَالَ تَوْم : « مِنْ الْمُمْكِنِ لِأَيَّةِ فَتَاةٍ أَنْ تَجِدَ سَعَادَتَهَا أَيْتَمَا كَانَتْ ، أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ لَوْ لَيْسَتْ بِالْفَتَاةِ الْعَادِيَّةِ ، فَفِي اسْتَطَاعَتِهَا أَنْ تَنْطَوِي عَلَى نَفْسِهَا وَتَسْتَعْرِقَ فِي التَّفَكِيرِ لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةً . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ بِهْدَوٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُسَلِّيَ نَفْسَهَا . »

قَالَ تَوْم : « لَا ، لَا ، لَا أُعْتَقِدُ ذَلِكَ ، فَقَدْ مَلَأَ الْوَلَدِي عَقْلَهَا عَلَى طَرِيقَتِهِ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الْحَقَائِقِ الْجَافَةِ وَالْأَرْقَامِ الْمُرْهَقَةِ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ : « إِذَا صَاغَهَا عَلَى شَاكِلَتِهِ ؟ »

أَجَابَ تَوْم : « نَعَمْ ، كَمَا صَاغَ الْجَمِيعُ أَيْضًا بِمَنْ فِيهِمْ أَنَا نَفْسِي . »

قَالَ جِيم : « لَا يَا تَوْم ، إِنَّهُ لَمْ يَصُغْكَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ . »

قَالَ تَوْم : « لَا ، بَلْ إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ يَا سَيِّدُ هَارْتِهَاؤُسَ . فَقَدْ كُنْتُ غَايَةً فِي الْعَبَاءِ ، بَلْ كُنْتُ جِمَارًا عِنْدَمَا تَرَكْتُ الْبَيْتَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْحَيَاةِ . »

قَالَ جِيم : « لَا شَكَّ أَنَّكَ تَمْرُحُ يَا تَوْم . إِنِّي لَا أَصْدُقُ ذَلِكَ . »

قَالَ تَوْم وَهُوَ يَرْتَشِفُ مِنْ كَأْسِيهِ : « هَذَا صَحِيحٌ . » ثُمَّ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى الْمَقْعَدِ قَائِلًا : « وَلَكِنِّي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ تَعَلَّمْتُ الْقَلِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِجَهْدِي الْخَاصِّ وَلَا فَضْلَ لِي الْوَلَدِي فِي ذَلِكَ . »

سَأَلَهُ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ : « وَمَاذَا عَنْ شَقِيقَتِكَ الذَّكِيَّةِ ؟ »

أَجَابَ تَوْم : « إِنَّ شَقِيقَتِي الذَّكِيَّةَ لَمْ تَتَّعِبْ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تُشْكُو إِلَيَّ حَالَهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهَا يَوْمًا تِلْكَ الْأَفْكَارُ الَّتِي تُرَاوِدُ الْفَتَاةَ الْعَادِيَّةَ . كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ فِي حَيَاتِهَا شَيْئًا عَنِ الْحُبِّ أَوْ الْحَيَاةِ . وَلَكِنَّ الْفَتَيَاتِ يَخْتَلِفْنَ عَنِ الرِّجَالِ ، فَهُنَّ لَا يَخْتَجِرْنَ الْكَثِيرَ . »

لَمْ يَقُلْ تَوْمُ الْغَرِيدَ ، بَلْ رَاحَ فِي النَّوْمِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى أَنْ رَكَكَتْ هَارْتِهَاؤُسُ قَائِلًا : « لَقَدْ تَأَخَّرَ بِنَا الْوَقْتُ ؛ فَأَتَهَضُّ وَغَدُ إِلَى مَنْزِلِكَ . »

قَالَ تَوْم وَهُوَ يَنْهَضُ وَاقِفًا : « لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَشْرَبَةُ جَيِّدَةً ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ قُوَّةً يَدْرَجَةُ كَافِيَةً بِالنِّسْبَةِ لِي . »

قَالَ جِيم : « لَا ، لَمْ تَكُنْ قُوَّةً يَدْرَجَةُ كَافِيَةً ! »

قَالَ تَوْم : « لَقَدْ كَانَتْ أَشْبَهَ بِالْمَاءِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْبَابُ ؟ طَابَتْ لَيْلَتُكَ . »

اصْطَحَبَ أَحَدُ الْخُدَمِ تَوْمَ إِلَى الشَّارِعِ ، وَكَانَ بِاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَسِيرَ وَحْدَهُ حَتَّى مَنْزِلِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ .

لَسْتَمِعَ إِلَى مَا يَقُولُهُ سَتِيفِنَ بِلَاكُيُولَ ، فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ جَمِيعًا مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ سَتِيفِنَ مِنْ
سُعَةِ طَبِيعَةٍ ، كَمَا تَعْرِفُونَ أَيْضًا مُشْكِلَتَهُ . »

جَلَسَ رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ بَعْدَ أَنْ صَافَحَ سَتِيفِنَ ، كَمَا جَلَسَ أَيْضًا سِلَاكْبِرِيدُجَ ،
لِيَسْتَمِعَ الْجَمِيعُ إِلَى سَتِيفِنَ الَّذِي تَحَدَّثَ قَائِلًا :

« أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ، إِنِّي الْوَحِيدُ مِنْ بَيْنِ عُمَالِ مَصْنَعِ نَسِيجِ بَاوْنِيدِرِي الَّذِي
لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى الْتَقَايَةِ ، وَلَنْ أُنْضَمَ إِلَيْهَا مُسْتَقْبَلًا . هَذِهِ التَّقَايَةُ لَا تُسَاعِدُنِي ،
وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَوْفَ تُسَاعِدُكُمْ يَوْمًا . كَمَا أَنَّ لَدَيَّ سَبَبًا خَاصًّا يَمْنَعُنِي مِنَ
الْإِنْضِمَامِ إِلَيْهَا ، وَهَذَا سِرٌّ لَنْ أَبُوحَ بِهِ لِأَحَدٍ ، وَهُوَ سَبَبٌ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ
الْأَهَمِّيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِي . »

قَفَزَ سِلَاكْبِرِيدُجَ مِنْ مَكَانِهِ صَائِحًا : « إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ سَوْفَ يُدْمِرُكُمْ أَنْتُمْ
وَأَهْبَاءُكُمْ وَأَخْفَادُكُمْ . »

رَدَّ سَتِيفِنَ قَائِلًا : « إِنَّ السَّيِّدَ سِلَاكْبِرِيدُجَ خَطَبْتُ ، بِهَيْئَتِهِ الْخَطَابَةِ ، وَبَذَعُ
لَهُ أَجْرَ غَنَمًا ؛ فَلْيُوَدِّ عَمَلَهُ ، وَسَأُوَدِّي أَنَا عَمَلِي . وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى يَجْهَلُ
مَا بِخِيَايِي مِنَ الْعَمَلِ ، وَتِلْكَ هِيَ مُشْكِلَتِي وَخَدِي . »

فَصَاحَ أَخَذَ الْخَاضِرِينَ قَائِلًا : « اجْلِسْ يَا سِلَاكْبِرِيدُجَ وَأَعْطِ الرَّجُلَ قُرْصَتَهُ
لِيَتَحَدَّثَ . »

وَاصَلَ سَتِيفِنَ خَدِيثَهُ : « زُمَلَائِي الْعُمَالُ ! إِنِّي أَعْرِفُ مَا سَيَحْدُثُ لِي عِنْدَمَا
لَا أُنْضَمُ إِلَى الْتَقَايَةِ . سَتُرْفُضُونَ جَمِيعًا صَدَاقَتِي ، وَغَلَيَّ أَنْ أُتَقَبَّلَ ذَلِكَ . »

قَالَ رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ : « فَلْتَفَكَّرْ مَرَّةً أُخْرَى يَا فَتَى قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . »

الفصل الثالث عشر

أَلْفَ عُمَالِ النَّسِيجِ فِي كُورِكتاونِ بَقَايَةِ الْعُمَالِ ، بِقِيَادَةِ رَجُلٍ يُدْعَى
سِلَاكْبِرِيدُجَ ، وَلَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنَ الْعُمَالِ بَلْ كَانَ خَطِيبًا . وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْصُلَ
عُمَالُ النَّسِيجِ عَلَى أَجُورٍ أَعْلَى ، وَأَنْ تَتَوَافَرَ لَهُمْ ظُرُوفُ عَمَلٍ أَفْضَلِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سِلَاكْبِرِيدُجَ لَمْ يَكُنْ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَدْلِ أَوْ
الْأَمَانَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحُلْ دُونَ اتِّفَاقِ الْعُمَالِ مَعَهُ ، وَانْضِمَامِهِمْ إِلَى الْتَقَايَةِ ،
بِاسْتِثْنَاءِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَذْفَعُوا بِضْعَةَ بَنَسَاتٍ أُسْبُوعِيًّا لِسِلَاكْبِرِيدُجَ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اجْتَمَعَ الْعُمَالُ كُلُّهُمْ فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَرَأْسُ الْإِجْتِمَاعِ أَكْبَرُ الْعُمَالِ
سِينَا ، وَتَحَدَّثَ فِي الْإِجْتِمَاعِ سِلَاكْبِرِيدُجَ مُمْتَدِّحًا التَّقَايَةَ ، وَأَسَاءَ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ
الَّذِي رَفَضَ الْإِنْضِمَامَ إِلَيْهِمْ ، فَأَرْتَفَعَ صَوْتُ مِنْ بَيْنِ الْخَاضِرِينَ قَائِلًا :

« مَنْ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ لَوْ كَانَ الْيَوْمَ مُوجُودًا بَيْنَنَا فَدَعْنَاهُ يَتَكَلَّمُ ! » وَارْتَفَعَتْ
صَوِّحَاتُ أُخْرَى تُطَالِبُ ذَلِكَ الشَّخْصَ بِأَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ، وَطَالَبُوا بِأَنْ تُنَاحَ لَهُ
قُرْصَةُ الْخَدِيثِ ؛ فَصَعِدَ رَجُلٌ إِلَى الْمِنْصَةِ ، وَكَانَتْ تَبْدُو عَلَى مَلَاحِظِهِ أُمَارَاتُ
الْأَمَانَةِ وَالْإِحْلَاصِ ، وَدَلَائِلُ الْإِرْهَاقِ وَكِبَرِ السَّنَى . وَإِثْرُ صُعُودِهِ إِلَى الْمِنْصَةِ قَالَ
رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ :

« يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ سِلَاكْبِرِيدُجَ أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَبَادِئِ الْعَدَالَةِ ، وَأَنْ يَجْلِسَ حَتَّى

أجاب ستيفن : « لقد فكرت كثيرا يا سيدي ، فوجدت أنني بكل بساطة لا أستطيع أن أنضم إلى هذه النقابة . »

لم يكن ستيفن غاضبا من هؤلاء الرجال ، بل كان يعرفهم معرفة جيدة وهم يعرفونه كذلك ، فاستمر في حديثه قائلا : « إن كل ما علي هو أن أباشير عملي وأخدي وسطكم ، وأرجو أن تسمحوا لي بذلك . فيجب يا أصدقائي أن أعمل في كوتناون حتى أعيش ، وهذا ما كنت أفعله طوال حياتي ، بل ومثد طفولتي ، وإلا فأين عساي أن أذهب الآن ؟ »

خيم الصمت على المكان ، فترك ستيفن المنصة وأفسح له الرجال الطريق ، ومشى بينهم دون أن ينظر إلى أي منهم حتى خرج من باب القاعة .

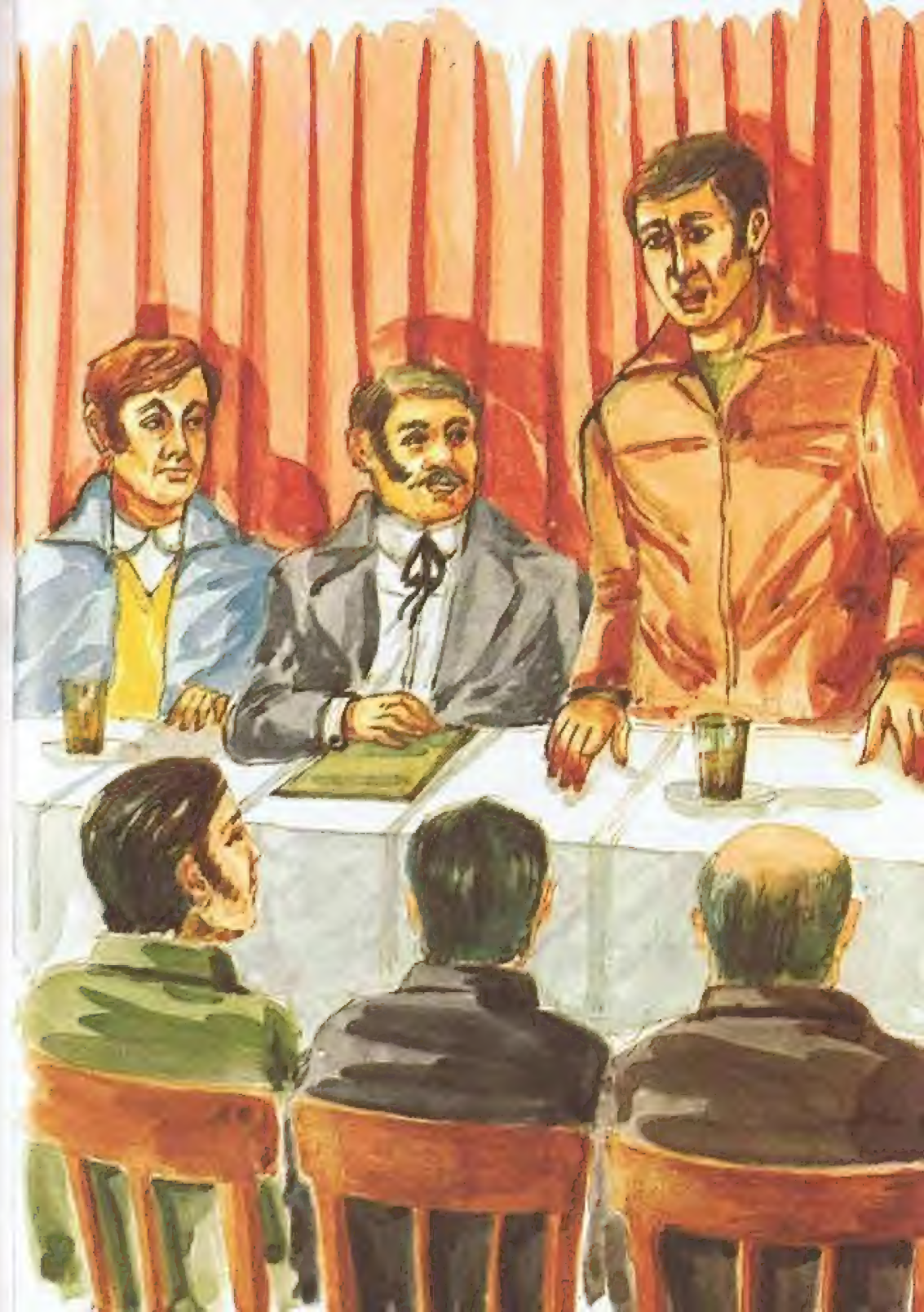
صاح سلاكبريدج مخاطبا العمال : « لا مكان بيتنا لشرير ! فقوموا بواجبكم يا عمال كوتناون ! ولتتهيف الآن ثلاث مرات من أجل النقابة . »

هتف الخطيب الهتاف الأول وخذه ، أما الهتاف الثاني فقد رددته معه عشرون شخصا ، ثم ردد الجميع الهتاف الثالث .

انسمت حياة ستيفن بعد ذلك بالوحدة ، فكان كلما سار في الشارع أو في مصنع الشسيج لم ينظر إليه أو يتبادل الحديث أحد ، حتى النساء اللاتي كان يعمل معهن التزم الصمت .

كان ستيفن دائما شخصا هادئا ، وأصبح الآن يشعر بالوحدة التامة ، ولم يعد يرى راشيل ، بل حرص على ألا يتحدث عنها .

مرت الأيام التالية على ذلك الاجتماع بطيئة متأنقة ، وفي الليلة الرابعة عندما



غَادَرَ سَتِيفِنَ الْمَصْنَعَ فِي مَوْعِدِهِ الْمُعْتَادِ اسْتَوْقَفَهُ فِي الشَّارِعِ شَابٌّ ذُو شَعْرِ فَاتِحِ
الَّلَوْنِ ، وَكَانَ هَذَا الشَّخْصُ هُوَ بِيْتَزِرُ الَّذِي سَأَلَهُ : « أَلَسْتَ أَنْتَ بِلَاكِيُول ؟ »
رَدَّ سَتِيفِنُ : « بَلَى . » وَقَدْ اسْعَدَهُ أَنْ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ صَوْتُ رَجُلٍ يُحَدِّثُهُ ؛
فَرَفَعَ قُبْعَتَهُ بِالتَّحِيَّةِ .

« يُرِيدُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي أَنْ يِرَاكَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ يَقِيمُ ؟ »

فَلَمَّا رَدَّ بِالِإِجَابِ قَالَ لَهُ الشَّابُّ : « إِذَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ فَهُوَ يَنْتَظِرُكَ
هُنَاكَ . »

عِنْدَمَا ذَهَبَ بِلَاكِيُول إِلَى بَاوْنِدِرِي سَأَلَهُ الْأَخِيرُ بِصَوْتٍ عَالٍ : « حَسَنًا
يَا سَتِيفِنُ ، مَاذَا فَعَلَ بِكَ مُهْرَجُو كُوكُتَاوَن ؟ »

كَانَ سَتِيفِنُ يَقِفُ أَمَامَهُ وَقَدْ أُمْسَكَ بِقُبْعَتِهِ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَشْخَاصِ
الْأَرْبَعَةِ الْمَوْجُودِينَ فِي الْغُرْفَةِ يَتَنَاوَلُونَ الشَّايَ ، وَهُمْ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَزَوْجَتُهُ
وَشَقِيقُهَا ، وَضَيْفُهُمُ الْقَادِمُ مِنْ لُنْدُن . وَاسْتَحْتَهُ بَاوْنِدِرِي لِجَنَابِهِ عَنْ سُؤَالِهِ قَائِلًا :
« تَكَلِّمْ آلَانَ ، فَإِنَّا أَنْتَظِرُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ جَوَابًا . »

وَلَمَّا كَانَ سَتِيفِنُ قَدْ عَاشَرَ فِي صَمْتٍ طَوَالَ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ السَّابِقَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ
يَشْعُرْ بِأَرْتِيَاحٍ لِسَمَاعِهِ صَوْتُ بَاوْنِدِرِي الْأَجَشِّ ، وَلَكِنَّهُ أَجَابَ قَائِلًا : « لَقَدْ نَقَلَ
ذَلِكَ الشَّابُّ رِسَالَتَكَ يَا سَيِّدِي ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ تَرْعُبُ فِي مُقَابَلَتِي . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « حَدَّثَنِي عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ بِقَايَةِ الْعَمَالِ . »

أَجَابَهُ سَتِيفِنُ : « آسِيفُ يَا سَيِّدِي ، لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقُولُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ . »

إِزْتَفَعَتْ أَنْفَاسُ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي حَتَّى صَارَتْ أَشْبَهَ بِرِيحٍ قَوِيَّةٍ ، وَوَجَّهَ حَدِيثَهُ
إِلَى هَارْتِهَاوُسَ قَائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ مَا قَالَ يَا هَارْتِهَاوُسَ ؟ إِنَّ هَذَا وَاحِدٌ مِنْ
عُمَالِي . وَكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أُعْتَقِدُ أَنَّهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَى أَنْ يَنْحَرِفَ وَيَزْدَادَ سُوءًا فَحَذَرْتُهُ ،
وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا فَعَلَهُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى ، فَهَا هُوَ ذَا يُخْشِي أَنْ يَنْطَلِقَ بِكَلِمَةٍ
وَاحِدَةٍ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « إِنِّي لَا أَخْشِي شَيْئًا يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقُولُهُ
لَكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّ هَذَا لِأَمْرٍ مُضْجِكٍ يَا سَتِيفِنُ . هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّي سَأُصَدِّقُ
أَنْ سَلَكَ بِيْتَزِرُجَ لَا يُبِيرُ الْمَتَاعِبَ هُنَا ؟ »

أَجَابَهُ سَتِيفِنُ : « غَفُؤًا يَا سَيِّدِي ، لَكِنْ إِذَا مَا فَسَدَ الْقَادَةُ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَعِيبُ
النَّاسَ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ قَادَةً أَفْضَلَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي مُوجَّهًا حَدِيثَهُ إِلَى هَارْتِهَاوُسَ : « أَنْصِبْ يَا هَارْتِهَاوُسَ لِمَا يُقَالُ ،
وَبِذَلِكَ سَوْفَ تَتَعَرَّفُ إِلَى بَعْضِ مُشْكِلاتِنَا . » ثُمَّ تَنَهَّدَ فِي غَمَقٍ قَائِلًا : « قُلْ لِي
يَا سَتِيفِنُ ، لِمَاذَا رَفَضْتَ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَى تِلْكَ الْقَبَايَةِ ؟ »

أَجَابَ سَتِيفِنُ : « لَقَدْ كُنْتُ أَفْضَلُ أَلَا أَقُولُ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ . أَمَا وَقَدْ سَأَلْتَنِي
فَإِنِّي سَأُجِيبُكَ . لَقَدْ وَعَدْتُ بِذَلِكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَكِنَّكَ لَمْ تُعْذِرْنِي بِشَيْءٍ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « لَا يَا سَيِّدِي . لَمْ يَكُنْ وَعْدِي لَكَ . »

قال باوندرني بحيرة : « بطبيعة الحال ، لم يكن غذك لي ، فهؤلاء الرجال لا يشغلهم أمرى على الإطلاق . » لكن ستيفن استدار فجأة ووجه حديثه إلى السيدة باوندرني قائلاً : « لا يا سيدي ! إن هؤلاء الرجال ليسوا بمهرجين أو لصوص ، وإن كنت أدرك أنهم لم يحسنوا معاملتي ، ولكنهم يعتقدون أنهم أدوا واجبهم . وتلك هي الحقيقة ، فأنا أعرف هؤلاء الرجال معرفة جيدة ، فقد عشت بينهم طوال حياتي ، ويجب علي أن ألزم بالحقيقة كلما تكلمت عنهم . فهم في الواقع رجال أمناء ومخلصون ، مهذبون صادقون ، تمتلئ قلوبهم بمشاعر العطف والمحبة . »

ضحك باوندرني ضحكة عالية وقال : « ولكنهم لا يحبونك يا ستيفن ! »

استمر ستيفن في مخاطبته السيدة باوندرني قائلاً : « إنهم يحبون زملائهم يا سيدي ، وأنا واحد من زملائهم . إن بعض ما يتصفون به من صفات طيبة ، كالشرف والإحساس بالواجب من شأنه أن يثير بعض المتاعب ، أو يسبب بعض الأخطار . ورغم حرصهم على الالتزام بجانب الصواب فهناك أخطاء تقع أحياناً ولا قبل لهم بها . »

عندئذ بدأ باوندرني يشعر بالضيق والغضب إزاء تلك المناقشة التي ليست من شؤون زوجته ، فقال لستيفن : « استمع لما سأقول يا ستيفن . إن هذا السيد — وأشار إلى هاريسهاوس — عضو في البرلمان ، وقد جاء من لندن ، ويود أن يعرف الحقائق . والآن أخبرني ما هي شكواك ؟ »

أجاب ستيفن : « إنني لا أشكو شيئاً ، وقد جئت هنا لأنك تريد أن تتحدث إلي . »

سأله باوندرني : « حسناً ومم يشكو العمال ؟ »

أجاب ستيفن : « أنا لست متحدثاً ليقاً ، ولكنني أعرف الكثير عن مشكلاتهم ، فنحن نعيش في مدينة بالغة الثراء ، وبالغة الفقر في الوقت نفسه . فالآلاف من العمال يعملون في المصانع ، ويؤدون جميعهم العمل نفسه الذي التحقوا به منذ صباهم ، ولن يكفوا عن أدائه حتى يموتوا . ولكن أنظر يا سيدي إلى نيوتنا : إنها يوت صغيرة مظلمة تكتظ بسكانها ، ولا بارقة أمل تبشر بحياة أفضل ، اللهم إلا الراحة الأبدية التي تأتي في النهاية . إنك تكذب غداً يا سيدي كما تحدثت في البرلمان عن أمورنا ، ولا شك أنك دائماً مجتنب فيما تقوله ، ونحن دائماً مخطئون . إن حياتنا يا سيدي ما هي إلا ضرب من التخبط ، التخبط الهائل . »

سأله باوندرني : « وكيف يمكنك أن تصحح هذا التخبط ؟ »

أجاب ستيفن : « إنني لا أستطيع أن أجد خلا لهذا . أليس هذا من صميم واجبات قادتنا هنا ، وهناك في البرلمان ؟ »

قال باوندرني : « إنني أعرف ذلك . وسوف نقبض على كل هؤلاء الرجال من أمثال سلاكيريدج ، ونلقي بهم في السجن . »

هرّ ستيفن رأسه وقال : « إن هذا لن يغير من الأمر شيئاً يا سيدي . لقد عشنا وسط هذا التخبط قبل أن يظهر سلاكيريدج . ثم نظر إلى ساعة معلقة على الحائط واستطرد قائلاً « إنك يا سيدي لن تستطيع أن توقف مسيرة الزمن إذا وضعت هذه الساعة في السجن . »

نَظَرَتِ السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي إِلَى سَتِيفِن نَظْرَةً سَرِيعَةً ، ثُمَّ أَشَارَتْ بِنَظَرِهَا نَحْوَ
الْبَابِ فَفَهِمَ سَتِيفِن مَا تُعْنِيهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مِقْبَضِ الْبَابِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يُدْرِكُ
أَيْضًا أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُدَافِعَ عَنِ شَرَفِ قَوْمِهِ . وَنَظَرَ إِلَى السَّيِّدِ هَارْتِهَاوَسَ وَقَالَ :

« أَنَا لَسْتُ رَجُلًا مُتَعَلِّمًا يَا سَيِّدِي ، وَلَا أَعْرِفُ سَبِيلًا لِيَوْضَعَ حَدًّا لِهَذَا
التَّحْجُطِ . وَلَكِنِّي أَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُضَعَ حَدًّا لَهَا . وَلَيْسَ بِمَقْدُورٍ
يَدٍ وَاحِدَةٍ — مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهَا — أَنْ تُضَعَ حَدًّا لِذَلِكَ التَّحْجُطِ ، كَمَا أَنَّ السَّلَيبِيَّةَ
لَنْ تُنْهِيَهُ . وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ طَرَفًا مِنَ الْأَطْرَافِ عَلَى صَوَابٍ دَائِمًا ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
الطَّرَفُ الْآخَرُ مُخْطِئًا دَائِمًا ، وَلَنْ يُسَاعِدَ ذَلِكَ عَلَى إِنْهَاءِ هَذَا الْوَضْعِ . فَهَنَّاكَ
يَا سَيِّدِي عَالَمَ أَسْوَدَ وَأُجُوفَ يَفْصِلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَاتِّفَاصُهُمَا عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ
لَا يَضَعُ حَدًّا لِيُنْكَ الْمَشْكِلَةُ . فَتَحْنُ جَمِيعًا رِجَالًا وَنِسَاءً لَسْنَا آلَاتٍ أَوْ شُخُوصًا
لَا حَيَاةَ فِيهَا ، بَلْ إِنَّا بَشَرٌ لَنَا قُلُوبُنَا ، وَنُحِبُّ وَنُتَمَنَّى ، وَلَنَا مَخَافُنَا وَذِكْرِيَانَا ،
مِثْلُ مَا لَكُمْ ثَمَامًا . »

فَتَحَّ سَتِيفِنَ الْبَابَ وَانْتَظَرَ ، فَقَالَ بَاوْنِدِرِي وَقَدْ أَحْمَرَّ وَجْهُهُ أَحْمَرًا شَدِيدًا :
« آه ، إِنَّمَا بَلَّكَ الْبِلْعَقَةُ الذَّهَبِيَّةُ مَرَّةً أُخْرَى يَا بِلَاكْبُول . فَأَنْتُمْ دَائِمًا الشُّكُوى ،
حَتَّى لَقَدْ صَارَتْ الشُّكُوى هِيَ كُلُّ حَيَاتِكُمْ . »

هَزَّ سَتِيفِنَ رَأْسَهُ وَقَالَ : « مَا أَنَا إِلَّا نَسَاجٌ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّكَ تُبِيرُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِيبِ ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ بِكَ الْقَنَابَةُ
نَفْسُهَا . إِنَّمَا مَا كُنْتُ أَظُنُّ يَوْمًا أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ عَلَى صَوَابٍ ، وَلَكِنِّي اتَّفَقُ مَعَهُمْ
الآنَ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، فَقَدْ ضِيقْتُ أَنَا أَيْضًا بِكَ . »

تَطَلَّعَ سَتِيفِنَ بِسُرْعَةٍ إِلَى وَجْهِ بَاوْنِدِرِي ، وَلَكِنَّهُ الْأَخِيرُ قَالَ : « بَعْدَ أَنْ تُحْصَلَ
عَلَى أَجْرِكَ فِي نِهَايَةِ هَذَا الْأُسْبُوعِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِكَ مَكَانًا آخَرَ تَذْهَبُ
إِلَيْهِ . »

أَجَابَهُ سَتِيفِنَ : « وَلَكِنْ يَا سَيِّدِي إِنْ لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أُحْصَلَ عَلَى عَمَلٍ مَعَكَ ،
فَلَنْ أُحْصَلَ عَلَى عَمَلٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ . أَنْتَ تَعْرِفُ هَذَا يَا سَيِّدِي ! »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « هَذِهِ مُشْكِلَتُكَ الْخَاصَّةُ . »

نَظَرَ سَتِيفِنَ إِلَى السَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرِي ، وَلَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَاسْتَدَارَ وَغَادَرَ الْغُرْفَةَ .

الفصل الرابع عشر

كَانَ الظُّلَامُ قَدْ بَدَأَ يُحِيمُ عَلَى الْمَدِينَةِ عِنْدَمَا غَادَرَ سَتِيفِن مَنَزِلَ بَاوْنِدِرِي . وَفِي الشَّارِعِ كَانَتْ ثَمَّةُ مُفَاجَأَةٍ ، بَلْ مُفَاجَأَتَانِ فِي آنِظَارِهِ ، فَقَدْ اتَّقَى يَتْلِكَ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي قَابَلَهَا مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ عَامٍ . وَهَا هُوَ يَلْتَقِي بِهَا مَرَّةً أُخْرَى . أَمَّا الْمُفَاجَأَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ وُجُودُ رَاشِيلَ مَعَهَا .

قَالَ : « آه يَا عَزِيزِي رَاشِيلُ ! أَأَنْتِ مَعَهَا يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْهُ الْعَجُوزُ قَائِلَةً : « نَعَمْ إِنِّي مَعَهَا ، وَقَدْ اتَّقَيْتُ بِهَا لِقَايَ . وَكُنْتُ أُرْقُبُ مَنَزِلَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي مُنْذُ الصَّبَاحِ . وَقَدْ سَمِعْتُ بِنِّبَا زَوَاجِهِ الْعَامَ الْمَاضِي ، وَكُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَرَى زَوْجَتَهُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُغَادِرِ الْمَنَزِلَ قَطُّ . وَقَدْ اتَّقَيْتُ بِهِذِهِ الشَّابَّةِ مُنْذُ عَشْرِ دَقَائِقَ ، وَتَبَادَلْنَا الْحَدِيثَ . »

عَاوَدَ سَتِيفِن الْإِحْسَاسُ بِأَنَّهُ لَا يُجِبُّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ ، وَخُصُوصًا أَنَّهَا كَانَتْ تُسَمَّى بِالْبَسَاطَةِ وَالصَّدْقِ ، فَقَالَ لَهَا بِطَرِيقَتِهِ الرَّقِيقَةِ الْمُعْتَادَةِ : « حَسَنًا يَا سَيِّدَتِي . لَقَدْ اتَّقَيْتُ بِالسَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرِي ، وَهِيَ شَابَّةٌ جَمِيلَةٌ ، وَلَهَا عَيْنَانِ ثَمَلَتَانِ بِالْفِكْرِ ، وَهِيَ هَادِئَةٌ الطَّبَعِ . »

قَالَتْ الْعَجُوزُ : « شَابَّةٌ وَجَمِيلَةٌ أَجَلُ ! وَسَعِيدَةٌ ؟ »

قَالَ سَتِيفِن مُتَرَدِّدًا : « فِيمَا أَحْسَبُ يَا سَيِّدَتِي . »

سَأَلَتْهُ الْمَرْأَةُ : « فِيمَا تُحْسَبُ ؟ لَا بُدَّ أَنَّهَا سَعِيدَةٌ . إِنَّهَا زَوْجَةُ رَئِيسِكُمْ . »

نَظَرَ سَتِيفِن إِلَى رَاشِيلَ وَقَالَ : « لَنْ يَكُونَ رَئِيسِي بَعْدَ هَذَا الْأُسْبُوعِ . »

سَأَلَتْهُ رَاشِيلُ فِي قَلْبِهَا : « هَلْ سَتَتْرِكُ الْمَصْنَعَ يَا سَتِيفِن ؟ »

أَجَابَهَا : « يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتْرَكَهُ . فَهَذَا أَفْضَلُ شَيْءٍ لِي وَلِلْعَمَالِ الْآخَرِينَ . كَمَا يَجِبُ أَنْ أُغَادِرَ كُوكْتَاوَنَ ، وَأُبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ . »

سَأَلَتْهُ : « أَيْنَ سَتَذْهَبُ يَا سَتِيفِن . »

أَجَابَهَا : « لَا أَعْلَمُ الْآنَ ، وَلَكِنِّي سَأَجِدُ مَكَانًا آخَرَ . »

كَانَ سَتِيفِن يَكْرَهُ أَنْ يَتْرَكَ رَاشِيلَ ، وَلَكِنْ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ أَجْدَى لَهَا ، فَلَنْ يَجِدَ الْعَمَالُ مَبْرَرًا لِلْعُضْبِ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يَذْهَبَ ، فَقَالَ لَهَا : « إِنِّي أَشْعُرُ بِأَنْ يُقْلَا قَدْ أَتَرَّاحَ عَنْ صَدْرِي . »

إِنْتَسَمَتْ لَهُ رَاشِيلُ آتِسَامَةً وَدَوْدًا ، وَمَشَى الثَّلَاثَةَ مَعًا .

سَأَلَ سَتِيفِن السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ : « هَلْ سَتَقْضِي لَيْلَتَكَ فِي كُوكْتَاوَنَ يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْهُ : « نَعَمْ ، فِي ذَلِكَ الْفُنْدُقِ الصَّغِيرِ الْقَرِيبِ مِنَ الْمَحْطَةِ ؛ لِأَنِّي سَأَسَافِرُ غَدًا عَائِدَةً إِلَى بَيْتِي . »

قَالَ لَهَا سَتِيفِن : « تَفْضُلِي فِي بَيْتِي يَا سَيِّدَتِي وَتَنَاوَلِي الشَّاي ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَتَأْتِي رَاشِيلُ أَيْضًا ، وَسَأُرَافِقُكَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْفُنْدُقِ . رُبَّمَا يَنْقُضِي وَقْتُ طَوِيلٍ يَا رَاشِيلَ قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِيَ مَرَّةً أُخْرَى . »

قَبِلَا دَعْوَتَهُ ، وَسَارَ ثَلَاثُهُمْ حَتَّى ذَلِكَ الشَّارِعِ الضَّيِّقِ حَيْثُ يُقِيمُ سَتِيفِن .
وَهُنَاكَ نَظَرَ سَتِيفِن فِي خَوْفٍ إِلَى أَعْلَى ، فَوَجَدَ نَافِذَةً غُرْفَتِهِ مَفْتُوحَةً كَمَا تَرَكَهَا
فِي الصَّبَاحِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي الْغُرْفَةِ أَحَدًا بَعْدَ أَنْ هَرَبَتْ زَوْجَتُهُ مِنْذُ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ
وَتَرَكَتِ الْبَيْتَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَتْ . وَكَانَ عَلَى سَتِيفِن أَنْ يَشْتَرِيَ اثْنَا
جَدِيدًا لِيَقْرَشَ بِهِ غُرْفَتَهُ .

بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا أَشْعَلَ سَتِيفِن الْمِصْبَاحَ ، وَتَوَلَّى رَاشِيلَ تَقْطِيعَ الْخُبْزِ وَالزُّبْدِ
وَأَعْدَادَ أَشْيَايَ . وَتَمَتَّعَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ بِالْوَجْهِ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا ، وَبَدَتْ عَلَيْهَا
السَّعَادَةُ . وَسَأَلَهَا سَتِيفِن : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ أَسْمَكَ بَعْدَ يَا سَيِّدَتِي ، فَمَا
أَسْمُكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « إِسْمِي السَّيِّدَةُ بَغْلَرُ ، وَقَدْ تُوَفِّي زَوْجِي مِنْذُ سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ رَجُلًا
طَيِّبًا لِلْغَايَةِ . »

سَأَلَهَا : « إِنِّي آسِيفُ . هَلْ لَدَيْكَ أَوْلَادٌ ؟ »

اِهْتَزَّ كَوْبُ أَشْيَايَ فِي يَدِ السَّيِّدَةِ بَغْلَرُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا السُّؤَالِ ، وَلَكِنَّهَا
أَجَابَتْهُ : « لَا ، لَمْ يَعْذَ لِي آلَانْ أَوْلَادٌ ! »

هَمَسَتْ رَاشِيلُ إِلَى سَتِيفِن قَائِلَةً : « لَقَدْ مَاتُوا . »

قَالَ سَتِيفِن : « آسِيفُ يَا سَيِّدَتِي لِيَتَوَجَّهِي هَذَا السُّؤَالُ . كَمْ أَلُومٌ نَفْسِي
لَأَنِّي ... »

قَاطَعَتْهُ الْعَجُوزُ قَائِلَةً : « لَقَدْ كَانَ لِي أَبْنٌ ، وَكَانَ جَادًا فِي عَمَلِهِ وَنَاجِحًا كُلَّ

الْتَّجَاحِ ، وَلَكِنَّنِي أَفْضَلُ أَلَا أَتَكَلَّمُ عَنْهُ . إِنَّهُ ... » ثُمَّ وَضَعَتْ كَوْبَهَا وَقَالَتْ :
« لَقَدْ فَقَدْتُهُ . »

فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ سَمِعَ الْجَمِيعُ ضَوْضَاءَ عَلَى السَّلَمِ ، ثُمَّ سَمِعُوا صَوْتَ سَيِّدَةِ
تُنَادِي سَتِيفِن . وَكَانَتْ بِلْكَ السَّيِّدَةُ هِيَ صَاحِبَةُ الْمَتَجَرِّ بِالطَّابِقِ السُّفْلِيِّ مِنْ
الْبَيْتِ . وَخَرَجَ سَتِيفِن إِلَيْهَا ، وَتَحَدَّثَا مَعًا . وَتَنَاهَى إِلَى آذَانِ رَاشِيلَ وَالسَّيِّدَةِ
بَغْلَرُ أَسْمَ رَدَّدَتْهُ السَّيِّدَةُ بِغَلَرٍ بِصَوْتِ خَافِتٍ قَائِلَةً : « بَاوْنِدِرِي ! يَجِبُ أَنْ أُخْتَفِيَ
عَنْهُ ! » ثُمَّ هَبَّتْ وَاقْفَتْ وَهِيَ تَقُولُ : « أَرْجُوكُمْ ، لَا تَجْعَلُوهُ يَرَانِي . »

تَعَجَّبَ سَتِيفِن وَسَأَلَهَا فِي دَهْشَةٍ : « مَا الْأَمْرُ يَا سَيِّدَتِي ؟ إِنَّهُ لَيْسَ السَّيِّدُ
بَاوْنِدِرِي ، إِنَّهَا زَوْجَتُهُ ، وَلَا أَظُنُّكَ تَخَافِينَ مِنْهَا ، فَقَدْ ذَكَرْتَ مِنْذُ سَاعَةٍ أَنَّكَ
تَعْتَقِدِينَ أَنَّهَا أَمْرَأَةٌ رَائِعَةٌ . »

سَأَلَتْهُ وَهِيَ لَا تَزَالُ تَرْتَجِفُ : « هَلْ هِيَ حَقًّا السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي ؟ أَوَإِنِّي أَنْتَ
بِذَلِكَ ؟ »

أَجَابَهَا : « ثَمَامُ الْثَقَفَةِ . »

فَقَالَتْ : « سَأَلْتُكُمْ مَكَانِي فِي هَذَا الزُّكْنِ مِنَ الْغُرْفَةِ ، وَأَرْجُوكِ أَلَّا تَتَحَدَّثَ
إِلَيَّ . »

حَمَلَ سَتِيفِن الْمِصْبَاحَ وَنَزَلَ السَّلَمَ ، ثُمَّ عَادَ وَمَعَهُ لُوِيْزَا يَتَّبِعُهَا الْجُرُوشُ شَقِيقُهَا ،
ثُمَّ دَخَلُوا جَمِيعًا الْغُرْفَةَ .

كَانَتْ بِلْكَ أَوَّلَ زِيَارَةٍ تَقُومُ بِهَا لُوِيْزَا إِلَى مَسْكَنِ أَيِّي مِنَ الْعَمَالِ فِي كُوكُونَاوَن .

لَقَدْ كَانَتْ تُعْرِفُ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَقَائِقِ عَنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَعَنْ عَمَلِهِمْ ، وَلَكِنْ مَعْرِفَتُهَا بِهِمْ كَانَتْ أَشْبَهَ بِمَعْرِفَتِهَا بِالْحَشَرَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَقْرَأُ عَنْهَا فِي كُتُبِ الْعُلُومِ ، فَهُمْ جَمِيعًا يَتَنَوَّنُ أَعْمَاشُهُمْ وَيَعْمَلُونَ . وَكَانَتْ غُرْفَةُ سَتِيفِنَ وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَاشِ .

تَطَلَّعَتْ لُويزَا حَوْلَهَا لِيَضَعَ دَفَائِقَ ، وَلاَحَظَتْ فِي الْغُرْفَةِ قِطْعَ الْأَثَابِ الْقَلِيلَةِ ، وَبَعْضَ الْكُتُبِ . وَوَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى السَّيِّدَتَيْنِ ، فَحَمَّنتُ أَنْ الشَّابَّةَ الصَّغِيرَةَ لَيْسَتْ زَوْجَةُ سَتِيفِنَ . وَكَمَا حَدَّثَتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَمَا تَحَدَّثَتْ سَتِيفِنَ إِلَى السَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرْنِي ، تَحَدَّثَتْ هِيَ إِلَى رَاشِيلَ فَقَالَتْ لَهَا : « لَقَدْ جِئْتُ لِأُمْدٍ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ إِنْ سَمَحْتُمْ لِي بِذَلِكَ . هَلْ تَعْرِفِينَ مَا حَدَّثَ ؟ هَلْ أُخْبِرُكَ بِالْأَمْرِ ؟ »

أَجَابَتْهَا رَاشِيلُ : « لَقَدْ أُخْبِرْتَنِي أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُ الْعَمَلَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « إِذَا تَرَكَ الْعَمَلَ فِي مَصْنَعِ زَوْجِي ، فَلَنْ يَكُونَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا آخَرَ فِي مَدِينَةِ كُوكْتاون . أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا ؟ »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « بَلَى أَيْتُهَا الشَّابَّةُ ، فَسَوْفَ تَكُونُ سَمْعَتُهُ قَدْ سَاءَتْ بَيْنَ الْجَمِيعِ . »

قَالَتْ لُويزَا : « كَمَا أَنَّ زُمَلَاءَهُ مِنَ الْعَمَالِ لَنْ يَقْبَلُوا الْعَمَلَ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي نِقَابَتِهِمْ ، وَلِلْسَبَبِ نَفْسِهِ أَيْضًا لَنْ يُوظِّفَهُ أَيُّ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ . وَلَكِنْ أُخْبِرْتَنِي هَلْ وَعْدُكَ بِالْأَنْتِقَابَةِ إِلَى الْقَنَابَةِ ؟ »

إِنْفَجَرَتْ رَاشِيلُ فِي الْبُكَاءِ قَائِلَةً : « إِنِّي لَمْ أَطْلُبْ مِنْهُ وَعْدًا . يَا لَلْفَتَى الْمِسْكِينِ ! إِنِّي مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ أُحِبُّهُ الْمَتَاعِبَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ . وَلَمْ أَكُنْ

أَطْلُرُ أَنَّهُ سَوْفَ يَفْقِدُ عَمَلَهُ ، وَلَكِنْ هَا هُوَ الْآنَ يُفْضَلُ الْمَوْتُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَ وَعْدَهُ . »

أَمْسَكَ سَتِيفِنَ بِيَدِ رَاشِيلَ قَائِلًا : « إِنِّي أَكُنُ لَكَ تَقْدِيرًا كَبِيرًا وَحُبًّا فَائِقًا يَا رَاشِيلَ . لَقَدْ كُنْتُ سَعِيدًا عِنْدَمَا وَعَدْتُ ذَلِكَ الْوَعْدَ ، وَسَيُسْعِدُنِي أَيْضًا أَنْ أَحَافِظَ عَلَيْهِ . »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ لُويزَا نَظْرَةً تُكْشِفُ عَنْ مَزِيدٍ مِنَ الْإِحْتِرَامِ لَهُ ، ثُمَّ أَحْتَتْ رَأْسَهَا ، وَسَأَلَتْهُ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ : « مَاذَا سَتَصْنَعُ ؟ »

أَجَابَهَا : « سَأَذْهَبُ بَعِيدًا يَا سَيِّدَتِي ، وَسَأُحَاوِلُ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسِي عَمَلًا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ . »

سَأَلَتْهُ : « وَكَيْفَ سَتَسَافِرُ ؟ »

أَجَابَهَا : « سَأَسِيرُ يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « رَاشِيلُ ! » ثُمَّ فَتَحَتْ حَقِيبةَ يَدِهَا ، وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا أُرْبَعَةَ جَنْبِهَاتٍ وَضَعَتْهَا عَلَى الْمِئْضَدَةِ قَائِلَةً : « إِنَّكَ تُعْرِفُهُ جَيِّدًا ، وَتُمْكِنُكَ أَنْ تُبَلِّغِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْقَفُودَ لَهُ دُونَ أَنْ تُجْرِحِي بِذَلِكَ شَعُورَهُ . هَلْ لَكَ أَنْ تَفْعَلِي ذَلِكَ ؟ »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَيْتُهَا الشَّابَّةُ ! وَإِنَّهُ لَعَطْفٌ زَائِدٌ مِنْكَ أَنْ تُفَكِّرِي بِأَمْرِ هَذَا الْفَتَى الْمِسْكِينِ ، وَلَكِنْ مَا مِنْ أَحَدٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ هَذِهِ الْقَفُودَ إِلَّا هُوَ شَخْصِيًّا . »

غَطَّى سَتِيفِنَ وَجْهَهُ بِرَاحَتَيْهِ لِلْحِظَّةِ قَصِيرَةٍ ، ثُمَّ آيَسَهُمْ وَقَالَ : « يَا لَكُمَا مِنْ

سَيِّدَتَيْنِ عَطَوْتَيْنِ . إِنَّ لِلرَّجَالِ بَعْضًا مِنْ عِزَّةِ الْفُسْرِ ، وَأَنَا لَسْتُ غَبِيًّا ، وَلَسْتُ نَاكِرًا لِلْجَمِيلِ ، وَلِهَذَا فَإِنِّي سَأَخُذُ جُنَيْهَتِي يَا سَيِّدَتِي ، وَسَوْفَ أُرُدُّهُمَا لَكَ حَالَمَا أَجِدُ عَمَلًا ، وَسَيَكُونُ ذَلِكَ عِنْدِيذٍ أَطْلَبُ عَمَلٍ أَوْدِيهِ . »

تَنَاولُ سَتِيفِنِ الْجُنَيْهَتَيْنِ ، وَوَضَعَتْ لُوِيْزَا الْجُنَيْهَتَيْنِ الْآخَرَتَيْنِ فِي حَقِيْبَتِهَا ، أَمَّا شَقِيْقُهَا الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَى السَّرِيْرِ طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَقَدْ نَهَضَ عِنْدَمَا وَجَدَ أُخْتَهُ تَوَشِيْكَ أَنْ تَنْصَرِفَ ، وَقَالَ لَهَا بِسُرْعَةٍ :

« إِنْتَظِرِي لِحُظَّةٍ يَا لُو . هَلْ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ ؟ لَقَدْ طَرَأَتْ لِي فِكْرَةٌ .
تَعَالَ مَعِي يَا بِلَاكُوبُلْ خَارِجَ الْغُرْفَةِ لِحُظَّةٍ . »

عِنْدَمَا تَحَرَّكَ سَتِيفِنِ نَحْوَ الْمَصْبَاحِ قَالَ لَهُ تُوْم : « لَا يَا رَجُلُ . لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى ضَوْءٍ . »

تَبِعَ سَتِيفِنِ تُوْمَ إِلَى خَارِجِ الْغُرْفَةِ ، فَقَالَ لَهُ تُوْمَ هَامِسًا : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَاعِدَكَ ، وَلَا تُطَلِّبْ مِنِّي مَزِيدًا مِنَ التَّفَاصِيْلِ لِأَنَّهَا مَا زَالَتْ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ . وَلَكِنْ اسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُهُ . إِنِّي أَعْمَلُ بِالْبَنْكِ ، وَأَنْتِ تَعْرِفُ بِيْتْرَرِ الْخَارِصِ بِطَبِيعَةِ الْخَالِ .
مَتَى سَتُعَاذِرُ كَوْنَنَا ؟ »

أَجَابَهُ سَتِيفِنِ : « إِنَّ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ ، وَسَأَرْحَلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ السَّبْتِ . »

قَالَ تُوْمَ : « حَسَنًا . سَأَحَاوِلُ أَنْ أُسَاعِدَكَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنْتَظِرَ عَلَى مَقَرَّتِي مِنْ الْبَنْكِ كُلِّ مَسَاءٍ حَتَّى يَوْمِ سَفَرِكَ . وَسَوْفَ أَخْبِرُ أُخْتِي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّهَا سَتَوَافِقُنِي . وَلَكِنْ لَا تَتَحَدَّثْ إِلَى بِيْتْرَرِ ، فَإِذَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلِكَ



فَسَبَّوْكَ بِيَتْرَ إِبْلَاغَكَ رِسَالَتِي . هَلْ فَهِمْتُ ؟ »

أَجَابَهُ سَتِيفِن : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . إِنَّ ذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَامِ الْوُضُوحِ . »

ثُمَّ فَتَحَ ثَوَمَ أَلْيَابَ وَنَادَى أُخْتَهُ قَائِلًا : « هَيَّا يَا لُو ، فَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِلْإِنْصِرَافِ
الآن . » وَانْدَفَعُ يَهْبِطُ السَّلَمَ مُسْرِعًا ، وَانْتَظَرَ أُخْتَهُ فِي الشَّارِعِ .

تَحَرَّكَتْ مَشَاعِيرُ السَّيِّدَةِ بَعْلَرُ لِمُشَاهَدَتِهَا تِلْكَ السَّيِّدَةِ الْمُحِبَّةِ إِلَى النَّفْسِ .
وَقَامَ صَدِيقَاهَا ، سَتِيفِن وَرَاشِيل ، بِاصْطِحَابِهَا إِلَى الْفُنْدُقِ الَّذِي تُنْزِلُ بِهِ ، وَبَعْدَ
أَنْ تَمَنَّا لَهَا لَيْلَةً سَعِيدَةً انْصَرَفَا وَسَارَا مَعًا حَتَّى وَصَلَا مَنْزِلَ رَاشِيل . وَهُنَاكَ اتَّفَقَا
عَلَى الْأَ يَلْتَقِيَا مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى يُغَادِرَ سَتِيفِنَ الْمَدِينَةَ . وَلَكِنَّهُمَا تَبَادُلَا بَعْضَ كَلِمَاتِ
الْمُحِبَّةِ وَالْمُسْتَجِيعِ . وَبَعْدَ أَنْ تَوَاعَدَا عَلَى تَبَادُلِ الْخِطَابَاتِ وَدَّعَ كُلُّ مَنِهْمَا الْآخَرَ .

اسْتَمَرَّ سَتِيفِنُ فِي عَمَلِهِ أَيَّامَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ وَالْخَمِيسِ ، وَكَانَ يَقِفُ كُلَّ مَسَاءٍ
جَلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْبَنَّاكِ وَيَجُولُ حَوْلَهُ . وَكَانَ يَرَى بِيَتْرَ ،
إِلَّا أَنْ الْآخِرَ لَمْ يُبَادِرْهُ بِالْحَدِيثِ . وَشَاهَدَ سَتِيفِنَ السَّيِّدَةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ مُدِيرَةً
مَنْزِلَ لَدَى السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، وَكَانَتْ تُطْلُ مِنْ نَافِذَتِهَا الَّتِي فَوْقَ الْبَنَّاكِ .

وَفِي لَيْلَةِ الْخَمِيسِ انْتَظَرَ سَتِيفِنُ طَوَالَ سَاعَتَيْنِ وَلَكِنْ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ، سِوَى
مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ سَتِيفِنُ كُلَّمَا نَظَرَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، إِذْ كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ لَيْسَ .

وَقَدْ قَضَى سَتِيفِنُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَائِمًا عَلَى الْأَرْضِ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ بَاعَ كُلَّ مَا لَدَيْهِ
مِنْ أَثَاثٍ . وَفِي الْخَامِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَقَى غَادِرَ غُرْفَتِهِ ، وَخَرَجَ إِلَى شَوَارِعِ
الْمَدِينَةِ الْخَالِيَةِ ، وَبَعْدَ مَسِيرَةِ سَاعَتَيْنِ وَصَلَ قِمَّةً ثَلُ يُطْلُ عَلَى مَشَارِفِ الْمَدِينَةِ ،
فَرَفَّ هُنَاكَ وَتَطَّلَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَرَأَاهَا غَارِقَةً فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ السَّاطِعِ ، وَسَمِعَ

الْأَخْرَاسَ تَذُقُ إِيذَانًا بِنَدَى الْعَمَلِ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَتْ أَعْمِدَةُ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ فِي السَّمَاءِ .
وَشَعَرَ سَتِيفِنَ عِنْدَئِذٍ بِأَنَّهُ غُلَامٌ صَغِيرٌ ، وَبِأَنَّ أَصْوَاتَ الطُّيُورِ وَشَذُوهَا تُحْمِلُ إِلَيْهِ
رِسَالَةَ حُبٍّ مِنْ رَاشِيلِ .

« إِنَّ وَجْهَهَا يَزْدَادُ جَمَالًا وَتَالِقًا خَاصَّةً عِنْدَمَا يَقَعُ بَصَرُهَا عَلَى الْخَزْوِ . كَمْ
أَوْدُ أَنْ أَرَى مِثْلَ هَذَا التَّغْيِيرِ عَلَى مَلَامِحِهَا عِنْدَمَا تَرَانِي أَنَا . »

وَكَانَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ يَمْتَلِكُ حِصَانًا يَرْكَبُهُ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْاجْتِمَاعَاتِ ، وَكَانَ
عَلَيْهِ أَنْ يُسَافِرَ أحيانًا إِلَى قَرْيَ تَبْعُدُ عِدَّةُ كِيلُومِتْرَاتٍ . وَلَمْ تَكُنْ أَعْمَالُهُ فِي الْمَدِينَةِ
تُسْتَعْرِقُ مِنْ وَقْتِهِ الْكَثِيرَ ، فَهُوَ يُلْقِي الْخُطَبَ وَالْمُحَاضِرَاتِ . وَكَانَ شَخْصًا مَحْبُوبًا
مِنْ الْجَمِيعِ ، وَكَانَ آلُ بَاوْنِدِرِي أَفْضَلَ أَصْدِقَائِهِ ، وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي
أَفْضَلَهُمْ جَمِيعًا .

وَكَانَ يُحِيطُ بِالْبَيْتِ حَدِيقَةً خَاصَّةً بِهِ ، تَمْلَأُهَا الْأَشْجَارُ الَّتِي تُلْقِي بِظِلِّهَا عَلَى
الْمَكَانِ وَعَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمَقَاعِدِ الْمَوْجُودَةِ . أَمَّا الطَّرِيقُ الْمُسْتَقْدُّ إِلَى كُوْكْتَاوْنِ فَقَدْ
أَمْتَلَأَ بِمَنَاجِمِ الْفَحْمِ الْقَدِيمَةِ الْمَهْجُورَةِ الَّتِي تَرَكَّتْ آثَارًا سَوْدَاءَ عَلَى الْأَرْضِ .
وَكَانَتِ الْمَبَانِي الْمَوْجُودَةُ بِالْمِنْطَقَةِ خَالِيَةً بِذَوْرِهَا ، وَكَادَتْ الشَّجَرَاتُ النَّامِيَةُ

الفصل الخامس عشر

كَانَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ يَمْتَلِكُ حِصَانًا يَرْكَبُهُ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْاجْتِمَاعَاتِ ، وَكَانَ
عَلَيْهِ أَنْ يُسَافِرَ أحيانًا إِلَى قَرْيَ تَبْعُدُ عِدَّةُ كِيلُومِتْرَاتٍ . وَلَمْ تَكُنْ أَعْمَالُهُ فِي الْمَدِينَةِ
تُسْتَعْرِقُ مِنْ وَقْتِهِ الْكَثِيرَ ، فَهُوَ يُلْقِي الْخُطَبَ وَالْمُحَاضِرَاتِ . وَكَانَ شَخْصًا مَحْبُوبًا
مِنْ الْجَمِيعِ ، وَكَانَ آلُ بَاوْنِدِرِي أَفْضَلَ أَصْدِقَائِهِ ، وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي
أَفْضَلَهُمْ جَمِيعًا .

وَكَانَتْ لُويْزَا مُعْجَبَةً بِبَعْضِ أَفْكَارِهِ الَّتِي تَذُلُّ عَلَى عَدَمِ الْإِكْتِرَافِ بِشَيْءٍ .
وَكَانَتْ تَتَذَكَّرُ قَوْلَهُ « إِنَّ الْمَقْدَّرَ سَيَكُونُ » ، فَهُوَ قَوْلٌ يَتَّفِقُ مَعَ شَيْءٍ فِي
أَعْمَاقِهَا ، كَمَا أَنَّهُ يُذَكِّرُهَا بِأَنَّهَا قَالَتْ يَوْمًا لِأَبِيهَا إِنَّ زَوَاجَهَا لَا يَعْنِي شَيْئًا لَهَا .
وَكَانَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ بِذَوْرِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَافٍ وَلَا قِيَمَةَ لَهُ . وَلَمْ تَكُنْ
لُويْزَا تَرَى جَدِيدًا فِي آرَائِهِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُؤْمِنُ بِهَا ، وَلَمْ تَكُنْ أَرَاهُ ضَارَةً ،
وَلَكِنَّ لُويْزَا كَانَتْ تَجِدُ فِي حَدِيثِهَا إِلَى هَارْتِهَاؤُسِ مَنَعَةً .

وَلَا حَظَّ هَارْتِهَاؤُسُ تَغْيِيرًا طَفِيفًا عَلَى لُويْزَا ، وَتَذَكَّرَ كُلَّ مَا قَالَهُ أُخُوها عَنْهَا ،
وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَفْهَمُهَا وَيَفْهَمُ سُلُوكَهَا يَبْطِئُ . فَهُوَ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَسِيرَ أَغْوَارَ عَقْلِهَا ،
أَوْ يَصِلَ إِلَى أَعْمَاقِ تَفْكِيرِهَا وَيَتَعَرَّفَ إِلَى دَقَائِقِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَفْكِيرُهُ الْضَحْلُ لِيُتِيحَ
لَهُ ذَلِكَ . وَلَكِنَّ كَانْ كُلَّمَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا قَالَ فِي نَفْسِهِ :



حَوْلَهَا تَحْجُبُهَا عَنْ الْأَنْظَارِ ، وَتَكَاثَرَتْ أَيْضًا الشَّجِيرَاتُ وَالْحَشَائِشُ ،
وَأَرْتَفَعَتْ حَوْلَ مَدَاخِلِ تِلْكَ الْمَنَاجِمِ الْقَدِيمَةِ . وَبِصُورَةٍ عَامَّةٍ كَانَتْ الْمِنْطَقَةُ غَيْرَ
آمِنَةٍ خَاصَّةً أَثْنَاءَ اللَّيْلِ . وَلَكِنَّ الْحَقُولَ كَانَتْ تُبْدُو دَائِمًا نَضِيرَةً رَاحَةً بَعِيدًا عَنْ
أَعْمِدَةِ الدُّخَانِ الَّتِي تُرَى مِنْ بَعِيدٍ وَهِيَ تَرْتَفِعُ فِي سَمَاءِ كُوكْتَاوَن .

أَحْبَبْتُ لَوِيْزَا هَذَا الْمَكَانَ وَصَارَتْ تُقْضِي بِهِ مُعْظَمَ أَوْقَاتِ الصَّيْفِ الْحَارِّ . وَكَانَ
السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي يَحْضُرُ إِلَيْهَا لَيْلًا ، وَيُقِيمُ هُنَاكَ أَيَّامَ الْآحَادِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْكَبُ الْخَيْلَ عَادَةً ؛ فَإِنَّهُ اخْتَفِظَ هُنَاكَ بِحَظِيرَةٍ لِلْخَيْلِ تُضْمُ اثْنَيْ عَشَرَ
حِصَانًا . وَقَدْ دَعَى السَّيِّدُ هَارْتْهَاوُسَ لِيُقِيمَ هُنَاكَ ؛ إِذْ قَالَ لَهُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي :

« لَا حَاجَةَ بِكَ لِأَنْ تَسْتَأْجِرَ حَظِيرَةً فِي كُوكْتَاوَن ؛ إِذْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَحْتَفِظَ هُنَا
بِحِصَانِكَ ، وَيُمَكِّنُكَ أَنْ تُقِيمَ هُنَا أَيْضًا إِنْ رَغِبْتَ فِي ذَلِكَ . »

وَجَاءَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ الْحَارَّةِ ، وَكَانَ مَنَظَرُ الْمَقَاعِدِ وَسَطِ الْحَدِيقَةِ جَمِيلًا .
وَوَجَدَ السَّيِّدُ هَارْتْهَاوُسَ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَا يُنَاسِبُ مُحَاوَلَاتِهِ لِلنَّجَاحِ فِي تَحْرِيكِ
مَشَاعِرِ لَوِيْزَا نَاجِيَةً .

وَفِي عَصْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ جَلَسَ إِلَى جَوَارِهَا وَقَالَ : « أَوَدُّ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِشَأْنِ أُخِيكَ
صَدِيقِي ثَوْمَ الصَّغِيرِ يَا سَيِّدَةَ بَاوْنِدِرِي . »

وَمَا إِنْ سَمِعَتْ لَوِيْزَا ذَلِكَ حَتَّى تَوَرَّدَتْ وَجَنَّتَاهَا ، فَقَالَ هَارْتْهَاوُسُ لِنَفْسِهِ :
« كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ ! » ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « عَفْوًا يَا سَيِّدَةَ بَاوْنِدِرِي ، وَلَكِنَّ
تِلْكَ الْأَنْظُرَةَ الَّتِي أَرَاهَا فِي عَيْنَيْكَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُجْعَلَ ثَوْمُ يَشْعُرُ بِالْفَخْرِ ، وَلَا يَسْعُنِي
إِلَّا أَنْ أُعَبَّرَ عَنْ إِعْجَالِي بِمَا أَرَاهُ ... »

فَاطَعَتْهُ لَوِيْزَا قَائِلَةً : « إِنِّي فِي أَنْتِظَارٍ مَا تَوَدُّ أَنْ تُقُولَهُ عَنْ ثَوْمِ . »

قَالَ : « أُرَاكَ حَازِمَةً مَعِي ، وَهَذَا مَا اسْتَحَقُّهُ . فَأَنَا أُعْرِفُ أَنَّي لَا قِيَمَةَ لِي ،
وَأَنْ كُنْتُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِيهِ صَادِقًا مَعَكَ وَلَسْتُ بِمُخَادِعٍ ، كَمَا أَنَّي مُهْتَمٌّ بِأُمُورِ
أُخِيكَ . »

قَالَتْ : « هَلْ ثَمَّةُ شَيْءٍ تَهْتَمُّ بِهِ يَا سَيِّدُ هَارْتْهَاوُسَ ؟ »

أَجَابَهَا : « نَعَمْ ، إِنَّنِي أَهْتَمُّ بِثَوْمِ . إِنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ الْكَثِيرَ مِنْ أَجْلِهِ ، بَلْ إِنَّكَ
كَرَسْتَ حَيَاتَكَ كُلَّهَا مِنْ أَجْلِهِ . »

ثُمَّ لَمَلَتْ لَوِيْزَا فِي جِلْسَتِهَا فَجَاءَةً ، وَلَكِنَّ هَارْتْهَاوُسَ وَاصِلَ حَدِيثِهِ بِسُرْعَةٍ قَائِلًا :
« عَفْوًا ، مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنِّي أَهْتَمُّ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ . » ثُمَّ ابْتَسَمَ وَقَالَ : « قَدْ
لَا يَبْدُو فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا لَمْ يَكُنِ الشَّابُّ نَاكِرًا لِلْجَمِيلِ أَوْ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْخَفَاءِ ،
أَوْ لَعَلَّهُ يَنْفِقُ الْكَثِيرَ ، فَلَا بَأْسَ مِنْ ذَلِكَ . هَلْ لِيثَوْمُ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؟ »

قَالَتْ : « أَجَلٌ . »

سَأَلَهَا : « هَلْ يُقَامِرُ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « أُعْتَقِدُ ذَلِكَ . » وَسَكَتَتْ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَتْ : « نَعَمْ ، أُعْرِفُ أَنَّهُ
يُقَامِرُ . »

سَأَلَهَا : « كَمَا أَنَّهُ يُخْسِرُ نَقُودًا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

قَالَتْ : « نَعَمْ . »

قال : « إِنَّ كُلَّ مُقَامٍ يَحْسِرُ نُقُودًا ، وَلَكِنْ هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَ : هَلْ تُمَدِّدُهُ
بِالنُّقُودِ الَّتِي يُقَامِرُ بِهَا ؟ إِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ
تُومَ رَبِّمَا يُعَانِي مِنْ بَعْضِ الْمَتَاعِبِ ، وَأَوَدُّ أَنْ أَسَاعِدَهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَرُورِيًّا ،
وَهَذَا مِنْ أَجْلِهِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

لَمْ تَعْلَقْ لُوِيْزَا بِشَيْءٍ ، وَاسْتَمَرَّ هَارْتْهَاؤُسُ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا :

« لَيْسَ لَتُومَ مَزَايَا كَثِيرَةٌ ، فَوَالِدُهُ الْمَوْفَرُ ، بِمَا بَثَّ فِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ لَمْ يُؤْهِلْهُ تَاهِيلًا
كَافِيًا لِذَلِكَ ؛ أَغْنَى لِمُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الْعَالَمِ الْقَاسِي . كَمَا أَنَّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي رَغِمَ
أَنَّهُ رَجُلٌ فَاضِلٌ وَقَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالشَّخْصِ الْمُنَاسِبِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ
شَابٌّ طَلَبًا لِلْمُسَاعَدَةِ . »

قَالَتْ لُوِيْزَا وَهِيَ تُفَكِّرُ فِي نَفْسِهَا : « هَذَا صَحِيحٌ . صَحِيحٌ تَمَامًا . »

قَالَ هَارْتْهَاؤُسُ : « حَسَنًا ، إِنَّنِي إِذَا عَلَيَّ أَنْتُمْ الْإِسْتِعْدَادُ لِلْمُعَاوَنَةِ ، كَمَا أَنَّ لِي
بَعْضَ الْخَيْرَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكِلَاتِ ، فَإِذَا قُلْتُ لِي الْحَقِيقَةَ بِصَرَاحَةٍ ... »

قَاطَعَتْهُ لُوِيْزَا قَائِلَةً : « إِفْهَمْنِي يَا سَيِّدَ هَارْتْهَاؤُسُ . أَنَا لَا أَشْكُو مِنْ شَيْءٍ ، كَمَا
أَنْتَ لَا أَتَدُّمُ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ أَجْلِهِ . »

قَالَ هَارْتْهَاؤُسُ فِي نَفْسِهِ : « يَا لَهَا مِنْ شَجَاعَةٍ أَيْضًا ! »

وَاصَلَتْ لُوِيْزَا حَدِيثَهَا قَائِلَةً : « كَانَ أَخِي مَدِينًا طَوَالَ عَامٍ أَوْ أَكْثَرَ ، إِذَا بَعَثَ
بَعْضُ جَوَاهِرِي الَّتِي لَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا ... » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنِ الْكَلَامِ وَنَظَرَتْ
إِلَى السَّيِّدِ هَارْتْهَاؤُسِ . لَقَدْ بَاعَتْ بَعْضَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهَا رُوحُهَا — تِلْكَ

حَقِيقَةُ يُدْرِكُهَا أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمَا كَانَ غَيْبًا — وَلَكِنْ السَّيِّدَ هَارْتْهَاؤُسَ لَمْ يَكُنْ
بِالشَّخْصِ الْعَبِيِّ .

وَاسْتَطَرَدَّتْ لُوِيْزَا قَائِلَةً : « لَقَدْ أُعْطِيْتُهُ مِنْذُ ذَلِكَ الْقَارِيعِ ، مِثْلًا كَبِيرًا مِنْ
النُّقُودِ . وَمِنْذُ أَسْبُوعَيْنِ طَلَبَ مِنِّي مِئَةَ جُنَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعِيَ ذَلِكَ الْمِثْلُ ؛ وَلِهَذَا
فَالْتَمَسْتُ أَنْ أُشْعِرَ بِالْقَلَقِ مِنْ أَجْلِهِ يَا سَيِّدَ هَارْتْهَاؤُسُ . لَمْ أَبْحَ بِهِذِهِ الْأَسْرَارِ لِأَحَدٍ
سِوَاكَ . »

قَالَ هَارْتْهَاؤُسُ يَهْدُوِيٌّ : « لَمْ يَكُنْ تُومَ حَكِيمًا فِي تَصَرُّفَاتِهِ ، وَلَكِنْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ
أَنْ يَمُرَّ كُلُّ رَجُلٍ فِي حَيَاتِهِ بِفِتْرَةٍ مِنَ الشَّطْطِ ، وَغَدَمِ التَّعَقُّلِ ؛ إِذَا فَنَانَا لَا الْوَمَةَ
عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ أَجِدُهُ مُدْنِيًا لِسَبَبٍ آخَرَ . وَلَعَلَّهُ سَبَبُ أَجْدُهُ أَكْثَرَ خُطُورَةً
وَأَهْمِيَّةً ، وَهَذَا مَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْفِرَهُ لَهُ . »

سَأَلَتْهُ : « لِمَذَا ؟ مَاذَا فَعَلَ ؟ أَرَجُوكَ أَنْ تُخْبِرَنِي . »

أَجَابَهَا : « لَقَدْ كُنْتُ أُمِينَةً مَعِيَ يَا سَيِّدَهُ بَاوْنِدِرِي ؛ إِذَا سَأَكُونُ أُمِينًا مَعَكَ .
إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْفِرَ لَتُومَ مَسْلَكَةَ الْجَافِ مَعَكَ . كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ
رَاقِبًا مَعَكَ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا ، وَفِي كُلِّ نَظَرَةٍ مِنْ نَظَرَاتِهِ ، بَلْ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ
يَقُومُ بِهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ . فَأَنْتِ أَفْضَلُ أَصْدِقَائِهِ ، كَمَا أَنَّ حَيْكَ وَرِعَايَتِكَ لَهُ يَفُوقَانِ
الْوَصْفَ . فَمَاذَا يُعْطِيكَ مُقَابِلَ ذَلِكَ ؟ مَاذَا يُقَدِّمُ لَكَ ؟ لَا شَيْءَ — عَلَى
مَا أَعْتَقِدُ — سِوَى كَلِمَاتِهِ الْجَافَةِ وَمَسْلَكِهِ الْقَبِيحِ . »

خَبِلَ لِلُوِيْزَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّ أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ تَنْفُورُ أَمَامَ نَاضِرِيهَا ، وَآمَنَلَتْ
عَيْنَاهَا بِذَمُوعٍ . كَأَنَّهَا جَاءَتْ مِنْ بَنَرٍ عَمِيقَةٍ خَفِيَّةٍ فِي دَاخِلِهَا . وَلَكِنْ تِلْكَ الذَّمُوعُ
لَمْ تُخَفَّفْ عَنْهَا وَلَمْ تُرَخَّحْهَا .

وواصل هارثهاوس حديثه قائلاً : « أنا أيضاً على قدرٍ من الجفاء يا سيِّدة باوندرني . ولم أظاهر يوماً بأنني شخصٌ فاضلٌ يُقدَّر الجميل . ولعل في هذا ما يجعلني قادراً على أن أتبين الهوة التي تزدى فيها نوم ، تلك الهوة التي سوف أحاول أن أخرجها منها : سأجعلهُ يكف عن المقامرة . »

ونظر السيِّد هارثهاوس نحو البيت فلمح طيف شخصٍ هناك ؛ فأشار إليه قائلاً للويزا : « لا بدَّ أنه أحوك ، فهيا بنا لنقابله . »

ساعدها على التهور فأمسكت بذراعه . وعندما اقتربا من نوم وجداه متسبكا بعضاً بضربٍ بها بعض الشجيرات ، وما إن شاهدهما حتى صاح : « أهلاً بكما ! لم أكن أتوقع أن أجدكما هنا . »

فقال هارثهاوس : « أظنك كنت تتوقع إحدى فتيات كوكشناون ، وعاب زجاوك لما رأيتهما . »

قال نوم : « كم أتمنى أن تقع فتاة ثرية في حبي ، حتى وإن كانت تلك الفتاة عجوزاً أو قبيحةً فإنني لن أنكرها أبداً . »

قال هارثهاوس : « إنك لا تكف أبداً عن التفكير في التثود يا نوم . »

ردَّ نوم : « إن هذا ما يفعله كل إنسان ، حتى أختي . أليس كذلك يا لو ؟ »

أجابته لويزا : « ليس دائماً يا نوم . »

قال هارثهاوس : « يبدو أن نوم غير سعيد اليوم ؛ ولهذا يجب ألا نزعجه . »



قال ثوم : « إني أعرف ما يدور بخلد أختي من أفكار ، يا سيّد هارثهاوس ،
كما أنها تعرف ذلك أيضا . »

قال هارثهاوس : « لا تصدّقي يا سيّدة باوندرني ، وإذا لم يكن أكثر أدبا فإني
سأبوح لك ببعض أفكاره لحوك . »

قال ثوم : « إني أمتدّحها عندما لا تبدي أكثرنا بالتقود ، وسأمتدّحها كلما
وجدت لذلك سببا مناسباً . ولكن هذا أمر لا يعنيك كثيرا يا سيّد هارثهاوس ،
كما أنني تعبت منه أيضا . »

مشى الثلاثة حتّى وصلوا إلى البيت ، ودخلت لويزا ، ووضع هارثهاوس يده
على كتف ثوم قائلا : « هيا بنا نسير قليلا يا ثوم ، فانا أريد أن أتحدّث إليك . »

وصلا إلى جدار منخفض في نهاية الحديقة فجلسا عليه ، ثم سأله هارثهاوس :
« الآن أخبرني ما الأمر يا ثوم ؟ »

أجاب ثوم : « ليس معي نقود يا سيّد هارثهاوس ، كما أنني واقع في
مشكلة . »

قال هارثهاوس : « وأنا أيضا يا صديقي العزيز ليس معي نقود . »

قال ثوم : « ولكنك لا تعاني من أيّة مشكلة . وكان في إمكان شقيقتي أن
تساعدني ، ولكنها لم تفعل . »

قال هارثهاوس : « إنك تتوقّع الكثير منها . لقد أعطتك قدرا كبيرا من النقود ،
وكم تريد الآن ؟ »

أجاب ثوم : « لقد فات الأوان يا سيّد هارثهاوس . لا أريد شيئا الآن . كان
في استطاعة لو أن تحصل لي على النقود من باوندرني العجوز . لقد تزوّجت من
أجلى . إلا أنها رفضت أن تطلب منه نقودا . إنها لو كانت لطيفة معه لأعطاه
كل ما تطلبه ، ولكنها ليست لطيفة معه حتّى لو كان ذلك من أجلى . »

كانت ثمة بركة ماء صغيرة في وسط الحديقة . وفجأة شعر هارثهاوس بالرغبة
في أن يلقي بئوم الصغير في هذه البركة ، ولكنه ثمالك مشاعره واحتفظ بهدوئه
وقال : « حسنا يا ثوم سأقوم الآن بدور المصرفي بالنسبة لك . »

قال ثوم : « المصرفي ؟ ! أرجو ألا تحدّثني عن هذا الموضوع . »
وتعجّب هارثهاوس مما ظهر على وجه الجرو من مظاهر الإغواء المفاجئ .

فقال له : « عندما تقع في أيّة مشكلة يا ثوم ، أخبرني . أخبرني بكل شيء قبل
فوات الأوان ، وقبل أن تزداد الأمور سوءا . وسأحاول أن أجِد لك مخرجا
سهلا . »

قال ثوم : « شكرا لك يا سيّد هارثهاوس . إنك صديق مخلص . كم كنت
أود لو أنني عرفتك من قبل . »

قال هارثهاوس : « ولكن يجب عليك أن تفعل شيئا من أجلى يا ثوم . عليك
أن تكون أكثر رقة مع أختك ، وأظهر لها بكل وضوح أنك تحبها . »

أجاب ثوم : « سوف أفعل ذلك يا سيّد هارثهاوس ، وسأبدأ ذلك على الفور هذا
المساء . »

بِالْفِعْلِ نَفَّذَ تَوْمَ وَعْدِهِ ؛ إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِهَا وَقَبْلَ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ :
« أَرْجُو أَنْ تُغْفِرَ لِي يَا كُو . أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّي أُجِبُّكَ . وَمَا كُنْتُ أَوْدُ قَطُّ أَنْ أَكُونَ
فَعْلًا مَعَكَ . »

عَلَتْ آلِإِيْسَامَةُ الْجَمِيلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ وَجَهَ لُوِيْزَا كُلَّمَا رَأَتْ السَّيِّدَ هَارْثَهَاوُسَ .
وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « هَذَا حَسَنٌ لِلْعَايَةِ . إِنَّ الْمَقْدَّرَ سَيَكُونُ . »

الفصل السادس عشر

لَمْ يَكُنْ هَارْثَهَاوُسَ أَقَلَّ سَعَادَةً صَبِيحَةَ الْيَوْمِ التَّالِي ، فَقَدْ كَانَتْ آيْسَامَةُ لُوِيْزَا
لَهُ تَسْطَعُ أُمَامَ عَيْنَيْهِ فِي جَمَالٍ وَرَفَقَةٍ بِالْعَيْنِ . وَبَدَتْ لَهُ عَيْنَاهَا ، كَمَا وَصَفَهُمَا
لِنَفْسِهِ ، جَوْهَرَتَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ . وَظَلَّ طَوَالَ يَوْمِهِ يُكْرِّرُ ذَلِكَ .

وَفِي حَوَالِي السَّادِسَةِ عَادَ مِنْ أَخْبَدِ الْإِجْتِمَاعَاتِ . وَبَيْنَمَا كَانَ يَقُودُ جِصَانَهُ إِلَى
الْإِسْطَبْلِ ظَهَرَ أُمَامَهُ فَجَاءَ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي ، وَصَاحَ قَائِلًا : « هَلْ بَلَغَكَ الْبَيَّا
بَا هَارْثَهَاوُسَ ؟ »



رَدَّ هَارْتِهَاوُس : « أَيُّ تَبَا ؟ »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ سَطَا اللَّصُوصُ عَلَى الْبَنْكِ الَّذِي أَمْلِكُهُ . »

قَالَ هَارْتِهَاوُس : « لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ صَحِيحًا يَا سَيِّدِي ! »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « بَلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ . لَقَدْ سُرِقَ الْبَنْكُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ، وَاسْتَخْذَمَ اللَّصُوصُ مِفْتَاحًا مُصْطَنَعًا . »

سَأَلَهُ هَارْتِهَاوُس : « كَمْ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَيْسَ هَذَا هُوَ الْمُهَمُّ يَا رَجُلُ . لَمْ يُسْرَقِ الْكَثِيرُ فِي الْوَقْعِ ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُسْرَقَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . »

كَرَّرَ هَارْتِهَاوُس سُؤَالَهُ : « كَمْ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَمْ يُسْرَقِ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ جُنْيَهَا . وَلَكِنَّ الْمَبْلُغَ لَيْسَ هُوَ الْمُهَمُّ ، إِنَّمَا الْمُهَمُّ هُوَ أَنْ يَنْكِي قَدْ سُرِقَ . »

أَيْدَهُ هَارْتِهَاوُس قَائِلًا : « هَذَا صَحِيحٌ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، وَلَكِنِّي سَعِيدٌ بِأَنَّ اللَّصُوصَ لَمْ يُسْرِقُوا مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي غَاضِبًا : « شَكَرَا لَكَ . لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَصِلَ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ جُنْيَةٍ . لَوْ لَمْ يَخْذَلْ مَا أُرْغَجِ اللَّصُّ وَقْتُ خُدُوثِ السَّرْقَةِ ، فَأَنَا يَا سَيِّدِي صَاحِبُ الْبَنْكِ الْوَحِيدِ فِي كُوكْتَاوَن . »

وَصَلَتْ فِي بَلِّكَ اللَّخْطَةُ لَوِيزَا وَالسَّيِّدَةُ سِبَارِسِت وَبِيتَزَر . وَاسْتَأْنَفَ بَاوْنِدِرِي

كَلَامَهُ : « هَا هِيَ ذِي آتَنَةِ ثُومٍ غَرَادُغَرَانِد . لَقَدْ أَتَهَارَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، عِنْدَمَا أَخْبَرْتُهَا بِمَا حَدَثَ . »

لَاخِظَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاوُس مَا بَدَأَ عَلَى وَجْهِ لَوِيزَا مِنْ شُحُوبٍ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا مَادًّا ذِرَاعَهُ لَهَا . أَمَّا بَاوْنِدِرِي فَقَدْ أُمْسَكَ بِضَيْقٍ بِذِرَاعِ السَّيِّدَةِ سِبَارِسِت ، وَسَارُوا جَمِيعًا مُتَجَهِّينَ إِلَى الْبَيْتِ .

سَأَلَ هَارْتِهَاوُس بَاوْنِدِرِي : « كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْفَطِيعُ ؟ »

أَجَابَهُ بَاوْنِدِرِي : « هَذَا هُوَ مَا كُنْتُ سَأْخُيْرُكَ بِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تُكُنْ مُهْتَمًّا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مِقْدَارِ مَا سُرِقَ عَلَى وَجْهِ التَّخْذِيدِ ! إِنْ مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّنَا أَغْلَقْنَا الْبَنْكَ أَمْسَ بَعْدَ الظُّهْرِ كَعَادَتِنَا ، وَكَانَ فِي غُرْفَةِ الْخِزَانَةِ الْمُحَصَّنَةِ مَبْلُغٌ كَبِيرٌ مِنَ أَمْوَالِ . وَكَانَ بِالْخِزَانَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي بِمَكْتَبِ ثُومٍ مَبْلُغٌ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ جُنْيَهَا . »

تَدَخَّلَ بِيَتَزَرُ مُصَحِّحًا : « بَلْ كَانَ بِهَا مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ جُنْيَهَا وَسَبْعَةٌ شِلِنَاتٍ . »

وَكَاذَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي يَنْفَجِرُ غَيْظًا فَصَاحَ قَائِلًا : « لَا تُقَاطِعْنِي يَا بِيَتَزَرُ ! إِنِّي مَا سُرِقْتُ إِلَّا لِأَنَّكَ كُنْتَ تَنْعَمُ بِثُومِكَ . كَانَ ثُومٌ قَدْ أَغْلَقَ خِزَانَتَهُ وَبَدَاخِلَهَا مِئَةٌ وَخَمْسُونَ جُنْيَهَا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَوَجَّهَ بِيَتَزَرُ لِنِيَامٍ عَلَى سَرِيرِهِ فِي مَوْجِعِهِ الْمُجَاوِرِ لِمَعْرِفَةِ الْخِزَانَةِ الْمُحَصَّنَةِ ، وَأَثْنَاءَ اللَّيْلِ ثَمَّكَ لَصٌّ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ فَتَحَ الْخِزَانَةَ الصَّغِيرَةَ ، وَسَرَقُوا مَا بِهَا مِنْ ثَقُودٍ . وَيَتَدَوُّ أَنْ شَيْئًا مَا قَدْ أُرْغَجَهُمْ أَثْنَاءَ ذَلِكَ فَهَرَبُوا مِنَ الْبَابِ الرَّئِيسِيِّ الَّذِي كَانَ لَدَيْهِمْ مِفْتَاحٌ مُصْطَنَعٌ لَهُ اسْتَخْدَمُوهُ فِي إِغْلَاقِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهُ . وَقَدْ غُيِّرَ صَبَاحَ الْيَوْمِ عَلَى هَذَا الْمِفْتَاحِ فِي الشَّارِعِ . وَلَكِنَّ بِيَتَزَرَ لَمْ يَزْعِجْهُ شَيْءٌ ، وَاسْتَمَرَّ فِي ثُومِهِ حَتَّى السَّابِغَةِ صَبَاحًا عِنْدَمَا رَأَى خِزَانَتَهُ ثُومٌ وَقَدْ فَتَحَ بِأَيْهَا ،

وَكَسِرَ قُلُوبَهَا ، وَسَرَقَتِ التُّقُودَ مِنْهَا . »

تَلَفَّتْ هَارْتِهَاؤُسُ حَوْلَهُ مُتَسَائِلًا : « أَيْنَ تُوْمَ الْآنَ ؟ »

أَجَابَهُ بَاوْنِدِرِي : « كَانَ يُسَاعِدُ رِجَالَ الشَّرْطَةِ ، وَهُوَ الْآنَ يُتَجَرَّ بَقِيَّةَ أَعْمَالِهِ الْيَوْمِيَّةِ بِأَلْبَنَك . »

عَادَ هَارْتِهَاؤُسُ يَسْأَلُ : « هَلْ لَدَى الشَّرْطَةِ أَيْةُ فِكْرَةٍ عَنْ هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ ؟ »

اِنْفَجَرَ بَاوْنِدِرِي صَائِحًا : « بِطَبِيعَةِ الْحَالِ يَا سَيِّدِي . إِنَّ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي إِذَا مَا سَرَقَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تُكُونَ لَدَيْهِمْ مِثْلُ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا فِي طَيِّ الْكَيْتَمَانِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَلَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْهَا . إِنَّ اللَّصَّ وَاحِدٌ عَلَى الْأَقْلَ مِنَ الْعَمَالِ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ بِتَكَاسُلٍ : « أَمَلُ الْآ لَا يَكُونَ ذَلِكَ اللَّصُّ هُوَ صَدِيقُنَا بِلَاكْبُول . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّهُ هُوَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ خَدَرْتُهُ عِنْدَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِيَ حَيَاتُهُ الزَّوْجِيَّةَ . وَخَدَرْتُهُ الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي ... »

قَالَتْ لُوِيْزَا مُقَاطِعَةً فِي صَوْتٍ خَافِتٍ : « لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِلَاكْبُولَ هُوَ اللَّصُّ . »

صَاحَ بَاوْنِدِرِي قَائِلًا : « إِنِّي أَعْرِفُ هَؤُلَاءِ النَّاسَ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، وَقَدْ رَحَلَ بِلَاكْبُولَ عَنِ الْمَدِينَةِ إِلَى حَيْثُ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَقَرَّهُ تَمَامًا ، مِثْلَمَا فَعَلْتُ أُمِّي عِنْدَمَا تَرَكْتَنِي وَأَنَا طِفْلٌ صَغِيرٌ . فَمَاذَا فَعَلَ قَبْلَ أَنْ يَرَحَلَ ؟ »

وَأَبْسَمَ بَاوْنِدِرِي وَهُوَ يَقُولُ لِهَارْتِهَاؤُسَ : « إِنَّ هَذَا سُؤَالَ تَعْرِفِ السَّيِّدَةِ

سِبَارِسِتِ الْإِجَابَةَ عَنْهُ ، كَمَا يَعْرِفُ بِيَتَزَرُ ذَلِكَ أَيْضًا ، بَلْ وَيَعْرِفُهَا بَعْضُ جِيرَانِ الْبَلَدِ . »

سَأَلَ جِيْمِسُ هَارْتِهَاؤُسَ : « مَاذَا فَعَلَ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ ظَلَّ يُرَاقِبُ أَلْبَنَكَ لَيْلَةً بَلَوَ الْآخَرَى ، وَيُحَوِّمُ حَوْلَ الْمَكَانِ يُرَاقِبُ وَيَتَنَظَّرُ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ مُؤَيَّدًا : « هَذَا ذَلِيلٌ وَاضِحٌ وَكَافٍ . »

اسْتَمَرَ بَاوْنِدِرِي فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « وَلَكِنْ بِلَاكْبُولَ لَيْسَ وَحْدَهُ ، فَهَنَّاكَ أَيْضًا أَمْرَاءُ عَجُوزَ رَأَاهَا النَّاسُ تُرَاقِبُ مَنَزِلِي وَتُرَاقِبُ أَلْبَنَكَ ، وَكَانَتْ تَقِفُ خَارِجَ الْمَنَزِلِ عِنْدَمَا أَتَيْنَا بِلَاكْبُولَ الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي ثُمَّ انْصَرَفَا مَعًا . »

تَذَكَّرَتْ لُوِيْزَا تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ الَّتِي رَأَتْهَا فِي غُرْفَةِ بِلَاكْبُولَ ، وَلَكِنْ بَاوْنِدِرِي أَضَافَ : « نَجِبٌ عَلَيْنَا أَنْ نَلْزِمَ الْهَدُوءَ لِبَعْضِ الْوَقْتِ ، وَلَكِنَّا سَوْفَ نَقْبِضُ عَلَيْهِمَا . فَلَنْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَفْرَا مِنْ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ : « نَجِبُ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمَا الْقَانُونُ أَقْسَى عُقُوبَةٍ . إِنَّ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَسْطُونَ عَلَى الْبَنُوكِ يَسْتَحَقُّونَ أَقْسَى عِقَابٍ . »

اِنْتَفَتَحَ بَاوْنِدِرِي إِلَى زَوْجَتِهِ قَائِلًا : « إِنَّ ذَلِكَ الْمَوْضُوعَ يَا لَوْ قَدْ أَصَابَ السَّيِّدَةَ سِبَارِسِتِ بِالْإِغْيَاءِ ، فَأَعْمَلِي عَلَى تَوْفِيرِ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ لَهَا هُنَا ، فَسَوْفَ تُقْضِي مَعَنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ . »

قَالَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ : « أَشْكُرُكَ كَثِيرًا يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ بِكَ لِأَنْ

تَرْجِعْ نَفْسَكَ بِشَأْنِ رَاحَتِي ، فَأَقُلَّ الْقَلِيلَ يَكْفِينِي . »

بِهَذَا أَخَذَتِ السَّيِّدَةُ سَارِسِتَ مِنْ مَنْزِلِ أُسْرَةٍ يَؤْوِدِرُنِي مَقَامًا لَهَا . وَأَسْعَدَهَا أَنْ تُعَاوِدَ إِبدَاءَ مَشَاعِرِ الشَّفَقَةِ نَحْوَهُ ، وَكَذَلِكَ لَعِبَ الْوَرَقَ مَعَهُ . وَصَارَتْ تُعَدُّ لَهُ شِرَابَهُ الْمُفَضَّلَ السَّاحِنَ كُلَّ لَيْلَةٍ . كَانَتْ تَرْعَاهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، كَأَنَّهَا أُمُّهُ . وَلَمْ يُعْرِ لُويزَا بَلَدَ السَّيِّدَةِ أَيَّ أَهْتِمَامٍ .

وَفِي بَلَدِ الْكَلِيلَةِ عَادَ ثُومٌ إِلَى الْبَيْتِ مُتَأَخِّرًا ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ قَدْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ مَاعِدًا لُويزَا الَّتِي سَمِعَتْ وَقَعَ خَطْوَاتِهِ وَهُوَ يَصْعَدُ الدَّرَجَ إِلَى الطَّائِقِ الْعُلَوِيِّ ، فَلَحِقَتْ بِهِ فِي عُرْفَتِهِ بَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقَ . وَوَجَدَتْهُ قَدْ تَظَاهَرَ بِالنُّومِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَحَاطَتْهُ بِذِرَاعَيْهَا ، فَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ اسْتَبَقَظَ وَهُوَ يَقُولُ : « مَا هَذَا ؟ مَنْ هُنَاكَ ؟ مَاذَا حَدَّثَ ؟ »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « هَلْ تَوَدُّ أَنْ تَقُولَ لِي شَيْئًا يَا عَزِيزِي ثُوم ؟ »

سَأَلَهَا بِدَوْرِهِ : « مَاذَا تُعْنِينَ بِهَذَا يَا لُو ؟ هَلْ كُنْتَ تَحْلُمِينَ ؟ »

قَالَتْ : « لَا تُخَفِ شَيْئًا عَنِّي يَا عَزِيزِي ثُوم ؛ فَمَهْمَا قُلْتَ فَلَنْ يُعَيِّرَ ذَلِكَ مِنْ حَيِّ لَكَ ، وَلَكِنْ قُلْ لِي الْحَقِيقَةَ . »

سَأَلَهَا : « مَاذَا تُرِيدِينَ أَنْ تُعْرِفِي ؟ »

إِخْتَضَّتْهُ بِقُوَّةٍ قَائِلَةً : « لَنْ أَلْمَأُكَ أَبَدًا عَلَى شَيْءٍ يَا ثُوم . وَسَوْفَ أُنْقِذُكَ مِنْهَا كَانَ اللَّحْمُ . هَلْ لَدَيْكَ مَا تَوَدُّ أَنْ تَقُولَهُ لِي ؟ قُلْ نَعَمْ ، وَسَأَقْبَلُهُمْ أَنَا كُلَّ شَيْءٍ . »

قَالَ : « أَنَا لَا أَعْرِفُ مَاذَا تُقْصِدِينَ يَا لُو . أَأَنْتِ فَنَاءٌ عَطُوفٌ وَشَجَاعَةٌ ،

وَلَا شَيْءَ أَتُكِّسُكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَحْ أَفْضَلُ مِنِّي ، وَلَكِنْ عَوْدِي إِلَى فِرَاشِكَ الْآنَ ... عَوْدِي إِلَى فِرَاشِكَ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَكْشِفُ شَيْءًا جَدِيدًا لِلشَّرْطَةِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا ، لَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا ذَكَرَهُ يَؤْوِدِرُنِي الْعَجُوزُ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ أُخْبِرْتُ أَحَدًا عَنْ زِيَارَتِنَا لِإِبْلَاكُيُولِ فِي مَسْكَنِهِ ؟ »

أَجَابَ : « لَا ، فَإِنَّكَ رَغَبْتَ أَنْ يَظَلَّ ذَلِكَ سِرًّا . »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عِنْدَيْدَ أَنْ هُنَاكَ مَنْ سَيَسْطُو عَلَى الْبَلَدِ . »

قَالَ بِسُرْعَةٍ : « وَلَا أَنَا ، فَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَعْرِفَ ؟ »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَرَى أَنَّهُ مِنْ وَاجِبِنَا أَنْ نُبَلِّغَ أَحَدًا بِأَمْرِ بَلَدِ الْزِّيَارَةِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا تَسْأَلِينِي النَّصِيحَةَ يَا لُو . أَفْعَلِي مَا يَحُلُو لَكَ ، فَقَدْ كَانَتْ بَلَدُ الْزِّيَارَةِ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِكَ . »

هَبَّتْ لُويزَا وَاقِفَةً وَهِيَ تَسْأَلُ : « هَلْ تُعْتَقِدُ يَا ثُوم أَنَّ إِبْلَاكُيُولَ سَطَا عَلَى الْبَلَدِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا أَعْرِفُ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « لَقَدْ كَانَ يَبْدُو لِي شَخْصًا أَمِينًا . »

قال : « لقد استعده أن يأخذ ثَقُودًا . وقد تحدثت إليه خارج الغرفة ، وقلت له إنه من حسن طالعه أن يحصل على الجنيهي ، وهذا كل ما أعرفه . ولعله إنسان صالح . »

الفصل السابع عشر

سألته : « ألا تود أن تقول لي المزيد يا ثوم ؟ »

أجاب : « لا شيء ، لذي لأقوله . أ تريدني أن أكذب ؟ »

قالت : « لا ، أنا لا أريد ذلك . »

قال : « حسنًا ! عودي إذا إلى فراشك ، فأنتي متعب . تصبحين على خير يا لو . »

وما إن انصرفت حتى هب ثوم من فراشه بهدوء ، وأغلق باب الغرفة ، ثم ألقى بنفسه على السرير وألحظ في البكاء .

سرعان ما اختلت السيدة سبارست مكان لويزا في منزل أسرة باونديري الريفي . ولم تجد لويزا في ذلك ما يقلقها ، وكانت تقول للسيدة سبارست : « ألمهم أنك تجدين في رعايتك للسيد باونديري متعة . »

كانت السيدة سبارست ترضى شؤون سيدها رعاية طيبة ، فكانت تقدم له الطعام ، وتنتظف ملابسه . وكانت تناوله فبعتة قبل أن يخرج من بيته ، وتقبل يده هابسة : « يا لك من رجل غطوف ... غطوف جدًا ! » وما إن يدير ظهره لها حتى تلوخ بقبضتها في الهواء قائلة لنفسها : « أيها المهرج إنك لا تستحق إلا هذه الزوجة ، ويسعدني أن أراك زوجًا لها . »

ازداد التقارب بين السيد باونديري وبين مديرة منزله ؛ ونتيجة لذلك ... ازداد التقارب بين لويزا والسيد هارثهاوس .

وفي العاشرة من صباح أحد الأيام قدم بينزر من كوكناون حاملًا رسالة تفيد بأن السيدة غراذغرايند تحتضر ، ومن ثم فقد كان على لويزا أن تتوجه إلى ستون لودج على الفور .

كانت لويزا قد زارت بيتها القديم مرتين منذ زواجها ، فقد كان والدها في لندن في معظم الأوقات . ولم تكن الزيارات تريح السيدة غراذغرايند . وعندما

حضرت لويزا وجدت أليث مختلفا كثيرا عما عهدته فيه ، فحرك فيها هذا التغيير الإحساس بالغيرة . فقد وجدت ياليت من الحب أكثر مما عرفت طوال حياتها . وكان الفضل في ذلك يرجع إلى سيسي جوب بكلماتها الحلوة ونظراتها الرقيقة التي غيرت الكثير في شئون لودج .

لم تكن لويزا قد بادلت سيسي الحديث منذ زواجها ، ولكن سيسي استطاعت أن تحظى بحب السيدة غراذغرايند ، وحُب أبنائها الصغار الذين أحبوها حبا حما ، فقد بلغت جين غراذغرايند العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، وكان وجهها يماثل وجه سيسي في الجمال ، ومسلكها يشبه مسلك سيسي في الرقة والعدوية .

وكان لدى السيدة غراذغرايند رسالة تؤد أن تسلمها إلى زوجها عندما يعود إلى المنزل ، فطلبت إلى لويزا أن تتولى ذلك ، وكان صوتها ضعيفا جدا عندما تحدثت إلى أبنيتها .

قالت : « لقد تعلمت الكثير يا لويزا ، كما تعلم أخوك الكثير أيضا . ولكن هناك شيئا نسي والدك — أو فاته — أن يعلمه لك ، وهذا شغل تفكيري كثيرا . »

وآزداد صوتها ضعفا وهي تقول : « لقد كان ذلك يشغل تفكيري عندما أجد سيسي إلى جوارى ولكني لا أستطيع أن أذكر ذلك الشيء ، وقد يستطيع والدك أن يذكركه ، بل يجب عليه ذلك إرضاء لله . »

وماتت الكلمات على شفيتها . وكانت تلك آخر كلمات السيدة غراذغرايند قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، في عصر ذلك اليوم وقبل أن يعود زوجها إلى منزله .

أقامت السيدة سبارسيت مع عائلة باولدرني بضعة أسابيع . وكانت طوال فترة إقامتها تتخيل وجود سلم هائل ينتهي إلى قاع هووة سوداء يقع فيها السيد هارثاوس منتظرا لويزا ، التي تهبط هذا السلم منحيدة نحو هووة العار تلك .

وفي إحدى أماسي الصيف الدافئة كانت لويزا تجلس إلى جوار السيد هارثاوس في الحديقة يناقشان موضوع بلاكبول الذي كانت الشرطة تبحث عنه . وكانت السيدة سبارسيت ترافيهما من نافذة غرفتها ، وقد استرعى انتباهها أن وجه هارثاوس كاذ يلامس شعر لويزا ، ولكنها لم تستطع أن تسمع حديثهما .

سألت لويزا السيدة هارثاوس : « ما رأيك في بلاكبول يا سيد هارثاوس ؟ »

أجابها : « لقد تكلم كثيرا ، بل لعل أفرط في الكلام . »

قالت لويزا : « لقد ترك عندي انطباعا بأنه إنسان شريف ، وإن كنت لا أعرف شيئا عن الرجال أو النساء . »

قال هارثاوس : « يا عزيزتي لويزا . . . » وكان قد بدأ يناديها بذلك الاسم « لقد كان بلاكبول يبدو غاضبا جدا ، كما أنه القى باللوم على باولدرني لما ثعابه كوكناون من متاعب . ولعل فكر أنك في تلك السيد باولدرني ، وسطا عليه كوسيلة سهلة للحصول على المال . »

طلت لويزا صامتة بعض الوقت ، ثم قالت : « إنني ما زلت أذكر وجه بلاكبول ومسلكه ، ولذا فإني لا أوافقك الرأي ، ولكن إذا وافقتك فإن موافقتي من شأنها أن تحفف العيب عن قلبي . »

قال : « إن نوم الصغير يوافقني الرأي . هيا بنا نسير قليلا . »

وسارا في الحديقة معا ، وقد أمسكت لويزا بذراعه ، ولم تكن تعرف عندئذ أنها تهبط وتهبط سلم السيّدة سبارست ، التي كانت تراقب وتنتظر وتأمل أن ترى لويزا وقد تردت في تلك الهوة .

عادت السيّدة سبارست مرّة أخرى إلى شقتها الكائنة فوق البيت ، ولكنها حرصت دائما على أن تقضي بانتظام غطلة نهاية الأسبوع في البيت الريفي . وبعد مرور أسبوعين كان على السيّد باوندرزي أن يذهب إلى المدينة في أمر من أمور عمله ، فطلب من السيّدة سبارست أن تحرص على قضاء غطلة نهاية الأسبوع في بيته الريفي كعادتها . فشكرته على تلك الدعوة ، لكنها لم تذكر له شيئا عن ذلك السلم الهائل الذي خلقته بخيالها .

غادر باوندرزي كوكناون صباح يوم الجمعة ، فدعت السيّدة سبارست — عصر اليوم نفسه — نوم الصغير ليتناول معها الشاي . وفي تمام الرابعة ، وبعد أن أنصرف موظفو البيت ، أغلق نوم بوابته ، وأسرع إلى الطابق العلوي حيث تقيم السيّدة سبارست .

سألته : « لقد فكرت أنك ربما تحب أن تستمتع بوجبة صغيرة يا سيّد نوم . أخبرني . كيف حال السيّد هارثهاوس ؟ »

أجابها وهو يأكل بنهم : « في أحسن حال على ما أظن . لقد كان غائبا طوال الأيام القليلة الماضية . »

قالت : « إنني متعجبة به . هل سيعود قريباً ؟ »

أجابها : « سيعود مساء الغد ، وسوف ألقاه في محطة القطار لتتوجه معا إلى

المدينة لتناول العشاء . ولن يقضي غطلة نهاية الأسبوع في البيت . »

قالت السيّدة سبارست : « يجب عليّ ، لسوء الحظ ، أن أقضي غطلة نهاية الأسبوع هنا . فهل لك أن تبلغ أختك الرقيقة أعذارني . »

أجابها : « هذا إن لم أئس يا سيّدة سبارست ، ولكن ليس في هذا ما يهم ؛ فإني لن أخطري ببال لو إلا عندما تراك . »

بهذه الكلمات الرقيقة عبر الجزو عن شكره للسيّدة سبارست على دعوتها له لتناول الشاي !

وفي مساء يوم السبت وضعت السيّدة سبارست قبعتها على رأسها ، وانشحت سالها وأنصرفت بسرعة إلى محطة القطار . وهناك رفعت الشال فوق قبعتها عندما رأت نوم الذي لم يتعرف إليها . ووصل القطار إلى المحطة وأعقبه آخر ، إلا أن السيّد هارثهاوس لم يصل . وفي النهاية ضاق نوم بالانتظار فغادر المحطة .

وقالت السيّدة سبارست في نفسها : « ليس هذا إلا من تحطيط هارثهاوس . لقد أراد أن يبقى الأخ في المدينة حتى يستطيع ... آه ! إن لويزا قد هبطت إلى القاع ، لقد هبطت السلم وتردت في الهاوية ، ولا بد أن هارثهاوس معها الآن . »

ركبت السيّدة سبارست القطار التالي ، وبعد ساعة ونصف الساعة كانت تغبر الحقل متجهة إلى الحديقة . وكانت نوافذ البيت مفتوحة ، إلا أن السيّدة سبارست سارت في هدوء حول الحديقة وكلها غيور ترقب وإذا تفتت ، ولم تكن تريد أن تبعد عن شجيرات الحديقة . وأخيرا تناهت إلى سمعها أصوات

خافته فميزت صوته وصوتها . إنها حطّة لإبعاد الآخر ، وها هما يجلسان معاً فوق جذع شجرة بالحديقة ، فاقتربت منهما في هدوء ، ولكن ما هذه الضوضاء ؟ إنه الحصان ! حصان هارثاوس ! إذا فهو لم يتّجه إلى البيت ، وإنما ركب حصانه واتّجه به نحوها مباشرة . وأنصت السيدة سباريت إلى صوتيهما ، فسمعت هارثاوس يقول :

« ولكنك وحدك يا أعز الناس ! ماذا أستطيع أن أفعل ؟ »

أجابته لويزا : « ليس هنا . »

أحاطها هارثاوس بذراعيه قائلاً : « أين إذا يا عزيزتي ؟ »

قالت السيدة سباريت في نفسها : « آه ... يا عزيزتي ... إنكما لا تعرفان من يراقبكما . »

وسمعت لويزا تقول : « ليس هنا . يجب أن نتركني وحدي هنا . »

قال : « يا عزيزتي لويزا يجب أن نلتقي في مكان ما . لقد قطعنا ثمانين كيلومتراً على ظهر جوادي حتى القاك ، ولا أستطيع أن أتركك الآن . »

قالت : « بل يجب عليك ذلك . »

وحاولت أن تنهض ولكن ذراعها منعتها . وسمعت السيدة سباريت تقول : « إنني أحبك يا لويزا ، وليس هناك ما هو أهم من ذلك . » وكان صوته يتخفّض أحياناً ليصير همساً ، وكان يتوسّل إليها أحياناً أخرى قائلاً : « لا يمكنك أن تبقى هنا وحيدة بدون صديق ، وستوف أعادِر هذا المكان إذا جئت معي . »

أجابته لويزا في صوت خافت لم تميزه السيدة سباريت ، ولكنها اعتقدت أنهما قد اتفقا على اللقاء ؛ إذ كانت قد سمعت كلمة « الليلة » في وضوح تام .

وأتلق هارثاوس بحصانه بعيداً عن الإسطبل ، أما السيدة سباريت فقد تبعته لويزا إلى البيت ، وكان المطر قد بدأ يتهمر خفيفاً ، ثم ازداد غزارة ، فتوقفت تحت بعض الأشجار لا تعرف ماذا تفعل . ولكن لويزا ظهرت فجأة مرة أخرى ، وكانت ترتدي معطفاً ، فقالت السيدة سباريت لنفسها : « ستوف تهرب معي . لقد سقطت بالفعل في الهوة ! »

أسرعت لويزا إلى محطة القطار لتبعها السيدة سباريت عبر الحشائش المبلّلة ، ووسط الظلام الدامس والأمطار الغزيرة . وتوقفت لويزا أثناء سيرها ؛



فَتَوَقَّفتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ أَيضًا ، وَعِندَما وَاصَلَتْ لُويزا السَّيْرَ تَبِعَتْها السَّيِّدَةُ
سِيارِيتَ يَدُورِها وَهي تَلَوِّحُ بِقَبْضَتِها في أَلهِواءِ .

وَصَلّا إلى المَحْطَّةِ فَطَلَّتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ رَأْسَها بِالكِشالِ . وَرَكِبَتِ السَّيِّدَتانِ
القِطارَ المُتَّجِهَ إلى كُوكْتاون . وَكانَتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ تُحَدِّثُ نَفْسَها قائِلَةً :
« يَجِبُ أَنْ أَتَّبِعَها . ثَري أَيْنَ سَتَقابِلُهُ ؟ »

وَعِندَما وَصَلَ القِطارُ إلى كُوكْتاون . كانتِ المَدِينَةُ غارقةً في مِياهِ أَشْبَهَ بِمِياهِ
الْفَيْضانِ ، وَانْدَفَعَ حَمْسُونَ أَوْ سِتُونَ مِنْ رُكَّابِ القِطارِ مُتَّجِهِينَ إلى العَرَباتِ الَّتِي
أَصْطَلَقَتْ خارجَ المَحْطَّةِ . وَطَلَّعتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ إلى كُلِّ هَذِهِ العَرَباتِ
وَتَمَحَّصَتْها بَحْثًا عَنِ لُويزا ، وَلَكِنَّها لَمْ تَجِدْها . فَقالَتْ في نَفْسِها : « إِنَّها لا تَزالُ
في القِطارِ ، وَستَترُكُ في المَحْطَّةِ التَّالِيَةِ حَيْثُ سَتَقابِلُهُ ! » وَعادَتْ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ
القِطارِ وَأَخَذَتْ تُجْري بِجانِبِهِ جِئَةً وَذَهابًا وَهي تَنْظُرُ داخِلَ العَرَباتِ مِنْ خِلالِ
نوافِذِها ، وَلَكِنَّها لَمْ تَجِدْ لُويزا . وَتَحَرَّكَ القِطارُ تارِكًا السَّيِّدَةَ سِيارِيتَ وَقَدْ
بَلَّغَتْها المِياهِ ، وَتَمَلَّكَها العَظْبُ وَالضَّيقُ بَعْدَ أَنْ خابَتْ آمالُها ، فَانْفَجَرَتْ باكِيةً ،
ثُمَّ قالَتْ : « لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ أَثَرِ لَها ! »

كانَ السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ يَقْضِي عَطْلَةً نِهايةَ الأُسبوعِ في بَيْتِهِ ، وَكانَ يَرْقُبُ
العاصِفَةَ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ عِندَما فَتَحَ البابَ ؛ فَالْتَفَتَ بِسُرْعَةٍ لِيَري لُويزا أَمامَهُ تَخْلُجُ
قُبْعَها وَتُخاطِبُهُ قائِلَةً : « يَجِبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ يا أُمِّي . »

قالَ : « لُويزا ! ماذا حَدَثَ ؟ أَرَأَيْكَ مُبْتَلًةً . هَلْ كُنْتَ تُسِيرِينَ وَسَطَ هَذِهِ
العاصِفَةِ أَلَهُوَ جِاءَ ؟ »

أجابَتْ : « نَعَمْ . » وَيَبْدُو أَنَّها لَمْ تَلْحَظْ مَلايِسَها المُبْتَلَّةَ ، وَتَرَكَتْ مِعْطَفَها

سَقَطَ على الأَرْضِ وَقَدْ شَحِبَ لَوْنُها وَارْتَعَدَ جَسَدُها . وَشَعَرَ وَالْذَها بِالْخَوْفِ
عَليها ، إِلا أَنَّها مَدَّتْ يَدَها الباردةَ وَوَضَعَتْها على ذِرَاعِهِ قائِلَةً : « لَقَدْ تَوَلَّيْتُ يا أُمِّي
لِرَبِّيتِي وَتَدْرِيبِي مِنْذُ طُفُولَتِي . »

قالَ : « نَعَمْ يا لُويزا . »

قالَتْ : « إِنَّكَ لَمْ تُمَنِّحْني شَيْئًا يَنْفَعُني في حَياتي . أَيْنَ ذَلِكَ الحُبِّ الَّذِي كانَ
مِنَ الواجِبِ أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي ؟ إِنَّ قَلْبِي خاوٍ . هَلْ تَذْكَرُ آخِرَ مَرَّةٍ تَحَدَّثْنا فِيها في
هَذِهِ الغُرْفَةِ ؟ »

لَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ مُسْتَعِدًّا لِسَماعِ مِثْلِ هَذِهِ الكَلِماتِ الَّتِي قالَتْها
أَبْنَتُهُ ، فَأَجابَها دُونَ تَفْكيرٍ : « نَعَمْ يا لُويزا أَذْكَرُ ذَلِكَ . »

قالَتْ : « كَمْ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّكَ ساعَدْتَنِي وَقَتَها . إِنَّني لا أَلومُكَ أَلاَّ يا أُمِّي على
أَيِّ شَيْءٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ بِاسْطِطاعَتِكَ يَوْمًا أَنْ تُعَلِّمَ الآخَرِينَ أَشْياءَ لا تُعَلِّمُها أَنْتِ
لِنَفْسِكَ . وَلَكِنْ أَهْ ، لَوْ أَنَّكَ عَلَّمْتَنِي الأَشْياءَ الصَّحِيحَةَ أَوْ لَمْ تُعَلِّمْنِي شَيْئًا على
الإِطلاقِ . لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَفْضَلَ وَأَسْعَدَ حالًا مِمَّا أَنَا فِيهِ . »

أُحْنِي السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ رَأْسَهُ عِندَ سَماعِهِ هَذِهِ الكَلِماتِ ، وَقالَ : « يا طِفْلَتِي
المِسْكِينَةُ لَمْ أَكُنْ أَغْرِفُ أَنَّكَ غَيْرُ سَعِيدَةٍ . »

قالَتْ : « أُمّا أَنَا فَكُنْتُ أَغْرِفُ ذَلِكَ دائِمًا . فَكُلُّ ما تُعَلِّمُهُ كانَ خَطَأً يا أُمِّي ،
وَمَا كُنْتُ أَجِدُ السَّلْوى إِلاَّ في ... » وَصَمَمَتْ قَليلًا ثُمَّ قالَتْ : « في فِكْرَةٍ واحِدَةٍ ،
وَهي أَنَّ الحِياةَ قَصِيرَةٌ . »

قالَ مُشْفِقًا : « وَلَكِنَّكَ صَغِيرَةٌ السِّنِّ يا لُويزا ! »

قالت : « نعم ، لقد دبرّت أمر زواجي ورشحت لي زوجاً . وقد قبلته لأنه لم يكن هناك ما يستحق المناقشة ؛ فقد كنت أعرف أنني لا أجيئه . وكنت أعرف أنك ذلك أيضاً ، وكان هو أيضاً يعرفه . لقد كنت أمل أن أمد يد المساعدة لثوم ؛ لأنه كان يُشارِكني في تعاسي ، وكان هو الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أشعر نحوه بأحاسيس الحب والشفقة . لقد كان هو السبب والمنهزم . ولكن هذا لا يعني شيئاً الآن ، وإن كان من الممكن لك أن تبدي بعض العطف على ثوم يا أبي . »

وأخذها والدها بين ذراعيه قائلاً : « ماذا أستطيع أن أفعل يا طفلي ؟ اطلبي ما تشائين . »



قالت : « أريد مُساعدتك يا أبي ، فإن لي صديقاً يختلف عن كل من عرفتهم من الرجال : فهو إنسان عطوف له تجارته في الحياة ، ولا يدعي الأهمية ، ويُشارِكني بعض أفكاره ، ويهتم بأمره . »

قال السيد غراذغرايند وهو يرتعد : « يهتم بك يا لويزا ! »

قالت : « إنه يهتمني يا والدي ، بل يستطيع أن يقرأ أفكاره . لقد تبين بسرعة الحقائق التي أحاطت بزواجي . إنني لم أرتكب خطأ يا أبي . وقد ترغب في أن تسألني هل أجيئه أم لا ؟ حسناً ، إنني لا أعرف ، ولكنني أستطيع أن أقول لك من المحتمل أن أجيئه . ثم رفعت يديها عن كتفي والدها ، وبذلت جهداً هائلاً لتسهي حديثها ، فقالت : « لقد أخبرني مساء اليوم أنه يجيني ، ويتنظر أن أقابله ، ولا أظن أنني أشعر بالأسف أو بالحجل مما أفعل ، وإن كنت أعرف أمراً واحداً هو أن تعليمك لي يا أبي لن يكون فيه خلاصي ، ولن يتقذني مما أنا فيه ، ويجب عليك أن تجد سبيلاً آخر لإلغادي . »

وعندما وجدها تتهاوى على الأرض ، أمسكها بقوة ، ولكنها أطلقت صرخة مروعة قائلة : « ساموث إن أمسكتني ! دعني أسقط ! دعني أسقط ! »

أرقدتها على الأرض عند قدميه ليرى أمام ناظره كل كبرياء قلبه ، وكل ما خونه أفكاره من حقائق مُمدداً على الأرض .

الفصل الثامن عشر

قضت لويزا ليلتها في سئون لودج ، وعندما استيقظت في الصباح وجدت نفسها في غرفتها القديمة . وكانت سيسي قد حملتها إلى فراشها بمساعدة الخادمة ، وقضت شطراً من الليل بجوارها .

جاءت إليها شقيقته الصغرى جين وأخذتا تتحدثان معا .

سألتها جين : « هل أعجبتك غرفتك ؟ لقد حافظت سيسي على وضع الغرفة منذ أن تركت البيت . »

شعرت لويزا بما تتمتع به شقيقته من رقة وغدوية . وعندما جاء والدهما السيد غراذغرايند إلى الغرفة انصرفت جين ، وساد الغرفة مشهد خزين ؛ إذ ألقى السيد غراذغرايند باللآلئة على نفسه بسبب ما تعرضت له أبنته من متاعب وصعاب في حياتها ، رغم أنه كان يعتقد دائماً في صواب آرائه وأفكاره عن التربية .

سألها : « هل يمكن يا أبتني العزيزة أن تتوافر لأي شخص الحكمة في اتجاهين أو مجالين مختلفين ؟ يعتقد البعض أن ذلك ممكن ، وأنه يمكن أن يكون للقلب ما للعقل من حكمة ، إلا أنني لم أومن بصحة ذلك الرأي ؛ ولعلي كنت مخطئاً في ذلك . »

ومد غراذغرايند يده ولمس خصلات شعر لويزا التي كانت تغطي وسادتها ،

وأضاف قائلاً : « كثيراً ما كنت أتعيب عن ألبيت ، ولكن أولادي كان لهم مدرستهم دائماً ، وسار في تعليمهم على المنهج نفسه الذي سرت أنا عليه ، وكانت معهم سيسي بطبيعة الحال ولفترة طويلة . فهل تعتقدين يا عزيزتي أن جين أسعدت حالاً منك ؟ »

قالت لويزا : « إن إجابة هذا السؤال ترسيم على وجهها . فإن كانت قد استطاعت أن تتجنب ذلك الطريق الذي سلكته لوجب عليها أن تسجد لله شكراً . »

قال والدها : « إنك يا صغيرتي وإن كنت لا تنحين باللوم علي ، إلا أنني ألوم نفسي . » وأخى رأسه وهو يقول بهدوء : « يبدو أن الحب قد غمر الكثير في هذا البيت ، فهناك أمور لم يفلح العقل في تغييرها ، وما كان باستطاعته أن يغيرها ، فتولى القلب تغييرها في هدوء . فهل تصدقين هذا ! إنني الآن أقر بذلك بكل تواضع . »

ولما وجدها أغمضت عينيها ، ولم تجبه عن تساؤله ، خرج من الغرفة في هدوء ، ولكن لويزا استرجعت في ذاكرتها ذلك اليوم الذي تحدثت فيه إلى والدها بشأن زواجها ، يوم أن كانت سيسي تجلس إلى جوار فراشها ، وتنظر إليها نظرات كلها إحساس بالشفقة ، وهي نظرات لا تستطيع أن تمحوها من ذاكرتها أو تغفرها لها ، وآلان ها هي ذي الشجيرة ، أن أبتة المهرج هي التي جلبت الحب إلى البيت .

وبينما هي غارقة في أفكارها شعرت بيد دافئة تلمس رقبتها ، ولكنها لم تفتح عينيها ، وإن كانت قد شعرت بالدموع تملأهما . وشعرت بمن يلمس بوجنتيه

الْمِلَّةَ وَجَنَّتْهَا ، فَمُتَظَاهَرَتْ بِأَنَّهَا اسْتَقْبَلَتْ لِقَاَهَا مِنْ أَلْتَوْمِ لِتَجِدَ سِيسِي أَمَامَهَا
تَقُولُ : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ أُرْعَجْتُكَ . هَلْ لِي أَنْ أَبْقَى هُنَا مَعَكَ ؟ »

أَجَابَتْهَا لُويزَا : « وَلَكِنْ أُخْتِي سَتَقْبَلُكَ ، فَأَنْتِ كُلُّ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . »

قَالَتْ سِيسِي : « كَمْ أَوْدُ أَنْ أَكُونَ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ أَنْتِ . »

نَهَضَتْ لُويزَا مِنْ فِرَاشِهَا وَوَقَفَتْ بِجَوَارِهِ ، وَسَأَلَتْهَا : « هَلْ أُرْسَلُكَ وَالَّذِي
إِلَى هُنَا . »

أَجَابَتْهَا : « لَا ، لَمْ يَرْسَلْنِي ، وَلَكِنَّهُ قَالَ إِنِّي اسْتَطِيعُ أَنْ أَجِيءَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ
لَعَلَّكَ لَا تَرْغِبِينَ فِي بَقَايَ . »

سَأَلَتْهَا لُويزَا : « هَلْ كَرِهْتِكِ يَوْمًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؟ »

أَجَابَتْهَا سِيسِي : « أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ صَحِيحًا ، فَقَدْ أُخْبِئْتُكَ دَائِمًا ، وَقَدْ
تَغَيَّرَ الْكَثِيرُ مِنْ طَبْعِكَ قَبْلَ أَنْ تَتْرَكِي الْبَيْتَ . وَلَمْ أَذْهَبْ لِدَلِّكَ كَثِيرًا ، فَقَدْ كُنْتُ
فِي غَايَةِ الذِّكَاةِ وَالْمَهَارَةِ عَلَى حِينِ كُنْتُ أَنَا غَايَةَ فِي الْعَبَاءِ . » وَأَضَافَتْ وَقَدْ غَلَتْ
الْحُمْرَةُ وَجَنَّتْهَا : « وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَجْرَحْ مَشَاعِرِي . »

كَانَتْ مَشَاعِرُ سِيسِي قَدْ جُرِحَتْ بِالْفِعْلِ ، وَكَانَتْ لُويزَا تُدْرِكُ ذَلِكَ ، فَتَنَاقَلَتْ
يَدَ سِيسِي قَائِلَةً : « إِنِّي مُتَكَبِّرَةٌ وَقَاسِيَةٌ ، وَكَثِيرًا مَا تَمْلِكُنِي الْعُضْبُ حَتَّى إِثْنِي
كُنْتُ أَظْلَمُ الْآخَرِينَ بِمَنْ فِيهِمْ نَفْسِي . أَلَا تَجِدِينَ فِي هَذَا مَا يَذْفَعُكَ إِلَى
كَرَاهِيَّتِي ؟ »

أَجَابَتْهَا : « نَعَمْ . »

قَالَتْ لُويزَا : « كَمْ يُخْزِنُنِي يَا سِيسِي أَنْ أَجِدَنِي قَدْ بَدَأْتُ مُوَحَّرًا أَذْرِكُ أَبْسَطَ
الْحَقَائِقِ ! إِنْنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعَلِّمُنِي الْإِحْتِرَامَ وَالشَّرَفَ وَالْحُبَّ . أَلَا تَجِدِينَ
فِي ذَلِكَ مَا يَجْعَلُكَ تُكْرِهْنِي ؟ »

أَجَابَتْهَا سِيسِي : « نَعَمْ . »

أَلْفَتْ لُويزَا بِنَفْسِهَا عِنْدَ قَدَمَيْ سِيسِي وَأَمْسَكَتْ بِذَيْلِ ثَوْبِهَا قَائِلَةً : « إِغْفِرِي
لِي يَا سِيسِي ! إِرْحَمِينِي وَسَاعِدِينِي ! اسْتَمَحِي لِي أَنْ أَضَعَ رَأْسِي عَلَى قَلْبِكَ
الْمُحِبِّ ! »

صَاحَتْ سِيسِي قَائِلَةً : « بِالطَّبْعِ يَا غَرِيزَتِي ! » وَضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا .

بَقِيَ جِيَمْسُ هَارْتْهَاوسُ مُنْتَظِرًا بِالْفُنْدُقِ ، لَعَلَّهُ يَتَلَقَّى رِسَالَةً مِنْ لُويزَا ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَتَلَقَّ شَيْئًا . وَاعْتَدَرَ لَيْتُومُ الصَّغِيرَ عِنْدَمَا قَابَلَهُ يَوْمَ الْآخِذِ .

كَانَ ثُومُ يَشْعُرُ بِالْقَلَقِ ، وَشَكَا مِنْ أَنْ يَبْتَزِرَ بَدَأُ يَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَكَانَ
السَّيِّدُ بَاوْنِدِرْزِي مُتَعَبًا ، أَمَّا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتْ فَقَدْ غَادَرَتْ مَدِينَةَ كُوكْتَاوَنَ فِي
عَرَبِيَّةٍ بِصُورَةٍ غَامِضَةٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ .

إِنْتَابَ الْقَلَقُ السَّيِّدَ هَارْتْهَاوسَ مَسَاءَ الْآخِذِ ، إِذْ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ
كَشَفَ عِلَاقَتَهُ بِلُويزَا ، أَوْ لَعَلَّ بَاوْنِدِرْزِي قَدْ عَرَفَ سِرَّهُمَا . وَكَانَ يَتَسَاءَلُ : أَيْعِيبُ
عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَجِمَ فِي عِرَاكِ مَعَ زَوْجِ لُويزَا ؟ لَكِنَّهُ قَالَ فِي نَفْسِهِ : « إِنْنِي لَا أَجِدُ
الْمَلَائِكَةَ . »

وَحَاوَلَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهَدُوءِهِ ، فَطَالَمَا تَمَالَكَ نَفْسُهُ إِزَاءَ الْعَدِيدِ مِنَ الصَّعَابِ .
وَلِهَذَا لَمْ يَرِ فِي تِلْكَ الْمَشْكِلَةِ الصَّغِيرَةِ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِ عِشَاءَهُ ؛ فَتَنَاقَلَ

عشاءه بشهية ، ثم استغرق في قراءة كتاب إلى أن جاءه أحد خدم الفندق قائلا :
« ثمة سيّدة ترغب في مقابلتك يا سيدي . »

هَبْ وافقا بسرعة وهو يقول : « ترغب في مقابلتي ؟ أدخلها يا رجل . »

دخلت الغرفة فتاة لم يسبق أن رآها هارثاوس من قبل ، وكانت ترتدي ملابس
بسيطة ، وكانت على قدرٍ وافٍ من الجمال والهدوء . سألتها : « هل أنت السيّد
هارثاوس ؟ »

أجابها : « نعم . » ثم همس لنفسه : « إن عينيها من أجمل ما رأيته في
حياتي . »

قالت : « إن رسالتي إليك سيّدة يا سيدي ، فهل أعتد عليك في الحفاظ على
سيّرتيها ؟ »

أجابها : « في استطاعتك ذلك . »

قالت : « لعلك الآن قد استتجبت سبب وجودي هنا . »

قال هارثاوس محدثا نفسه مرّة أخرى : « ولها صوت جميل أيضا . » ثم
قال لها : « إنني قلق على إحدى السيّدات منذ أمس ، فهل قدمت من عندها ؟ »
أجابته : « نعم . »

سألها : « وأين هي الآن ؟ »

أجابته : « إنها في بيت والديها . فقد ذهبت هناك ليلة أمس على عجل أثناء
العاصفة ، وأنا أعيش في هذا البيت ، وقد قضيت ليلتي معها ، ويمكنني أن أؤكد
يا سيدي أنك لن تراها مرّة أخرى . »

تنفّس هارثاوس نفسا عميقا في محاولة منه لأن يمين تفكيره فيما يسمع ؛
فهذه الفتاة رغم صغر سنّها قالت الحقيقة ، كما تفهمها دون ادعاء أو مواربة .
قال لها : « كم يذهشني ذلك ! هل كلّفك تلك السيّدة بتفيل هذه الرسالة
اليائسة إليّ ؟ »

أجابته : « لا ، إنها لم تفعل ذلك . »

قال : « إذا فليست تلك رغبتها . وربما سارها مرّة أخرى . »



قالت له : « ليس هناك أدنى أمل في ذلك يا سيدي ، وعليك أن تصدق ما أقوله . »

قال : « علي أن أصدق ؟ ولكني لا أريد ولا أستطيع أن أصدق ... »

قاطعتة سيسي قائلة : « تلك هي الحقيقة : لا أمل في أن تراها إطلاقاً . »

حاول هارثهاوس أن يتنسيم لها ، ولكن آيسامته ضاغت هباء ، فقد كان تفكيرها مشغولاً بعيداً عنه ، فقال لها : « حسناً ! يبدو أنك واثقة بما تقولين . ولكن هذه السيدة لم ترسلك إلي ... وهذا صحيح ، أليس كذلك ؟ »

أجابته : « إن حبي لها هو الذي أتى بي إلى هنا ، وحُبها لي هو الذي يقود خطاي . فانا عرفت كل ما يدور بعقلها وبقلبها . لقد حكّت لي عن زواجها ، وحكّت لك أيضاً لأنها وثقت بك . »

شعر هارثهاوس بالآلم يلمس قلبه فقال : « لعل أولئك الذين يتقون بي غير حكماء ؛ فوالد هذه السيدة آله ، وأخوها جزو ، وزوجها دب . فإذا كنت قد سببت لها المتاعب ، فكُل ما أستطيع قوله إنني ما أزدت يوماً الإساءة إليها بأي شكل من الأشكال . وآلان أراك تلوميني يا سيدي الشابة ، وهذا يعني أنني قد ارتكبت خطأ ، وقد أقبل ذلك منك وإن كنت لا أقبله من أي شخص آخر . ولا أعتقد أن صفاتي سوف تتغير ، ومن ثم يجب أن أعود نفسي على ذلك الموقف الجديد ، وهو أنني قد لا أرى تلك السيدة مرة أخرى . »

قالت سيسي بمزيج من الرقة والحزم : « يجب عليك أن تصلح ما أفسدته بأن تغادر هذه المدينة . لا تغد إليها مرة أخرى . وليس هذا عليك بكثير ، كما

أنه ليس في ذلك ما يكفي ، ولكنه شيء ما وإن كان ضرورياً ، وهذا سير يني وبينك يا سيّد هارثهاوس . غادر كوناون الليلة ولا تغد إليها أبداً . »

قال : « ولكني ... ولكني هنا في مهمة عامة ، وقد يكون ذلك غباء مني ولكني سأدخل البرلمان ، وتلك هي الحقيقة . »

قالت : « عليك أن ترحل الليلة يا سيّد هارثهاوس . »

قال : « فكّر في العار ! » وتوقف هنيهة ثم سأل : « ولكن إذا ذهبت فهل يظل سبب مغادرتي طيّ الكتمان ؟ »

أجابته : « سأبقى بك يا سيدي ، وستبقى بي . »

راح هارثهاوس يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يضع دقايق ، ثم عاد إلى سيسي وضجك قائلاً : « إن المقدّر سيكون ، وهذا هو ما سيكون . لقد هزمتني يا سيدي الشابة ! وآلان هل لي أن أعرف اسم خصمي . »

سألته : « اسمي أنا يا سيدي ؟ » ثم ألجّهت نحو الباب .

أجاب : « نعم ، وهو الاسم الوحيد الذي أود أن أعرفه الليلة . »

قالت : « سيسي جوب . »

سألها : « هل أنت من أقارب السيدة ؟ »

أجابته : « لا ، إنني ابنة مهرج من مهرجي السيرك ، تركني والدي وأخذني السيد غراذغرايد رحمة بي ، وأعيش في بيتي منذ ذلك التاريخ . » وغادرت

تهاوى السيد هارثاؤس جالساً وهو يقول لنفسه : « إن هذا ما يكتمل به العار . إنَّه مُهْرَجٌ بالسَّيْرِك ! وها هي ذي قد أفلحت في أن تجعل هارثاؤس خائماً في إصبعها الصغير . »

ترك هارثاؤس رسالة صغيرة لأخيه قال فيها : « أخي ، لقد ضيقت ذرعاً بكوثناون ، فقررت أن أذهب إلى مصر . وسوف أكتب إليك مرة أخرى من القاهرة .

جيم . »

بعد ذلك بساعة واحدة ركب هارثاؤس وخادمه القطار المتجه إلى لندن .

الفصل التاسع عشر

نبتت السيدة سباريت أن السيد باونديري موجود في لندن ؛ فسافرت إليه صباح يوم الأحد . والتقت به في الفندق الذي ينزل به ، وأبلغته بأن زوجته قد هربت مع السيد هارثاؤس . وفي وقت متأخر من مساء الليلة نفسها ؛ عاد السيد باونديري والسيدة سباريت إلى مدينة كوثناون ، وأتجها مباشرة إلى شتون لودج ، وأفتحا غرفة السيد غراذغرايند .

صاح باونديري : « يا غراذغرايند ، لدى السيدة سباريت ما تؤذ أن تقول لك عن آبتيك الذكيّة . »

دهش غراذغرايند ، وقال له : « لقد أرسلت إليك خطاباً ليلة أمس . ويبدو أنك لم تتسلمه بطبيعة الحال ... »

قاطعه باونديري صائحاً : « إنَّه ليس وقت خطابات يا سيدي ! أخبريه يا سيدي ! أخبريه بما قلته لي ! »

كانت السيدة سباريت تعاني من المرض منذ ليلة العاصفة ، وعندما حاولت الكلام لم تخرج منها إلا أصوات ضعيفة ، فغضب باونديري وصاح : « اسمع يا ثوم غراذغرايند ! لقد سمعت السيدة سباريت حديثاً دار بين آبتيك وبين صديقك جيمس هارثاؤس . فقد سمعت ... »

قَالَ غِرَاذْغَرَايْنِدُ مُقَاطِعًا : « أَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَا دَاعِي لِأَنْ تُعِيدَهُ عَلَيَّ مَسْمُوعِي . »

صَاحَ بَاوْنِدِرْزِي بِدَهْشَةٍ : « أَتَيْتُ تَعْرِفُ ! وَهَلْ تَعْرِفُ أَيْضًا أَيْنَ أَتَيْتُكَ الْآنَ ؟ ! »
أَجَابَهُ : « بِكُلِّ تَأَكِيدٍ ، إِنَّهَا هُنَا . »

قَالَ : « هُنَا ؟ ! »

قَالَ غِرَاذْغَرَايْنِدُ : « أَرْجُو أَلَّا تَصْرُخَ يَا بَاوْنِدِرْزِي ، لَقَدْ هَرَعْتَ لَوِيزَا إِلَى هُنَا عِنْدَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِهَا مَهْرَبًا مِنْ هَارْتْهَاؤُسَ ، وَسَارَتْ وَسَطَ الْعَاصِفَةِ إِلَى الْبَيْتِ . وَهِيَ الْآنَ مَرِيضَةٌ مُنْذُ لَيْلَةٍ أَمْسَ . »

اسْتَدَارَ بَاوْنِدِرْزِي غَاضِبًا لِحُجُو السَّيِّدَةِ سِيَارْمِيْتِ وَقَالَ لَهَا : « الْآنَ يَا سَيِّدَتِي سَتَوْفَ يُسْعِدُنَا أَنْ نَسْمَعَ آغِيْدَارِكِ ؛ فَإِنَّ قِصَّتِكَ مُخْتَلِفَةٌ . »

بَكَتِ السَّيِّدَةُ سِيَارْمِيْتِ قَائِلَةً : « يَا سَيِّدِي ! يَا سَيِّدِي ! إِنِّي أضعُفُ مِنْ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا ؛ فَأَنَا مَرِيضَةٌ . »

قَالَ لَهَا بَاوْنِدِرْزِي : « حَسَنًا يَا سَيِّدَتِي . إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ لَا تَرَالُ وَاقِفَةً بِالْبَابِ ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَعُودِي بِهَا إِلَى شَقَّتِكَ ، وَتَأْوِي إِلَى فِرَاشِكَ بَعْدَ حَمَامِ سَاجِنِ . »
صَحَّحَهَا بَاوْنِدِرْزِي إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَعَاذَ وَحْدَهُ . وَقَالَ لِعِرَاذْغَرَايْنِدِ بِخُشُونَةٍ : « أَرْجُو أَنْ تُوضِّحَ لِي كُلَّ شَيْءٍ الْآنَ يَا غِرَاذْغَرَايْنِدُ . »

قَالَ غِرَاذْغَرَايْنِدُ : « يُوسُفُنِي أَنَّنَا لَمْ نَفْهَمْ لَوِيزَا فَهْمًا صَحِيحًا . »



قال باولديرني : « لا ثقل نحن يا غراذغرايند ، فقد كنت افهمها دائما . »

قال غراذغرايند : « اذا فانا لم نستطيع ذلك ، وقد اخطأت في تربيتها . »

اجابه : « انك قد اخطأت بالتأكيد . فانا لا اثق باية طريقة تربيه سوى اللطامات يا سيدي ، والضربات القاسية بالعصا . »

قال غراذغرايند : « ولكن هذا غير ممكن تطبيقه على امرأة شائبة يا باولديرني . »

سأله باولديرني بعناء : « ولماذا غير ممكن ؟ »

اجابه غراذغرايند : « لا اهمية لكل هذا الآن ، فعلينا ان نحاول اصلاح ما نجم عن ذلك من ضرر . اريد ان تساعدني ؟ فانا حزين من اجل لويزا . »

قال باولديرني : « لن اعيدك بشيء يا غراذغرايند . »

قال غراذغرايند : « اود ان تترك لويزا معي بعض الوقت . فالذي ستلقاه من حب ورعاية ، سيحقق افضل النتائج ؛ فقد كانت دائما طفلتي الاثيرة . »

سأل باولديرني وقد احمر وجهه : « اود ان تبقيها هنا ؟ »

اجابه غراذغرايند : « يمكننا ان نسمي وجودها هنا زيارة ، كما ان سيسي — اقصد سيسييليا جوب — تفهم لويزا ، ولويزا تثق بها . »

قال باولديرني : « اسمع يا غراذغرايند . انا جوشيا باولديرني من كوكتاون ، والزواج في شرف يبدو ان ابنتك لا تستحقه . ولكن اخبرني ماذا يمكن ان تحقق

تلك الزيارة ؟ »

اجابه غراذغرايند : « لقد اخبرتك بالفعل . ان لويزا غير سعيدة ، وامل ان تساعدني على استعادها . فهل تجد في طلبي هذا شيئا من المغالاة ؟ انك اكبر منها شيئا ، والفرق بينكما كبير ، وانت قبلت ... »

قاطعه باولديرني بغضب قائلا : « اعرف هذا ، وذلك شائي وحدي ! »

قال غراذغرايند : « اننا جميعا قد اخطأنا يا باولديرني ، ونستطيع الآن ان نصحح ما وقع من خطأ . وجميل منك ان توافق على خطتي هذه . »

قال باولديرني : « انني لا اوافق على ذلك يا غراذغرايند . ولكني لن اناجرك معك ، ومن الافضل لصديقك هارثهاوس هذا ان يغادر كوكتاون قبل ان اجدّه في طريقني . ويجب ايضا — بطبيعة الحال — ان تعود ابنتك الى منزلي ، وسانتظرها حتى ظهر الغد ، فان لم تأت فيمكنها ان تبقى هنا الى الابد . »

قال غراذغرايند : « ارجوك يا باولديرني ، بل اتوسل اليك ان تعيد التفكير في هذا الأمر . »

قال باولديرني : « لا يا سيدي ! ان جوشيا باولديرني لا يأخذ قرارا ثم يعيد غته . هذا كل ما اود ان اقله . طابث ليلتك ! »

انصرف السيد باولديرني عائدا الى منزله في كوكتاون . ولم تعد اليه لويزا في اليوم التالي . وعند الظهر تماما اصدر باولديرني اوامره لخدمته : فوضعوا ملابسها في غدر من الصناديق ارسلت الى ستون لودج . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى عرض السيد باولديرني منزله الريفى للبيع .

كَانَ لِهَذَا التَّغْيِيرِ فِي حَيَاةِ بَاوْنْدِرِي مَا أَتَاخَ لَهُ مَزِيدًا مِنَ الْوَقْتِ لِمُبَاشَرَةِ أَعْمَالِهِ .
فَقَدْ أَصْرَّ عَلَى أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ سَطَوْا عَلَى أَيْتِكَ ، وَصَارَ يُحْتَرِّجُ رِجَالَ
الشَّرْطَةِ عَلَى بَذْلِ الْمَزِيدِ مِنَ الْجَهْدِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

انْقَطَعَتْ أَخْبَارُ سَتِيفِنِ بِلَاكُيُول ، وَظَلَّ أَمْرُ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ سِرًّا غَامِضًا ،
وَلَكِنَّ السَّيِّدَ بَاوْنْدِرِي عَرَضَ مُكَافَأَةً قَدَرُهَا عِشْرُونَ جُنْتِيهَا لِمَنْ يَجِدُ بِلَاكُيُول .
وَأَثَارَ هَذَا قَلَقَ رَاشِيلَ عَلَى حِينِ اسْتَعْدَ سِلَاكِيرِيْدَجَ رَئِيسَ بَقَايَةِ الْعَمَالِ . فَإِذَا ثَبِتَ
أَنَّ بِلَاكُيُولَ لَيْسَ لِأَصْبَحَ سِلَاكِيرِيْدَجَ عَلَى صَوَابٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ
رَاشِيلُ بِخَبَرِ تِلْكَ الْمُكَافَأَةِ اسْتَرْعَتْ إِلَى مَنْزِلِ بَاوْنْدِرِي .

وَصَلَّ إِلَى سَتُونِ لُودِجِ ذَاتِ لَيْلَةٍ ثَلَاثَةِ ضُيُوفٍ هُمْ : السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي ،
وَرَاشِيلُ ، وَتُومُ غِرَاذَغِرَايْنِدُ الصَّغِيرُ . وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ رَافَقَتْهُمْ سِيسِي إِلَى غُرْفَةِ
السَّيِّدِ غِرَاذَغِرَايْنِدِ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ إِلَى ابْنَتِهِ لُوزِيَا . وَمَا إِنَّ دَخَلُوا حَتَّى قُبِعَ
تُومُ الصَّغِيرُ فِي رُكْنٍ مُظْلِمٍ مِنَ الْغُرْفَةِ يُجَاوِرُ الْبَابَ . أَمَّا بَاوْنْدِرِي فَقَالَ
لِغِرَاذَغِرَايْنِدِ : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ أُرْغِمْتُكَ ؟ فَقَدْ دَارَ حَدِيثٌ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذِهِ
الْشَّابَةِ . » وَأَشَارَ إِلَى رَاشِيلِ . « وَيَرْفُضُ ابْنُكَ تُومُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ، وَلَعَلَّ السَّيِّدَةَ
بَاوْنْدِرِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ لَنَا الْحَقِيقَةَ . »

وَقَفَّتْ رَاشِيلُ أَمَامَ لُوزِيَا قَائِلَةً : « لَقَدْ سَبَقَ أَنْ تَقَابَلْنَا ذَاتَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ
يَا سَيِّدَتِي . »

سَعَلَ تُومُ الصَّغِيرُ ، وَلَكِنَّ رَاشِيلَ كَرَّرَتْ قَوْلَهَا : « لَقَدْ تَقَابَلْنَا مِنْ قَبْلِ ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ ؟ »

سَعَلَ تُومُ مَرَّةً أُخْرَى ، أَمَّا لُوزِيَا فَأَجَابَتْ : « بَلَى ... لَقَدْ اتَّفَقْنَا . »

سَأَلَتْهَا رَاشِيلُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرِي أَيْنَ اتَّفَقْنَا ؟ وَمَنْ كَانَ مُوجُودًا فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ ؟ »

أَجَابَتْهَا لُوزِيَا : « لَقَدْ اتَّفَقْنَا فِي غُرْفَةِ بِلَاكُيُول ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ مُغَادَرَتِهِ مَنْزِلَ
السَّيِّدِ بَاوْنْدِرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُكَ هُنَاكَ مَعَهُ ، وَكَانَتْ مَعَكُمْ سَيِّدَةُ عَجُوزٍ ، وَكَانَ
مَعِيَ أَخِي . »

عِنْدَئِذٍ سَأَلَ بَاوْنْدِرِي تُومَ : « لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرِي بِذَلِكَ يَا تُومُ الصَّغِيرُ ؟ »

أَجَابَتْهُ تُومُ : « لِأَنِّي وَعَدْتُ أُخْتِي بِأَلَّا أَفْعَلَ ذَلِكَ . »

عَادَتْ رَاشِيلُ تُوجِّهَ أَسْئَلَهَا إِلَى لُوزِيَا فَقَالَتْ لَهَا : « هَلْ لَكَ أَيْتُهَا السَّيِّدَةُ الطَّيِّبَةُ
أَنْ تَذْكُرِي سَبَبَ مَجِيئِكَ إِلَى غُرْفَةِ سَتِيفِنِ ؟ »

أَجَابَتْ لُوزِيَا : « لَقَدْ شَعُرْتُ بِالْأَسْفِ مِنْ أَجَلِهِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُمِدَّ لَهُ يَدُ
الْمُسَاعَدَةِ . »

قَالَ بَاوْنْدِرِي : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدَتِي ! . أَنْخَلِّصْ أَنَا مِنْ الْوَجَلِ ، ثُمَّ أَجِدْكَ
تُسَاعِدِينِي . »

سَأَلَتْ رَاشِيلَ لُوزِيَا : « مَا هُوَ الْمَبْلَغُ الَّذِي قَدَّمْتِهِ لَهُ ؟ »

أَجَابَتْ : « قَدَّمْتُ لَهُ أَرْبَعَةَ جُنْتِيهَاتٍ ، لَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا سِوَى جُنْتِيهِينِ . »

نَظَرَتْ رَاشِيلُ إِلَى بَاوْنْدِرِي بِإِنْفَةٍ ، وَلَكِنَّهُ صَاحَ قَائِلًا : « نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي الشَّابَةُ
يَحِبُّ عَلَيَّ أَنْ أُصَدِّقَ آلَانَ بَعْضَ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي أَخْبَرْتَنِي بِهِ . »

بَدَأَتْ رَاشِيلُ تَبْكِي ، ثُمَّ قَالَتْ لِّلْوِيْزَا : « إِنَّ سَتِيْفِيْنَ بَلَكَوْلَ شَابٍّ أَمِيْنٍ ، وَلَكِيْنُ كُلُّ مَنْ فِي كُوكْتَاوَنَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَطَا عَلَى الْبَنَاتِ . وَهَذَا غَيْرُ صَحِيْحٍ ، وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ . »

قَالَتْ لَوِيْزَا : « إِنِّي فِي غَايَةِ الْآسَفِ . »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « سَتَوْفَ يَعُوْدُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، وَقَدْ اضْطُرُّ إِلَى أَنْ يَتَسَمَّى بِاسْمٍ آخَرَ حَتَّى يَسْتَطِيْعَ أَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا . وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، وَسَتَوْفَ يَعُوْدُ لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِلِصٍّ . »

قَالَ بَاوْنِدِرْنِي ضَاحِكًا : « أَذْكُرِي لَنَا اسْمَهُ الْجَدِيْدَ ! أَخْبِرِينَا أَيْنَ هُوَ ! »

صَاحَتْ رَاشِيلُ : « لَيْسَ هَذَا مِنَ الْعَدْلِ فِي شَيْءٍ ! إِنَّ سَتِيْفِيْنَ لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا ؛ لِذَا فَإِنِّي إِنْ ذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ سَتَوْفَ يُحْضِرُونَهُ . أَلَا تَفْهَمُ ذَلِكَ ؟ لَا دَاعِيِي لِمُطَارَدَتِهِ ، فَسَتَوْفَ يَعُوْدُ مِنْ بَلْقَاءِ نَفْسِهِ . »

قَالَتْ لَوِيْزَا : « إِنِّي أَشْفَقُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي . »

بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ غَادَرَ كُلُّ مَنْ بَاوْنِدِرْنِي وَتَوَمَّ الْمَنْزِلَ ، وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَزِمَ كُلُّ مَنْ أَلْسِيْدَ غَرَاذَغْرَايْنِدَ وَسِيْسِي الصَّمْتَ .

وَالْتَفَتَتْ سِيْسِي نَحْوَ رَاشِيلَ وَسَأَلَتْهَا : « هَلْ يَعْرِفُ سَتِيْفِيْنَ لِمَاذَا يُسِيءُ النَّاسُ الظَّنَّ بِهِ ؟ »

أَجَابَتْ رَاشِيلُ : « لَقَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ شَاهَدُوهُ وَهُوَ يُرَاقِبُ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أُجِدُ سَبَبًا لِدَهَابِهِ هُنَاكَ ، خُصُوصًا وَأَنَّ مَنْزِلَهُ لَيْسَ قَرِيْبًا مِنَ الْبَنَاتِ . »

افْتَرَحَتْ سِيْسِي أَنْ تَذْهَبَ مَسَاءَ الْيَوْمِ الْتَالِي إِلَى مَنْزِلِ رَاشِيلَ لِتَتَأَكَّدَ مِنْ عَوْدَةِ سَتِيْفِيْنَ . وَوَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى ذَلِكَ ، وَانْصَرَفَتْ رَاشِيلُ عَائِدَةً إِلَى بَيْتِهَا .

وَبَعْدَ انْصِرَافِ رَاشِيلَ سَأَلَ غَرَاذَغْرَايْنِدَ ابْنَتَهُ : « هَلْ تَعْتَقِدِيْنَ يَا غَزِيْرَتِي لَوِيْزَا أَنَّ بَلَكَوْلَ قَدْ سَطَا عَلَى الْبَنَاتِ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « لَا يَا وَالِدِي ، إِنِّي وَاثِقَةٌ بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَمِيْنٌ . »

قَالَ : « هَذَا مَا نَظَنُّهُ يَلِكُ الْمَرْأَةِ أَيْضًا . وَلَكِيْنُ هَلْ يَعْرِفُ أَلْصُّ الْحَقِيْقِي مَا يَقُولُهُ النَّاسُ أَلَاآنَ ؟ أَيْنَ هُوَ ذَلِكَ أَلْصُّ الْحَقِيْقِي ؟ مَنْ يَكُونُ ؟ »

لَاخِظْتُ لَوِيْزَا يَلِكُ النَّظَرَةَ الَّتِي ارْتَسَمَتْ فِي عَيْنِي سِيْسِي ، وَالَّتِي رَأَتْهَا مِنْ قَبْلُ : إِنَّهَا نَظَرَةُ تَحْمِيلٍ مَعَانِي الْحُبِّ وَالشَّفَقَةِ . وَجَلَسْتُ لَوِيْزَا إِلَى جَوَارِ وَالِدِهَا .

انْقَضَى الْيَوْمُ الْتَالِي ، وَبَيَّوَمَا بَعْدَهُ دُونَ أَنْ يَصِلَ بَلَكَوْلُ . وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ ذَهَبَتْ رَاشِيلُ إِلَى مَنْزِلِ بَاوْنِدِرْنِي ثَانِيَةً . وَرَغِمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَدْرِي أَنَّ بَلَكَوْلَ بَقِيَ بَعْدَ كَامِلَةٍ ، فَإِنَّهَا أَفْضَتْ بِاسْمِهِ الْجَدِيْدِ وَبَعْتُوَانِي إِلَى أَلْسِيْدَ بَاوْنِدِرْنِي ، وَبَقِيَ سَتِيْفِيْنَ فِي مَدِيْنَةِ تَبَعْدَ عَنْ كُوكْتَاوَنَ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِيْنَ كِيلُوْمِتْرًا .

ذَهَبَ بَعْضُ الرِّجَالِ لِيَأْتُوا بِسَتِيْفِيْنَ ، وَبَقِيَ ثَوَمُ الْأَصْغِيرِ بِجَوَارِ أَلْسِيْدَ بَاوْنِدِرْنِي ، وَكَانَ شَدِيْدَ الْإِنْفِعَالِ إِلَى حَدِّ الْمَرَضِ ، وَكَانَ يَقْرِضُ أَظْفَارَهُ بِأَسْنَانِهِ . وَلَكِيْنُ الرِّجَالُ عَادُوا بِدُونِ سَتِيْفِيْنَ ، وَقَالُوا لَا بُدَّ أَنَّهُ تَلَقَّى رِسَالَةً مِنْ رَاشِيلَ ، فَاسْتَرْعَ بِالْفِرَارِ فِي الْحَالِ . وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ أَيْنَ ذَهَبَ .

انْقَضَى أُسْبُوْعٌ آخَرُ دُونَ أَنْ يَظْهَرَ سَتِيْفِيْنَ . وَيَبْدُو أَنَّ ثَوَمَ اسْتَجْمَعَ قِسْطًا مِنْ

الشَّجَاعَةِ فَأَخَذَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : « إِنَّ بِلَاكُيُولَ هُوَ اللَّصُّ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . وَإِنْ لَمْ
يَكُنْ هُوَ اللَّصُّ فَلِمَاذَا لَمْ يَغْدُ ؟ ! »

أَيْنَ بِلَاكُيُولَ ؟ لِمَاذَا لَمْ يَغْدُ ؟

أَخَذَتْ أُصْدَاءُ هَذِهِ الْأُسْبُلَةِ تَقَرَّدُ فِي أُذُنِّي ثَوْمَ الصَّغِيرِ طَوَالَ اللَّيْلِ .

الفصل العشرون

لَمْ يَغْدُ سَتِيفِنَ بِلَاكُيُولَ ، وَجَدَتْ الشَّرْطَةُ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ . وَدَأَّبَتْ سِيسِي عَلَى
الذَّهَابِ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمٍ تَقْرِيْبًا لِرِيزَارَةَ رَاشِيلَ فِي مَنْزِلِهَا ، وَكَانَتْ تَعُوذُ دُونَ أَخْبَارِ
عَنْ سَتِيفِنَ . وَأَسْعَدَ رَاشِيلَ أَنَّ سِيسِي كَانَتْ تَتَّقَى بِهَا وَبَسْتِيفِنَ ؛ فَقَدْ جَلَبَتْ سِيسِي
مِنْهَا الْحُبَّ وَالْعِزَّةَ ، وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ الْمَرْأَتَانِ صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَتَيْنِ .

وَكَانَتْ رَاشِيلَ تُرَافِقُ سِيسِي شَطْرًا مِنْ طَرِيقِ عَوْدَتِهَا بَعْدَ زِيَارَتِهَا .

وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ شَاهَدَتُهُمَا السَّيِّدَةُ سِيزَارِيتُ تَسِيرَانِ مَعًا فِي الشَّارِعِ ،
فَاسْرَعَتْ فِي الْيَوْمِ الْتَالِيِ لِرِيزَارَةَ رَاشِيلَ وَقَدْ تَنَاوَلَ الْعَدَاءُ ، وَوَجَّهَتْ إِلَيْهَا بَعْضَ
الْأُسْبُلَةِ الَّتِي حَافِلَتْ رَاشِيلَ الْإِجَابَةَ عَنْهَا . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ — وَكَانَ يَوْمُ
الْجُمُعَةِ — غَادَرَتْ السَّيِّدَةُ سِيزَارِيتُ كَوَكْتَاوَنَ بِالْقِطَارِ .

وَفِي الْمَسَاءِ تَوَجَّهَتْ سِيسِي إِلَى مَنْزِلِ رَاشِيلَ كَعَادَتِهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَهَا
أَيَّ أَخْبَارٍ عَنْ سَتِيفِنَ . وَغَقِبَ الزَّيَارَةُ سَارَتَا مَعًا لِبَعْضِ الْوَقْتِ ، ثُمَّ اتَّفَقَتَا عَلَى
أَنْ تَلْتَقِيَا صَبَاحَ الْيَوْمِ الْآتِيِ ، وَكَانَتْ سِيسِي خَرِصَةً عَلَى صِحَّةِ صَدِيقَتِهَا ؛
لِذَا فَكَّرَتْ أَنْ تَصْطَلِحَ بِهَا فِي تَرْهَةِ بِالْكَرِيفِ عَسَى أَنْ يُفِيدَهَا الْهَوَاءُ النَّقِيُّ . وَفِي
السَّاعَةِ السَّابِعَةِ غَادَرَتْ سِيسِي وَرَاشِيلَ الْمَنْزِلَ وَاتَّجَهَتَا صَوْبَ سِتُونِ لَوْدُجِ سِيرَا
عَلَى الْأَقْدَامِ .

كَانَ فِي الشَّارِعِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعَرَبَاتِ ؛ لِأَنَّ أَخَذَ الْقِطَارَاتِ وَصَلَ لِنَوَّهِ إِلَى



بلا كُبول ، وقد رَفَضْتُ أَنْ تَأْتِيَّ مَعِي وَلَكِنِّي ... » ثُمَّ دَفَعَتِ السَّيِّدَةُ بَعْلَهَا إِلَى الْأَمَامِ . وَعِنْدَيْهِ أَصْطَبِعُ وَجْهَ بَاوْنِدِرِي بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ ، وَصَاحَ قَائِلًا : « مَا مَعْنَى هَذَا كُلِّهِ يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِت ؟ »

أَجَابَتْهُ : « إِنَّهَا السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ يَا سَيِّدِي . »

صَاحَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ يُخْصِّنِي وَخُدي ، فَلِمَاذَا تُدَسِّسُ أَتُفَكِّ فِي شُؤُونِي الْعَائِلِيَّةِ ؟ »

تَهَاوَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ فِي ضَعْفٍ عَلَى أَحَدِ الْكَرَاسِيِّ ، وَأَخَذَتْ تُفَرِّقُ يَدَيْهَا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي بَدَأَتْ فِيهِ السَّيِّدَةُ بَعْلَهَا تَرْتَعِشُ وَقَالَتْ بِأَكْبَرَةٍ :

الْمَحْطَةِ . وَبَيْنَمَا كَانَتْ رَاشِيلُ وَسَيْسِي تَمُرَّانِ أَمَامَ مَنْزِلِ بَاوْنِدِرِي شَاهِدَتَا إِحْدَى الْعَرَبَاتِ تَقِفُ بِالْبَابِ ، وَتَقْفُزُ مِنْهَا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ الَّتِي مَا إِنَّ لِمَحْتَهُمَا حَتَّى صَاحَتْ : « يَا لَهَا مِنْ فُرْصَةٍ عَظِيمَةٍ ! يَجِبُ أَنْ تُشْهَدَا هَذَا الْمَنْظَرِ . » ثُمَّ صَاحَتْ تُخَاطِبُ شَخْصًا دَاخِلَ الْعَرَبَةِ : « أَخْرِجِي ! أَخْرِجِي ! وَلَا جَذْبَتِكَ وَأَخْرِجْتُكَ بِالْقُوَّةِ . »

تَجَمَّعَ النَّاسُ بِالشَّارِعِ لِيُشْهَدُوا سَيِّدَةَ مُسَيَّنَةً تُخْرُجُ مِنَ الْعَرَبَةِ وَقَدْ أُمْسَكَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ بِتَلَابِيْهَا ، وَهِيَ تَقُولُ لِلنَّاسِ : « لَا تَلْمِسُوهَا ! إِنَّهَا تُخْصِّنِي وَخُدي ! » ثُمَّ صَاحَتْ تُخَاطِبُ السَّيِّدَةَ : « أَدْخُلِي الْمَنْزِلَ وَلَا أَدْخُلْتُكَ بِالْقُوَّةِ . »

دَخَلَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ وَمَعَهَا السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ مَنْزِلَ بَاوْنِدِرِي ، كَمَا دَخَلَتْ رَاشِيلُ وَسَيْسِي وَعَدَدٌ غَفِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَتَعَرَّفَتْ رَاشِيلُ إِلَى تِلْكَ السَّيِّدَةِ : كَانَتْ السَّيِّدَةُ بَعْلَهَا . عِنْدَيْهِ أَذْرَكَتْ رَاشِيلُ سَبَبَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي وَجَّهَتْهَا إِلَيْهَا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ .

وَقَفَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ مُمْسِكَةً بِتَلَابِيْ السَّيِّدَةِ بَعْلَهَا ، الَّتِي قَالَتْ بِضَعِ كَلِمَاتٍ يَهُدَوِيَّةٍ ، وَلَكِنْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ أَجَابَتْهَا : « لَا ، لَنْ أَتْرَكَكَ لِحَالِ سَبِيلِكَ . » ثُمَّ صَاحَتْ بِصَوْتٍ عَالٍ تُنَادِي السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي ، وَمَا إِنَّ دَخَلَ بَاوْنِدِرِي الْعُرْفَةَ حَتَّى ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ أُمَارَاتُ الدَّهْشَةِ ، كَمَا ارْتَسَمَتِ الدَّهْشَةُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِهِ كُلِّ مِنَ السَّيِّدِ غَرَاذِغَرَايْنِدَ وَتُومِ اللَّذَيْنِ كَانَا مَعَهُ .

سَأَلَ بَاوْنِدِرِي : « مَاذَا بَلَكَ يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِتُ ؟ »

أَجَابَتْهُ بِفَخْرٍ : « لَقَدْ وَجَدْتُ يَا سَيِّدِي الشَّخْصَ الَّذِي تَبَحُّثُ عَنْهُ . إِنَّهَا صَدِيقَةُ

« يا عزيزي جوشيا ! يا ولدي العزيز ! لم يكن ذلك خطي ، فقد أوضحت الأمر لهذه السيدة مرات ومرات . وكنت أعرف أن الأمر لن يروك . ولكنها أكثر هتني على أن آتي إلى هنا . »

سألها باونديري : « لماذا سمحت لها أن تأتي بك ؟ لماذا لم تمنعها أو تلعنهما ؟ فستطلي أسنانها ؟ »

أجابته السيدة بغير : « لقد كاذت تستدعي رجال الشرطة يا ولدي العزيز ، وهذا ما لم أكن أريد يا جوشيا . لقد حافظت على وعدي لك دائما . وعشت خيالي في هدوء أرايكن عن بعد وأعجب بك . ولم أكن أخضر إلى كوكناون إلا مرة واحدة أو مرتين كل عام ، ولم أخبر أحدا على الإطلاق بأنني أمك . »

أخذ كل من في العرفة ينصت لكلامها ، وراح السيد باونديري يذرع العرفة جيئة وذهابا غاضبا ، وألحظت السيدة سباريت في البكاء .

والتفت السيد غراذغرايند نحو السيدة بغير قائلا : « ما هذا اللغو الذي تقولينه يا سيدي ؟ ! لقد ألقى والدك باونديري به على قارعة الطريق عندما كان طفلا ، وكانت قاسية عليه كل القسوة ، حتى إنه تولى تربيته نفسه بنفسه . »

قالت السيدة بغير متسائلة : « أنا كنت قاسية ! وألقيت به على قارعة الطريق ! فليغير الله لك يا سيدي . إن لك خيالا شريرا . »

لم يسبق للسيد غراذغرايند أن توهم أو تخيل شيئا في حياته ؛ لذا أذهنته ما سمعته فهل كذب باونديري على الجميع ؟ ثم سأل السيدة بغير : « أ لم يتول أمك تربية نفسه بنفسه منذ كان طفلا صغيرا . »

أجابته : « لم يحدث شيء من ذلك يا سيدي . إننا لم نكن أثرياء ، ولكن عندما توفي زوجي ، وجوشيا في الثامنة من عمره ، أرهقت نفسي في العمل حتى أستطيع أن أدخل المدرسة . ووجدت في العمل متعة يا سيدي ؛ لأنني كنت أحب آتي . وبعد أن وفقت في إيجاد عمل له ألتحق به ، وأجتهذ في عملي أيضا . وهو الآن رجل ثري من الوجهاء ، وإني لفخورة به ؛ فهو لم ينسني قط يا سيدي . إنه يدفع لي ثلاثين جنيهها كل عام ، وفي هذا الكفاية ، بل وأكثر مما أحتاج . ولا يزال لي متجري بالقرية وهي التي وعده أن أقيم بها دائما ؛ لأن جوشيا كان يرغب في ألا أ تدخل في حياته ، وقد حافظت على وعدي له . ولم أبادل الحديث طوال عشرين عاما ، وما كنت لأتي إلى هنا لولا تلك المرأة ، ولهذا فأنت مخطئ في تفكيرك يا سيدي . لقد كنت دائما خير أم لولدي ، وهذا ما يمكن أن يقوله هو بنفسه . »

ما إن سمع الحاضرون الخطبة المطولة التي ألقتها السيدة بغير حتى هتفوا لها وصفقوا ، في الوقت الذي ألزم فيه السيد غراذغرايند الصمت ، وازداد السيد باونديري غضبا ، حتى بدا وكأنه يوشك على الانفجار ، ثم لوح يذراعيه في الهواء ، وصاح :

« لقد سمعتم ما فيه الكفاية عن شؤني الخاصة ، ولعل من الأفضل لكم جميعا أن تغادروا بيتي ؛ فانا لن أنطرق لأي شيء بالشرح أو الإيضاح . أما بالنسبة ليوم غراذغرايند الذي سينصب بخيبة أمل لما سمع فإنني أقول له إن والذي لم تعاون أحدا في السطو على بنكي . طابت ليلتكم جميعا ! »

فتح السيد باونديري الباب ليخرج منه الناس ، ومرت ساعة عرفت بعدها أهالي كوكناون الحقيقة ، وعرفوا أن باونديري كاذب فيما قاله ، وأن له أمًا خنونا محبة ،

وَأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ سِوَى رَجُلٍ يَدِينُ كَذَابٍ غَضُوبٌ ، حَتَّى
السَّيِّدَةُ سَبَّارِسِتْ فَقَدْ بَدَتْ أَكْثَرَ أَحْتِرَامًا وَشَرَفًا مِنْ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي .

لَمْ تَعُدِ السَّيِّدَةُ يَغْلُرُ لُغْزًا يُحَيِّرُ أَحَدًا ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ أُتِيحَتْ لِبَلَاكِيُول قُرْصَةً
أَفْضَلُ ، لَكِنْ كَانَ لَدَى لُوِيْزَا وَسِيْسِي وَرَاشِيِل مَخَافٌ . فَإِذَا تَمَكَّنَ سَتِيْفِن مِنْ
إثْبَاتِ بَرَاءَتِهِ ، ذَلَّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ شَخْصٍ آخَرَ مُذْنِبٍ ؛ فَدَلِيلُ بَرَاءَةِ سَتِيْفِن يَدِينُ
شَخْصًا آخَرَ . وَكَانَتْ رَاشِيِل تُعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ عَمِلَ عَلَى الْخِيْلُولَةِ دُونَ عَوْدَةِ
سَتِيْفِن إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَتَلَهُ .

أَمَّا مَخَافُفُ سِيْسِي وَلُوِيْزَا فَكَانَتْ مُرْتَبِطَةً أَرْتِبَاطًا غَامِضًا بِيَوْمِ الصَّغِيرِ . وَلَكِنَّهُمَا
خَشِيْتَا الْإِفْصَاحَ عَنْهَا . أَوْ عَنْ الْأَفْكَارِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ فِي رَأْسَيْهِمَا ، رَغْمَ أَنَّ
كُلًّا مِنْهُمَا كَانَتْ تُذَكِّرُ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِ الْآخَرَى . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَزْدَادَ يَوْمِ
الْبِصَافَا بِالسَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، أَمَّا سَتِيْفِن الَّذِي كَانَ الْجَمِيعُ فِي الْبِتْظَارِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَعُدْ .

وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ رَكِبَتْ سِيْسِي وَرَاشِيِل الْقِطَارَ حَتَّى إِحْدَى الْمَحَطَّاتِ الْوَاقِعَةِ
بِالرَّيْفِ ، فِي مَكَانٍ يَتَوَسَّطُ الطَّرِيقَ بَيْنَ كُوكْتَاوَن وَالْمَنْزِلِ الرَّيْفِيِّ الَّذِي كَانَ يَمْلِكُهُ
بَاوْنِدِرِي . كَانَ يَوْمًا صَحْوًا مُشْرِقًا مِنْ أَيَّامِ الْحَرِيفِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَا مِنَ الْقِطَارِ
سَارَتَا مَعًا وَسَطَ الْحُقُولِ ، وَفِي ذُرُوبِ تَطَلَّلَهَا الْأَشْجَارُ تَتَمَتَّعَانِ بِهَدْوِ الرَّيْفِ
وَحُضْرَتِهِ ، وَقَدْ حَرَصَتَا عَلَى تَجَنُّبِ تِلْكَ الْمَبَانِي السَّوْدَاءِ الْخَالِيَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَنَاجِمِ
الْفَحْمِ الْمَهْجُورَةِ . وَعِنْدَ الظَّهْرِ جَلَسَتَا لِتَسْتَرِيحَا .

قَالَتْ سِيْسِي : « إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ هَادِئٌ جِدًّا ، فَالْتَّاسُ لَا يَسْلُكُونَ هَذِهِ الدَّرُوبَ
الْآنَ . » وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَتَكَلَّمُ لَاحَظَتْ وُجُودَ سَوْرٍ قَدِيمٍ مَكْسُورٍ عَلَى مَسَافَةٍ بِضْعَةِ
أَمْتَارٍ ؛ فَتَهَضَّتْ مِنْ مَكَانِهَا وَذَهَبَتْ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً ثُمَّ قَالَتْ : « لَا بُدَّ أَنَّ شَخْصًا

خَطَنَهُ حَدِيثًا ! تَعَالَى يَا رَاشِيِل ! هُنَاكَ قُبْعَةٌ مُلْقَاةٌ عَلَى الْحَشَائِشِ ! »

الْتَقَطَتْ رَاشِيِل الْقُبْعَةَ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ تَرْتَعِشُ ، وَنَظَرَتْ بِدَاخِلِهَا وَقَرَأَتْ
اسْمَ سَتِيْفِن بِلَاكِيُول فَصَرَخَتْ : « يَا لِلْفَتَى الْمَسْكِينِ ! لَقَدْ لَقِيَ خُفَّةً ! لَا بُدَّ
أَنَّهُ مُلْقَى هُنَا يَا سِيْسِي ! »

نَظَرْنَا حَوْلَهُمَا دُونَ أَنْ تَتَحَرَّكَ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ تَجِدَا شَيْئًا يَخْصُرُ سَتِيْفِن ، فَقَالَتْ
سِيْسِي : « سَأَمْشِي قَلِيلًا . »

وَهَمَّتْ بِأَنْ تَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهَا ، فَإِذَا بِرَاشِيِل تُطَلِّقُ صَرَخَةً عَالِيَةً ، وَتُمْسِكُهَا
مِنْ ذِرَاعَيْهَا وَتَجْذِبُهَا إِلَى الْوَرَاءِ . وَنَظَرْنَا دَاخِلَ حُفْرَةِ سَوْدَاءِ أَمَامَهُمَا تَكَادُ تُخْتَفِي
بَيْنَ الْحَشَائِشِ الطَّوِيلَةِ الْكَثِيفَةِ ، وَصَاحَتْ رَاشِيِل : « يَا إِلَهِي ! إِنَّهُ مُلْقَى فِي
الْقَاعِ ! هُنَاكَ ! وَانْفَجَرَتْ فِي الْبُكَاءِ بِصَوْتٍ عَالٍ عِدَّةَ ذَفَائِقَ ، وَوَقَفَتْ سِيْسِي
أَمَامَهَا لَا تَذْهَبُ مَاذَا تَفْعَلُ ، وَأَخِيرًا قَالَتْ : « يَجِبُ أَنْ نَفْكَرَ يَا عَزِيزَتِي رَاشِيِل
فِي سَتِيْفِن ؛ فَقَدْ يَكُونُ حَيًّا . يَجِبُ أَنْ نَجْلُبَ الْعَوْنَ بِسُرْعَةٍ . »

قَالَتْ رَاشِيِل : « نَعَمْ ، نَعَمْ ! أَسْرِعِي فِي جَلْبِ الْعَوْنِ . »

تَوَجَّهَتْ سِيْسِي إِلَى حَافَةِ الْحُفْرَةِ وَصَاحَتْ تُنَادِي سَتِيْفِن ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي بِدَائِهَا
أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، وَلَكِنْ مَا مِنْ مُجِيبٍ ، فَقَالَتْ : « يَجِبُ أَلَّا نَضِيعَ مَرِيدًا
مِنْ الْوَقْتِ يَا رَاشِيِل . عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ فِي أَتْجَاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ طَلَبًا لِلْعَوْنِ . وَأُبْلِغِي
كُلَّ مَنْ تُقَابِلِينَهُ بِمَا حَدَثَ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ الرِّجَالُ إِلَى هُنَا بِجِبَالٍ . وَيَجِبُ أَنْ
تَبْعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى كُوكْتَاوَن . فَتُخَبِّرْ فِي حَاجَةٍ إِلَى طَيِّبٍ . أَسْرِعِي يَا رَاشِيِل !
فَكَّرِي فِي سَتِيْفِن ! وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْلُكِي هَذَا الدَّرَبَ ، أَمَّا أَنَا فَسَأُوَصِلُ السَّيْرَ إِلَى
الْأَمَامِ . »

في حوالى الخامسة مساءً ثم إخراج ستيفن من الحفرة وهو مهتمم الجسد ولكنه كان حيًا . وجاء في تلك اللحظة كل من لويزا و غراذغرايند ، وجاء أيضا السيد باوندرى ومعه الجرّو وطبيب .

أعطى الطبيب ستيفن دواءً قويًا ، فاستطاع أن يتكلم بضعة دقائق ، وعرفوا منه أنه كان في طريقه إلى منزل السيد باوندرى سيرا على الأقدام قادمًا من مكان عمله ، حتى ثبت للجميع أنه لم يسقط على البنك ، إلا أنه أثناء اجتيازه تلك البقعة الخطرة من الرّيف لئلا سقط في الحفرة .

إنحنت راشيل فوقه وهو ملقى على الحشائش وقالت له : « إنك تشعر بالآلام شديدة يا فتاي العزيز ! هل الأمر في غاية السوء ؟ »

أجابها : « لقد كانت الآلام فظيعة يا راشيل ، إلا أنها أخف كثيرًا الآن . إنه التّخبط يا فتاتي ... التّخبط في كل شيء . أنظري هناك يا راشيل وتطلعي إلى السماء . هل تَرين ذلك النّجم ؟ »

تطلّع الجميع إلى السماء ورأوا بها نجمًا من نجوم الليل الساطعة . وواصل ستيفن كلامه فقال : « لقد كنت أنطلق إلى هذا النّجم خلال وجودي بالحفرة يا راشيل ، وأعتقد أن هذا النّجم قد صار حني بالحقيقة . فعندما تسلمت رسالتك تذكرت تلك السيدة الشابة وشقيقها . »

وجاءت لويزا وإنحنت إلى جوار ستيفن الذي استمر في كلامه : « لقد اعتقدت أنهما خططا معًا لهذه الجريمة . وكنت مسرعًا في طريقي لأوجه الاتهام إليهما عندما سقطت في هذه الحفرة . ولكن لما تطلعت إلى النّجم تبين لي الأمور بجلالة ووضوح . »



إنفتحت ونظرت في عيني لويزا وقال : « إنني أفهمك الآن يا سيدي . فليجزيك الله خير الجزاء . هل يمكنك أن تحبلي رسالة مني إلى والدك ؟ »

كانت لويزا ترتعد وهي تقول : « أبي هنا . » وأقبل السيد غراذغرايند عندما نادته ؛ فقال له ستيفن :

« أنا لا أعتقد يا سيدي أن أمامي وقتًا طويلًا ، لذا عليك أن تثبت براءتي . إن اسمي وسمعتي بين يديك الآن . »

قال غراذغرايند : « وكيف أثبت ذلك ؟ »

أجاب ستيفن : « سيصرفك ابنك بكل شيء . إنني لا أتهم أحدًا بالسرقعة ، ولن أنقوه بكلمة في حق أحد . ولكن الذي حدث هو أن ابنك تكلم معي يومًا ،

وَهُوَ يَعْلَمُ السَّبَبَ الَّذِي كُنْتُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْتَظِرُ أَمَامَ الْبَيْتِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَذْكُرَهُ
لَكَ . »

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْصَرَفَتْ سِيسِي مِنْ وَسْطِ الْجَمْعِ الْمُلْتَفِّ حَوْلَ سَتِيفِن .
وَأَتَجَهَّتْ إِلَى حَيْثُ يَقِفُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَتُوم ، ثُمَّ هَمَسَتْ بِشَيْءٍ فِي أُذُنِ تُوم .

كَانَ بَعْضُ الرِّجَالِ الَّذِينَ اتَّفَعُوا سَتِيفِن قَدْ أَعَدُّوا لَهُ فِرَاشًا وَأَرْقَدُوهُ عَلَيْهِ ، وَقَامَ
الطَّبِيبُ بِلَفِهِ بِنَعَضِ الْمَعَاطِفِ وَالْأَغْطِيَةِ ، وَحَمَلَهُ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ غَيْرَ ذَلِكَ الدَّرَبِ .
قَالَ سَتِيفِن لِرَاشِيل : « أُمْسِكِي يَدِي يَا عَزِيزَتِي رَاشِيل ؛ فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ اللَّيْلَةَ أَنْ
نَمْشِيَ مَعًا دُونَ خَجَلٍ . »

قَالَتْ رَاشِيل : « سَأُمْسِكُ يَدَكَ يَا سَتِيفِن ، وَسَأُظَلُّ إِلَى جَوَارِكَ . »

قَالَ : « بَارَكَكَ اللَّهُ ! هَلْ يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تُعْطُوا وَجْهِي ؟ »

حَمَلَهُ الرِّجَالُ وَسَارُوا بِهِ فِي هُدُوءٍ ، وَكَانَتْ رَاشِيلُ مُمْسِكَةً بِيَدِهِ . وَلَمْ يَتَكَلَّمْ
سَتِيفِن بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَبْلَ أَنْ يُصِلَ الْمَوْكِبُ إِلَى مَحْطَةِ الْقِطَارِ كَانَتْ الْحَيَاةُ قَدْ
فَارَقَتْهُ ، وَصَارَتْ يَدُهُ بَارِدَةً .

وَلَمْ يَكُنْ تُوم فِي هَذَا الْمَوْكِبِ .

الفصل الحادي والعشرون

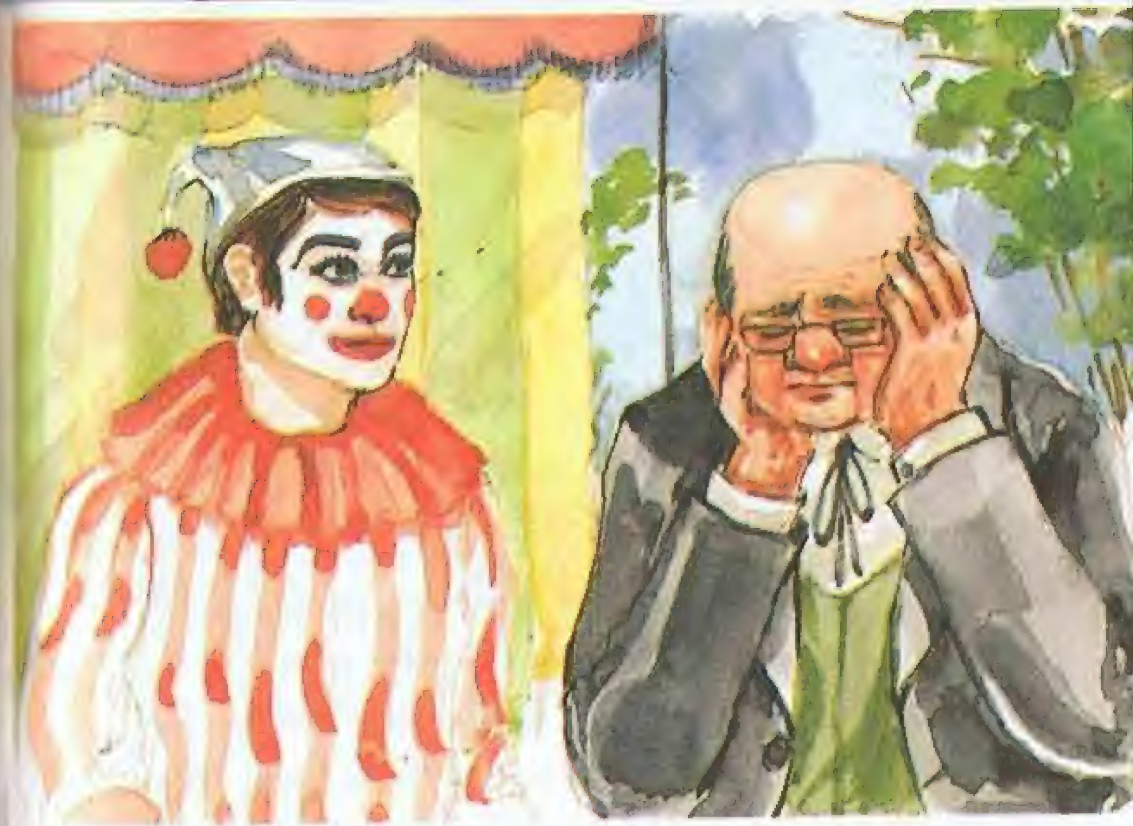
لَمْ يُشَاهَدْ تُوم غَرَاذْغَرَايْنِد بَعْدَ ذَلِكَ فِي كُوتَاوَن . فَفِي مَسَاءِ يَوْمِ الْآخِذِ عَمِلَ
تُوم بِنَصِيحَةِ سِيسِي وَسَافَرَ إِلَى مَدِينَةِ لِيْفَرِبُولِ الَّتِي تُبْعُدُ حَوَالَى خَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا
عَنْ كُوتَاوَن ، وَهُنَاكَ عَثَرَ عَلَى سِيرِكِ سِلَارِي حَيْثُ اتَّفَقَى بِالسَّيِّدِ سِلَارِي ،
وَسَلَّمَهُ رِسَالَةً مِنْ سِيسِي . وَلَمْ يُوجِّهِ السَّيِّدُ سِلَارِي إِلَيْهِ أَيَّةَ أَسْئَلَةٍ ، وَاکْتَفَى بِأَنْ
قَالَ لَهُ إِنَّهُ اعْتِرَافًا مِنْهُ بِعَطْفِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِد ، وَرِعَايَتِهِ لِسِيسِي ؛ فَإِنَّهُ سَنُوفُ
يُمَدُّ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ لِأَيِّهِ تُوم . وَمِنْ ثَمَّ أُعْطِيَ تُوم زِيًّا مِنْ أَزْيَاءِ الْمُهْرَجِينَ بِالسَّيْرِكِ
لِيُعَاوَنَهُمْ .

وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ وَصَلَ إِلَى السَّيْرِكِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِد وَلُويْزَا وَسِيسِي ،
وَتَحَدَّثُوا إِلَى السَّيِّدِ سِلَارِي ، وَشَرَحُوا لَهُ خُطَّتَهُمُ الَّتِي أَعَدُّوا لِهَرُوبِ تُوم إِلَى
أَمْرِيكََا عَلَى ظَهْرِ إِخْدَى السُّفُنِ ، الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ تُغَادِرَ لِيْفَرِبُولَ فِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ . وَوَافَقَ السَّيِّدُ سِلَارِي عَلَى الْخُطَّةِ ، وَأَحْضَرَ تُومَ إِلَى الْخِيْمَةِ ، وَتَرَكَهُ مَعَهُمْ
وَأَنْصَرَفَ .

وَعِنْدَمَا رَأَى السَّيِّدُ غَرَاذْغَرَايْنِدَ أَنَّهُ فِي مَلَابِسِ الْمُهْرَجِينَ دَفَنَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
وَسَأَلَهُ بِاِكْبِيَا : « لِمَاذَا ... لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ »

سَأَلَهُ تُومُ بِعَبَاءٍ : « مَاذَا فَعَلْتُ ؟ ! »

قَالَ لَهُ وَالِدُهُ : « لِمَاذَا سَرَقْتَ الْبَيْتَ ؟ لَقَدْ أَغْيَانِي هَذَا الْحَبِيرُ . »



قَالَ ثُوم : « كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّعَ ذَلِكَ . لَقَدْ جَعَلْتَنِي أَعْمَلُ بِأَلْبَنِيكَ ، وَعِنْدَمَا يَعْْمَلُ خَمْسُونَ شَخْصًا بِأَلْبَنِيكَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْرِقَ أَحَدُهُمُ التَّقْوَدَ ، وَتِلْكَ إِحْدَى حَقَائِقِكَ الشَّهِيرَةِ الَّتِي كَرَّرْتُهَا مِثَّةَ مَرَّةٍ عَلَى مَسْمَعِي ، وَكُنْتُ تَجِدُ دَائِمًا رَاحَتَكَ فِي الْحَقَائِقِ . حَسَنًا ، إِذَا فَلْتَجِدُ رَاحَتَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَيْضًا . »

حَتَّى غَرَاذْغَرَانِدَ رَأْسَهُ قَائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تُغَادِرَ إِنْجِلْتِرَا الَّلَّيْلَةَ ، وَأَعْطَاهُ خِطَابًا وَقَالَ لَهُ : « إِلَيْكَ التَّذَكُّرَةُ ، وَبَعْضُ التَّقْوَدِ ، وَأَمْلُ أَنْ تُوفَّقَ فِي عَمَلِ شَيْءٍ نَافِعٍ . لَقَدْ كَانَتْ جَرِيْمَتُكَ شَنِيعَةً ، وَكَانَتْ نَتَائِجُهَا وَخِيمَةً . وَلَكِنْ مَدَّ لِي يَدَكَ يَا وَلَدِي الْمِسْكِينِ . وَلَيْسَ بِمَحْكُومٍ اللَّهُ كَمَا سَامَحْتُكَ . »

وَالْخُرَطُ ثُومَ فِي الْبَكَاءِ عَلَى حِينٍ مَدَّتْ لَهُ لُوِيْزَا ذِرَاعَيْهَا ، وَلَكِنَّهُ صَاحَ فِيهَا

قَائِلًا : « لَا ! لَيْسَ أَنْتَ ! لَنْ أَمْسِكَ ! إِنْ كُلَّ مَا حَدَثَ كَانَ نَتِيجَةً لِحُطْطِكَ ، فَأَنْتَ لَمْ تَهْتَمَّ بِي قَطُّ . »

انْفَجَرَتْ لُوِيْزَا بِاِكْبَةٍ ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدِمَ سَلَارِي ، وَقَالَ : « عَلَيْنَا أَنْ نُسْرِعَ ، فَالْمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمِينَاءِ أَكْثَرُ مِنْ بَسْعَةِ كِيلُومِثْرَاتٍ ، وَلَنْ تَنْتَظِرَنَا السَّفِينَةُ . »

خَرَجُوا جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِ الْخِيْمَةِ وَقَدْ آرْتَسَمَتِ آيَتَسَامَةُ عَلَى وَجْهِهِ النَّحِيفِ الْأَبْيَضِ ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ بِيْتَرُ . قَالَ :

« لَقَدْ تَبَيَّنَتْ خُطَاكُمْ مِنْ كُوكُتَاوَنَ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ مَا تَقُولُونَ . وَيُؤَسِّفُنِي أَنْ أُنْذَخَلَ فِي خُطْطِكُمْ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ ثُومِ الصَّغِيرِ أَنْ يَأْتِيَ مَعِي . لَقَدْ كَانَتْ الظُّنُونُ تُرَاوِدُنِي دَائِمًا بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَطَا عَلَى أَلْبَنِيكَ ، وَقَدْ تَأَكَّدْتُ الْآنَ مِنْ صِحَّةِ ظَنُونِي . »

إِرْتَعَدَ جَسَدُ غَرَاذْغَرَانِدَ وَقَالَ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « أَلَيْسَ لَكَ قَلْبٌ خَنُونٌ يَا بِيْتَرُ ؟ » أَجَابَهُ : « بَلَى ، يَا سَيِّدِي إِنَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ لَهُمْ قُلُوبٌ خَنُونَةٌ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ ، فَالْقَلْبُ دَاخِلُ الْجِسْمِ هُوَ ... »

قَاطَعَهُ صَائِحًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ يَا بِيْتَرُ ، وَلَكِنْ أَلَا تَأْخُذُكَ بِنَا شَفَقَةٌ ؟ أَلَا يُهْمُكَ أَمْرُنَا ؟ أَمْ لَعَلَّكَ تَفَكَّرَ فِي مُكَافَأَةٍ مَا ؟ »

أَجَابَهُ بِيْتَرُ : « شَفَقَةٌ ! إِنَّ الْعُقَلَاءَ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي الْحَقَائِقِ يَا سَيِّدِي ، وَأَنَا لَا أَكْزُرُهُ ثُومِ الصَّغِيرِ ، وَلَكِنِّي سَوْفَ آخُذُ مَكَانَهُ بِأَلْبَنِيكَ . »

سَأَلَهُ غَرَاذْغَرَانِدَ : « هَلْ لِي أَنْ أُعْرِضَ عَلَيْكَ شَيْئًا ؟ كَمْ مِنْ أَلْمَالِ ... ؟ »

قاطعة بيتزر قائلا : « يُوسفتي أن أقطعك يا سيدي ، ولكنتي لو قبلت منك
نقودا لكنت مذنبًا بدوري . إني أفضّل أن آخذ مكان ثوم . »

كان سلاري يسمع هذه المناقشة فاغر الفم دهشًا ، ثم ابتسم خلسة ليسي
وقال للسيّد غراذغرايند : « حسنًا يا سيدي . إن الأمر بالغ الخطورة ، ولم أكن
أعرف أن أبتك سطا على بئك . إني أتفق مع هذا السيّد فيما يقوله وأنا آسف
لهذا ؛ ولكن يجب أن يعود أبتك إلى كوكثاون . »

والتفت إلى بيتزر قائلا : « إني لا أستطيع أن أفعل الكثير يا سيدي ، ولكن
حصاني وعربتي على أهبة الاستعداد وسأوصلكما إلى المحطة . وسأمر بعربة
أخرى ليركبها السيّد غراذغرايند والسيّدان ثم تسير خلفنا . »

قال بيتزر : « هذا جميل ، وشكرا لك يا سيّد سلاري . إني ما كنت أعرف
أن أهل السيرك يطيعون القانون . »

قال سلاري : « إننا نطيع القانون طبعًا يا سيدي ، ولكن هل يضايقك أن
أصطحب كلبي معي ؟ فالحصان يرفض أن يذهب إلى أي مكان بدون الكلب .
ولهذا يجب عليّ أن آخذه معنا . »

قال بيتزر : « يستطيع الكلب أن يساعد في جراسة هذا اللصّ الكذاب . »

ووصلوا إلى العربية وركبها ثوم وبيتزر والكلب . وقال سلاري لبيتزر :
« استأذنيك دقيقة واحدة حتى أصطحب السيّد غراذغرايند والسيّدتين إلى خيمتي
لينتظروا وصول عربتيهن . »

ولما دخلوا الخيمة أسرع السيّد سلاري بشرح خطئه للسيّد غراذغرايند
فقال : « يمكنك أن تعتمد عليّ يا سيدي ؛ فقد درّبت هذه الحيوانات بنفسني :
فالحصان لن يصل أبدًا إلى المحطة ؛ لأنه سيصاب بالهياج عندما نصل إلى مكان
ما بالطريق ، وسوف أظاهر عندئذ بأنني فقدت السيطرة عليه ، وستكون قد
أقتربتنا من الميناء ، وعندئذ سنقذف بأبتك خارج العربية على حين يمسك الكلب
بسرّوال بيتزر واقف أنا دون أن أفعل شيئًا ؛ ومن ثمّ ستتمكن من أن تضع أبتك
على متن السفينة المسافرة . »

وفق السيّد سلاري في العثور على ملابس مناسبة لثوم الصغير ، وأخذ معه
قطعة من القماش وزجاجة زيت ليستخدمها في تنظيف وجه ثوم وإزالة الأصابع
عنه ، وقاد العربية وسط الظلام الذي كان قد خيم على المكان .

أما غراذغرايند ولويزا ويسي فقد شعروا جميعًا بالإمتنان لسلاري ، وقضوا
ليلتهم في أحد الفنادق . وعاد السيّد سلاري مضطجعًا كلبه في حوالى الرابعة
صباح اليوم التالي . وكان ثوم على سطح السفينة في طريقه إلى أمريكا . أما بيتزر
فكان في طريق عودته إلى كوكثاون وحيدًا .

أقام السيّد غراذغرايند حفلًا في الفندق لكل العاملين بالسيرك ، وقد أَسْعَدَ
يسي أن تلقى مرة أخرى بكل أصدقائها الأقدمي ، وإثناء العشاء همس السيّد
سلاري إلى السيّد غراذغرايند قائلا :

« لقد توفّي والد سيسي ، ولا أعرف متى ولا أين توفّي ، ولكنتي واثق بأنه
قد مات . »

سأله غراذغرايند : « كيف عرفت ذلك ؟ »

أجابته سلاوي : « كان لأبيها كلبٌ يُدعى ميريلغز ، وقد عادَ هذا الكلبُ إلى السيرك منذ أربعة عشر شهراً ، وكان في حالة سيئة جداً بعد أن فقد بصره ، ولا بدُّ أنه سار مسافة طويلة قبل أن يصل إلينا . وما إن وصل إلى السيرك حتى راح يشم الأطفال واحداً بعد الآخر ، وكأنه يبحث عن طفلة معينة يعرفها حتى وصل إلني ، وحاول أن يقف على رجله الخلفيتين ، ولكنه سقط ومات بعد خمس دقائق . إن ذلك الكلب يا سيدي ما كان ليترك صاحبه جوب لو كان على قيد الحياة . »

قال غراذغرايند : « إنني لا أوافقك الرأي ، فإن سيسي لا تزال تأمل أن يعود والدها يوماً ، ولا تراودها أي شكوك في أنه ما زال يحبها . »

قال سلاوي : « دعها تستمر في آمالها وفي حبها يا سيدي . فإن ذلك سيجعل حياتها أكثر سعادة . »

ولكن ماذا حمل المستقبل في طياته لشخصيات هذه القصة ؟ ماذا سترى لو نظرنا إلى المستقبل ؟

لقد ظل باونديري غاضباً من السيدة سباريت ، وضاقَ هي به ذرعاً ، وبعد أسبوعين فقط أعادها إلى عائلتها الثرية ، ولكنها قالت له قبل أن تتركه : « يجب عليك يا سيدي أن تعمل بالسيرك ؛ فأنت في الحقيقة مُهرج ، والسيرك هو المكان الملائم لك . »

وكُلما تقدّم العمرُ لباونديري ازداد وجهه أحمراراً ، وازداد غضباً من كل صغيرة وكبيرة . وبعد مرور خمس سنوات على تلك الأحداث كان يسير ذات يوم في الشارع متجهاً إلى البنك عندما انفجر شيء في داخله ، ومات في الشارع . إنه لم ينشأ في الشارع ، ولكنه — في حقيقة الأمر — مات فيه .

أما غراذغرايند فقد تغير تغيراً ملحوظاً ؛ إذ حل الحب والأمل في حياته محل الحقائق والأرقام . وتمتع مع أولاده الثلاثة الصغار بحياة أسعد بكثير من الحياة التي عاشتها شقيقته لويزا ، وأخوهم ثوم الصغير . ونشر غراذغرايند خطاباً أعلن فيه على الملأ براءة ستيفن بلاكبول ، وأن المذنب الحقيقي هو أنه ثوم .

ماذا أخفى المستقبل للويزا ؟

لقد عاشت حياة رقيقة . وتلفت من ثوم خطاباً يلتبس فيه منها الصنف وقال لها في خطابه : « إنني لأضحى بكنوز الدنيا كلها من أجل أن أرى وجهك مرة أخرى . » ولكن القدر شاء ألا ترى وجهه مرة أخرى ، فقد مات بالحمى في أحد المستشفيات .

ولكن هل تزوجت لويزا مرة أخرى ؟ هل أنجبت أطفالاً ؟

لا لم ينشأ لها القدر ذلك .

هل كان لها أصدقاء ؟ نعم كان لها أصدقاء ؛ فقد كانت راشيل أعز أصدقائها . واستمرت راشيل في عملها بمصنع النسيج طوال حياتها ، وعاشت حياة سعيدة ، وكانت دائماً طيبة خنونا . وكانت الشخص الوحيد في كوكتاون الذي أحب زوجة ستيفن وأشفق عليها .

كان للويزا صديقة أخرى هي سيسي ، التي ظلت دائماً إلى جوارها ومعها أبنائها . وكان لسيسي منزلٌ تحيط به الزهور ، وتنبأه الصور والكتب والقصص ، وقد زينت جذرائه وأرضيته بالصور الخيالية الجميلة . لقد كان بيتها مكاناً مملوءاً بالحب وبكل أسباب المتعة . حتى السيد غراذغرايند كان يحاول أن يستمتع بهذه الأشياء التي أحببتها لويزا بدورها حباً جمّاً .

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١١٠ شارع حسين راسل - ميدان المساحة - الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

رقم الإيداع: ١٩٨٩/٢٧٦٠

الترقيم الدولي: ISBN ٩٧٧-٩١٦-٢٢-٢٠

رقم مرجع كمبريدج: 01 C 198110

طبع بمطابع أخبار اليوم

الزمن العَصيب



الروايات المشهورة

